الحكيم الناقد أستاذ الجيل

أ.د. محمد بن عبدالرحمن الهدلق

(١٣٦٣-١٤٤٥هـ / ١٩٤٤-٢٠٢٤م)

أبحاثٌ ومقالاتٌ وندواتٌ بمدادِ مجايليه وتلامذته ومحبيه

دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع

الحكيم الناقد أستاذ الجيل

أ.د. محمد بن عبد الرحمن الهدلق

(١٣٦٣-١٤٤٥هـ/ ١٩٤٤-٢٠٢٤م)

أبحاث ومقالات وندوات بمداد مجايليه وتلامذته ومحبيه

دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع

دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع ، ١٤٤٥هـ

فهرس مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع

الحكيم الناقد أستاذ الجيل أ.د. محمد بن عبدالرحمن الهدلق.

دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع- ط١ – الرياض، ١٤٤٥هـ

٢٩٠ص؛ ١٧×٢٤سم (أدب عربي؛ ١)

رقم الإيداع: ١٤٤٥/٢٥١٤٨هـ

ردمك: ٣- ١٥٧٨- ٠٥- ٦٠٣- ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى – الرياض ١٤٤٥هـ/٢٠٢٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بمداد الوفاء امتدّت صفحات هذا الإصدار امتداد الراحل أستاذ الجيل: أ.د.محمد بن عبدالرحمن الهدلق في الحيوات العلميّة والعمليّة والثقافيّة والاجتماعيّة، الذي قضى نحبه يوم الأحد ٢٥ جمادى الآخرة ١٤٤٥هـ/ الواقع في ٧ يناير ٢٠٢٤م؛ إذ نقرأ صفحاتها من صدور مجايليه وتلامذته ومحبّيه بما اختطّه مدى ثمانية عقود في كلمات ومواقف وشهادات.

لذا لم يكن شأن هذا الإصدار أن يقرّر سيرة الراحل بمباشرة أحداثها وتحوّلاتها وتعقّب سنواتها، وإنّما جمْع ما تقاطر من ندى الأقلام والأفهام؛ لتؤلّف تيّارًا من المشاعر، وفيضًا علميًّا زاخرًا يخلد بخلود الراحل في ذاكرة العلم والثقافة والأدب.

سيتنقّل القارئ في هذا الإصدار بين أربعة فصول يتقدّمها بجلالٍ حوارٌ سابقٌ مع الفقيد يضيء شيئًا من تلك الحيوات، وهو إذ ذاك يتبيّن تلك الشخصيّة الاستثنائيّة؛ شخصيّة الضدّ بما حباها المولى من قدرة على ضمّ الشيء وضديده في تناغم بديع لايُحَسّ فيه انحيازٌ أو حيادٌ؛ فهو العالم الحازم الحليم، والناقد الذي يوائم بين الأصالة والمعاصرة، والحكيم الذي يجدل الصرامة بالمرونة، والنديم الذي يراوح بين الجدّ والهزل، وما كان مثل هذا الاتّزان لولا تعدّد التجارب، واختلاف البيئات، وتنوّع التواصل الإنسانيّ؛ حتى بات من السائغ وصف شخصيّته بأنّها "مجمع الفرقاء، وأُنس الرفقاء".

أمّا الفصول الأربعة؛ فقد توزّعت بين أبحاث مهداة، ومقالات سيريّة، وندوات وتأبين، واحتفاء وتكريم؛ ليأتلف اللّاحق والسابق، والحضور والغياب معبّرًا عن ميسم هذه الحياة التي طبعت بطابع السيرورة والصيرورة.

ليس من مراد هذا التقديم أن يزوي أبعاد هذا الإصدار، أو يكرّس متصوّرًا ذهنيًّا، بل مراده نظْم ما توزّع من مودّة ووفاء للراحل، وضمّ ما انتهى إليه هذا التداعي الوجدانيّ إثر الفقد ومرارة الفراق.

والله المرتجى عفوًا وغفرانًا.

د.عبدالعزيز بن عبدالله الخراشيّ

أصيل يوم الاثنين ١٩ ذو القعدة ١٤٤٥هـ

ثبت المحتويات

الموضوع	الكاتب	رقم الصفحة
تقديم.		٥
ثبت المحتويات.		٧
حوار مع الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق.		٩
الفصل الأول: أبحاث مهداة		٢١
الهدلق (أحاديثَ تبقى، والفتى غيرُ خالدِ).	أ. د. عبدالله الجربوع	٢٣
يوم الخروج : المتنبي هاربًا!	أ. د. عبدالعزيز المانع	٤٦
التراث الممتوح في شعر سعد مصلوح قصيدة (سبعون) أنموذجًا.	أ.د.أبوأوس الشمسان	٧٠
الأستاذ الدكتور محمَّد بن عبدالرحمن الهَدْلَق (ذكريات ومواقف).	أ. د. عبدالله الفَيفي	٩٠
بلاغة الفقد: الشاعر المكفوف بوصفه حكّاءً.	أ.د. معجب العدواني	١٠٧
من وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم: ألوان البديع في سورة الأنبياء نموذجًا.	د.عبدالعزيز الخراشيّ	١٢٧
الفصل الثاني: مقالات سيرية		١٧٧
في ذكرى رحيل أ.د.محمد بن عبد الرحمن الهدلق.	أ.د. أحمد الضبيب	١٧٨
ذكريات مع الفقيد د.محمد بن عبد الرحمن الهدلق.	أ.د.صالح الوهيبي	١٨٠
لماذا نُحبُّ الهدلق؟	أ.د. معجب العدواني	١٨٣
أستاذ الجيل: أ.د.محمد الهدلق مجمع الفرقاء وأُنْس الرفقاء.	د. عبدالعزيز الخراشيّ	١٨٦
د.محمد الهدلق: الوقار والزهد.	أ.د. عبدالله الحيدري	١٨٩
أستاذ المودة والأخلاق النبيلة الأستاذ الدكتور محمد ابن عبد الرحمن الهدلق.	أ.د. صالح الخضيري	١٩٣

صفةٌ جامعة من صفات الراحل.	أ.د.صالح زياد الغامدي	١٩٥
الرحيل المر.	أ.د عبداللطيف الحميد	٢٠٧
الأستاذ الدُّكتور محمَّد الهَدْلَق.	أ.حسين بافقيه	٢٠٩
محمد الهدلق.. أستاذ أجيال.	د. عبدالعزيز الحيدري	٢١١
الشّاب السبعيني.	د.خالد بن فهد العتيبي	٢١٣
أفنى عمره في البحث والتأليف والتدريس وتخريج الأجيال: محمد الهدلق.. فقيد اللغة والأدب.	أ.سامي التتر	٢١٧
الفصل الثالث: ندوات وتأبين		٢٢٣
الندوة الأولى: الأستاذ الدكتور محمد الهدلق .. سيرة ومواقف وشهادات.		٢٢٤
الندوة الثانية: جهود أ.د.محمد الهدلق العلميّة والتعليميّة:		٢٢٩
- أ.د.صالح بن معيض الغامدي.		٢٣٠
- أ.د.محمد بن عبدالله منور.		٢٣٤
- أ.د.أمل بنت محمد التميمي.		٢٣٩
- د. منال بنت أحمد العمري.		٢٥٧
الفصل الرابع: احتفاء وتكريم		٢٦١
إشارات من وحي سيرته ومسيرته.	أ.د. أحمد الضبيب	٢٦٢
الدكتور محمد الهدلق الباحث الناقد.	أ.د.عبدالعزيز المانع	٢٦٥
شيمته الكتب .. محمد الهدلق: همزة الوصل في قصصنا كلها.	أ.د.عبدالله الغذامي	٢٧٣
أستاذنا محمد الهدلق.	أ.د.أبو أوس الشمسان	٢٧٩
هكذا عرفت الهدلق.	أ.د. سعاد المانع	٢٨٤
أديب من جيل الرواد.	أ.عبدالله الحقيل	٢٨٨
المتصافي المتسامح.	د. محمد المشوح	٢٩٠
ابق دائمًا معلمي!	أ.د. فاطمة الوهيبي	٢٩٢

حوار مع الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق (*)

سعادة الأستاذ الدكتور محمَّد بن عبدالرحمن الهدلق، نرحِّب بكم أجمل ترحيب في هذا العدد الخاص من نشرة "جسور". ولنبدأ حديثنا من علاقتكم بالشيخ حمد الجاسر –رحمه الله– الذي تربطكم به ذكرياتٌ جميلة، فهل لك أن تحدِّثنا عنها؟

سمعتُ عن الشيخ حمد الجاسر –رحمه الله– أوَّل مرَّة وأنا في المدرسة الابتدائية في (شقراء)، أمَّا كيف حصل هذا فإليك القصة:

كان والدي –رحمه الله– فلَّاحًا في (شقراء)، وعندما نضبَ ماء البئر التي كان يروي النخلَ منها هو وعمِّي سعد، أشار عليهما خالهما عبد العزيز الجمَّاز بأنْ يذهبا إلى (السِّرِّ) لأنَّ مياهه غزيرةٌ لا تغور، وقد أخذا بنصيحته، فانتقلا بأسرتَيْهما إلى (السِّرِّ) على ظهور الجِمال، وذلك في عام١٣٦٩هـ، وقد زرعا في ذلك العام في قصر (مزرعة) لمحمَّد بن فُليِّح، وفي عام١٣٧٠هـ في قصر آخَر قريب منه يُدعى (حَزمِيَّة). وهذه المَزارع –أو القصور كما كانت تُسمَّى– تقع شرق مدينة (ساجر) في (السِّرِّ). وكان يوجد قريبًا من هذَيْن القصرَيْن قصر كبير (مزرعة) لأسرة كريمة يُقال لها (الحوشان) من قبيلة (حَرْب)، وكبير هذه الأسرة في ذلك الوقت هو علي ابن حوشان رحمه الله، وله إخوان أعرف منهم محمَّدًا وعبدالله (أو عبودًا كما كانوا ينادونه). ويوجد في قصر (حزميَّة) مسجدٌ أُلحِقَت به مدرسة صغيرة. وقد ذكر لي والدي وعمِّي

(*) نُشر هذا الحوار في العدد الخاص بالأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق –رحمه الله– في نشرة "جسور" الصادرة في محرَّم ١٤٣٨هـ، عن مركز حمد الجاسر الثقافي، العدد العشرون.

لاحقًا أنَّ علي بن حوشان أخبرهما بأنَّ حمد الجاسر كان في صِغَره يدرُس مع أخيه عبُّود الحوشان وآخَرين في تلك المدرسة الصغيرة، وذلك في زمن سابق كثيرًا على مجيئنا إلى (السِّرّ).

وقد عَلِقَ هذا الخبر بذهني سنواتٍ طوالاً، ثم خطر مرَّةً ببالي وأنا في مجلس الشيخ حمد فسألتُه: هل درستَ في (حزمِيَّة) في زمن الصِّبا؟ فنظر إليَّ بشيءٍ من الاستغراب ثم قال: نعم. فقلتُ: وهل كان من زملائك عبُّود الحوشان؟ فقال: نعم، كان عبدالله معي. هكذا نطق اسمَهُ وكأنه لم يستحسن استخدامي للاسم الذي كان يُناديه به أهلُه وهو عبُّود و(عبُّود) هذا هو الذي كان يؤمُّ جماعتَهُ في الصلاة، ويخطب فيهم يوم الجمعة؛ وذلك لأنه متعلِّم).

أمَّا أول مرَّة رأيتُ فيها الشيخ حمد الجاسر عيانًا فقد كانت في الثمانينيات الهجرية من القرن الماضي، لعلَّ ذلك كان في منتصفها أو قبل ذلك بقليل.لقد رأيتُ الشيخ في مطار الرياض القديم وقد حضرَ ليودِّع الدكتور حمود البدر الذي كان سيسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإكمال دراسته العُليا.ثم زرتُ الشيخ في منزله ببيروت برفقة الزميل الدكتور عبدالعزيز المانع في عام١٣٨٩ هـ/١٩٦٩م، وكان في مجلسه في ذلك اليوم الأستاذان الكريمان سعد بن عبدالرحمن البواردي، وعبدالرحمن بن عبدالعزيز المانع.

وبعد عودتي من البعثة إلى بريطانيا، والانتقال من مكة المكرَّمة إلى الرياض، صرتُ أزوره بين حينٍ وآخَر، وكنتُ غالبًا أجد عنده الدكتور عبدالعزيز المانع، والدكتور عبدالله العثيمين، ومعالي الدكتور أحمد الضبيب، والدكتور عايض الردادي، وغيرهم من أحبابه ومُريديه، ولم أكن أُكثِرُ من التردُّد على مجلسه لأنه- رحمه الله -كان يُحرجني بكثرة الاستفسار عن نشاطي العلمي وأنا قليل البضاعة في هذا الشأن، فأتباطأ في الزيارة دفعًا للإحراج

الشديد، على الرغم من رغبتي الصادقة في حضور مجلسه والاستفادة من عِلْمِه الـجَمّ.

عُرِفْتُم مِن أشدِّ المدافعين عن اللغة العربية في عصر العولمة، كيف ترى مستقبلها، ولاسيَّما في ظلِّ وسائل التواصُل الاجتماعي والثورة التقنية الحديثة؟

لستُ –مع الأسف– مِن أشدِّ المدافعين عن اللغة العربية، ولكنِّي واحدٌ من محبِّي هذه اللغة، الحريصين على نَشْرها وتحبيبها إلى أهلها، وإلى غير أهلها أيضًا.

ولستُ من المتشائمين حول مستقبلها في ظلِّ وسائل التواصُل الاجتماعي والثورة التقنية الحديثة، بل إنني أرى أنَّ وسائل التواصُل الاجتماعي صارت تخدمها، ولاسيَّما في الفترة الأخيرة.صحيحٌ أنَّ اللغة المستخدَمة في هذه الوسائل ليست –في غالبها– اللغة الفصيحة، لكنَّها أفضل على أيِّ حال مِن استخدام لغةٍ أجنبية. وقد شاع منذ فترةٍ مضت ما يُعرَف بلغة"العربيزي"، وهي لغةٌ هجين من العربية والإنجليزية، وأرقام تُستَخدَم بدلاً من بعض الحروف، لكنَّها الآن- في نظري -في تراجُع.

والإقبال على تعلُّم اللغة العربية الآن كبيرٌ جدًّا في البلدان الإسلامية وفي غير الإسلامية، وكلٌّ له أسبابه ودوافعه.الزهد في اللغة العربية –مع الأسف الشديد– هو لدى بعض أبنائها، وبخاصَّةٍ في منطقة الخليج وفي بعض أقطار المغرب العربي، لكنَّ المأمول أنْ يُحِبَّها هؤلاء أيضًا متى ما أصبحت لغةً للعلم الحديث، بحيث يجد فيها كلُّ باحثٍ ما يجده في اللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية مثلاً.

هل نجحتْ مَجامع اللغة العربية في مهمَّاتها المرجوَّة منها، ولاسيَّما في عملية تعريب المصطَلَحات؟

مَجامع اللغة العربية لها جهود مشكورة في أمور كثيرة، ولكنَّها تشتكي من عوائق متعدِّدة، مِن أهمِّها التمويل المالي، فهي لا تستطيع نَشْر ما تقوم به على الوجه الذي ترضى عنه، فهي تعرِّبُ المصطَلَحات ولكنَّها لا تستطيع نَشْر ما تعرِّبه على نطاق واسع قبل أن ينتشر المصطَلَح الأجنبي، كما أنها لهذا السبب أيضًا لا تنسِّق فيما بينها وبين المَجامع الأخرى التنسيقَ الذي تأمُله، ولهذا ترى مصطَلَحاتٍ مختلفةً تصدُر عن هذه المَجامع وعن مراكز التعريب المنتشرة في مشرق الوطن العربي ومغربه وكأنه لا رابطة تجمعها، مع أنَّ هناك ما يُعرَف باتِّحاد المَجامع العربية، ولكنَّ المسألة ينطبق عليها معنى المَثَل القائل: (العين بصيرة واليد قصيرة).

ظهر أخيرًا ما يُسمَّى بالقصيدة النثرية، ما وجهة نظركم في هذا النوع الأدبي؟ وهل ترون أنه يؤثِّر في جمال الشعر العربي ويقلِّل من قيمته الفنية بعد أن كان ديوان العرب؟

اسمح لي أن أقول: إنَّ بداياتها في الأدب العربي ليست (أخيرًا) كما ذكرتَ في سؤالك، فكلمة (أخيرًا) تُوحي بقُرْب النشأة، بينما تاريخ ظهور هذا المصطَلَح في الأدب العربي يعود- فيما أعلم -إلى عام١٩٦٠ م عندما نَشَرَ علي أحمد سعيد (أدونيس) مقالتَهُ ذات العنوان "قصيدة النثر"، وذلك في العدد ١٤ من مجلة "شعر"، ثم بعد ذلك ببضعة أشهر نَشَرَ أُنْسِي الحاج "ديوانه النثري" الأوَّل "لن" الذي اشتمل على ٢٦ قصيدة نَثْر، وقد قدَّم لها أُنْسِي الحاج بمقدِّمة طويلة تحدَّث فيها عن مفهوم قصيدة النثر. وكلٌّ مِن أدونيس وأُنْسِي الحاج

اعتمد في تعريفه لـ(قصيدة النثر) ومقوِّماتها على كتاب سوزان برنار "قصيدة النثر من بودلير إلى أيَّامنا" الذي صدر بالفرنسية في عام١٩٥٩م. ثم شُغِلَ الأدباء والنقَّاد طويلاً بالحديث عن "قصيدة النثر"، واحتدم النقاش بينهم على صفحات مجلة "شعر" و"الآداب" و"الأديب" وغيرها، وهم ما بين مؤيِّد لها ومُعارِض.

أمَّا عن المصطَلَح ومشروعيته؛ فإنَّ المعروف في التُّراث العربي أنَّ الإنشاء الأدبي إمَّا أن يكون شعرًا، وذلك وفقًا للتعريف المعتَمَد للشعر عند مشاهير النقَّاد، وإمَّا أن يكون نثرًا.والنثر إمَّا أن يكون خطابةً، أو نثرًا تأليفيًّا، أو نثرًا فنيًّا. ولكن يُوجَد في التُّراث العربي شيءٌ اسمه (القول الشعري)، وقد عرَّفه بعضُ النقَّاد بأنه كلام فنِّي مشتمِل على المحاكاة والتصوير ولكنَّه غير موزون، فلو وُزِن هذا القول الشعري لأصبح شعرًا .كما أنَّ عددًا من النقَّاد لا يعدُّون كلَّ كلام موزون مقفًّى شعرًا، بل يعدُّون بعضَهُ نَظْمًا، ولا يُعَدُّ شعرًا إلاَّ إذا كان كلامًا بليغًا مبنيًّا على الاستعارة والأوصاف، جاريًا على أساليب العرب المخصوصة به.

كما وُجِدَ في التُّراث العربي شيءٌ اسمه (الـهُزْرُوف) أوضَحَهُ عُروة بن الزُّبَيْر بعد أن عَرَضَ عليه ابنُه شيئًا من تأليفه ظنَّهُ شعرًا، فلمَّا انتهى الابن من الإنشاد قال له أبوه عُروة: "يا بُنَيَّ إنه كان في الجاهليَّة شيءٌ اسمه الـهُزْرُوف بَيْن الشعر والكلام، هو شعرك هذا".

والسؤال هو: هل يرضى كُتَّاب قصيدة النثر وأنصارُهم بأنْ يُسمَّى نتاجُ شعرائهم قولاً شعريًّا "إذا توافرت فيه بالطبع شروط القول الشعري" أو أنْ يُسمَّى هُزْرُوفًا؟ لا أظنُّ أنه يضيرهم شيئًا لو قَبِلُوا ذلك.

وأنا لا أرى حرجًا مِن تَرْك الناس يجرِّبون في مسائل الإبداع كما يشاؤون، والبقاء في الأخير للأصلح، فإنْ رَفَضَت الذائقة العربية هذا النوع من التأليف فسيموت، وإنْ قَبِلَتْهُ فسيبقى.

كيف تنظرون إلى واقع اللغة العربية في التعليم في المملكة، وما مقتَرَحاتكم لتطوير هذا الواقع؟

واقع اللغة العربية في التعليم في بلادنا غير جيِّد، وهذا ليس سِرًّا بل هو معروفٌ للجميع، وأسباب ذلك مختلفة، منها ما يتعلَّق بالمعلِّم، وبطريقة التعليم، وكيفية تقديم المعلومة إلى الطالب، ومنها ما يتعلَّق بالكتاب الذي يُدرَس، ومنها ما يتعلَّق بالطالب نفسه ومدى استعداده لتعلُّم اللغة العربية.

وقد عُقِدَ العديد من المؤتمرات والندوات لتشخيص هذه المشكلة والبحث عن علاجٍ لها، ولا أظنُّ العلاج إلاَّ قد اكتُشف في هذه المؤتمرات والندوات، ولكن بقي التنفيذ. والتنفيذ يحتاج إلى إرادة قويَّة تتبنَّى تنفيذ التوصيات السليمة، وهذا –قطعًا– ليس بالأمر السهل، ولكنَّه سيتحقَّق في المستقبل بعون الله ثم بعزائم الرجال الغَيُورين على لغة كتابهم المقدَّس ووطنهم وتراثهم الحضاري.

تولَّيْتُم العديد من المناصب الإدارية في جامعة الملك سعود وغيرها، فأيُّها كان الأقرب إلى نفسك؟

نعم تولَّيْتُ بعض المناصب الإدارية في جامعة الملك سعود، وهي: رئاسة قسم اللغة العربية وآدابها بكلِّية الآداب، ووكالة كلِّية الدراسات العُليا، وعمادة الدراسات العُليا، وعمادة كلِّية الآداب. وقَبْل ذلك عملتُ نائبًا لرئيس مركز اللغة العربية لغير الناطقين بها بجامعة الملك عبدالعزيز (شطر مكة

المكرَّمة)، وذلك قَبْل أن تنشأ جامعة أم القرى. وقد عملتُ أيضًا رئيسًا لمجلس أمناء مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية في دورته الأولى.وقد بذلتُ جهدي المتواضع في خدمة هذه المواقع كلِّها، وأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ.

أمَّا أيّ هذه المواقع أقرب إلى نفسي فهو –قطعًا– قاعة التدريس في الجامعة.

سعادتكم من المؤسِّسين لمركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، هل تتكرَّمون بتقديم نبذة مُوجَزة عن هذا المركز ونشأته؟ وهل ترون أنه يقوم بالدَّوْر المناط به بالشكل الأمثل؟

عندما صَدَرَت الموافقة السامية على إنشاء مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، وصَدَرَ تنظيم المركز مِن قِبَل مجلس الوزراء الموقَّر، شرَّفني معالي وزير التعليم العالي الأسبق الدكتور خالد بن محمَّد العنقري بالعمل على تأسيس هذا المركز. وقد كانت أُوْلى الخطوات التي يجب القيام بها هي تشكيل مجلس أمناء المركز؛ لأنَّ هذا المجلس حسب تنظيم المركز هو "السُّلطة العُليا المهيمِنة على شؤون المركز، وإدارته، وتصريف أموره، ووَضْع السياسة العامة التي يسير عليها"، ومِن أجل تحقيق ذلك بادَرَ معالي وزير التعليم العالي آنذاك بإصدار قرار بتشكيل المجلس من الأساتذة الآتية أسماؤهم، وذلك لمدَّة ثلاث سنوات:

- الدكتور محمَّد بن عبدالرحمن الهدلق رئيسًا.
- الدكتور إبراهيم بن مراد بن عمَّار نائبًا للرئيس.
- الدكتور صالح بن سعيد الزهراني عضوًا.

- الدكتور عبدالعزيز بن ناصر المانع عضوًا.
- الدكتور عبدالقادر الفاسي الفهري عضوًا.
- الدكتور مازن بن عبدالقادر المبارك عضوًا.
- الدكتور محمَّد بن عبدالرحمن الرُّبيِّع عضوًا.
- الدكتور محمود أحمد نحلة عضوًا.
- الدكتور نهاد ياسين الموسى عضوًا.

وقد رَشَّح مجلس الأمناء الدكتور عبدالله بن صالح الوشمي أمينًا عامًّا للمركز، ثم أصدر معالي وزير التعليم العالي آنذاك قرارًا بذلك.كما شكَّل مجلس الأمناء لجنة استشارية من سبعة من الأساتذة المتميِّزين تساعد الأمين العام في مهمَّاته.

وقد بدأ المركز أعمالَهُ بداية قوية، وذلك بفضلٍ من الله أولاً ثم بالدعم المتميِّز الذي حظيَ به من معالي المشرف العام على المركز آنذاك الدكتور خالد بن محمَّد العنقري، ثم بفضل الجهود المشكورة التي بذلها أعضاء مجلس الأمناء الأجلاَّء، والأمين العام، وأعضاء اللجنة الاستشارية. فقد أُقيم العديد من الندوات واللقاءات، وقُدِّمَ كثيرٌ من المشروعات التي تخدم اللغة العربية، وتفصيل ذلك يطول.

والأهداف التي يسعى المركز إلى القيام بها، وفقًا لِمَا نَصَّ عليه تنظيمُه، هي:

- المحافظة على سلامة اللغة العربية.
- إيجاد البيئة الملائمة لترسيخ اللغة العربية وتطويرها ونَشْرها.
- الإسهام في دعم اللغة العربية وتعلُّمها.
- العناية بتحقيق ونَشْر الدراسات والأبحاث والـمَراجع اللغوية.

- وَضْع المصطَلَحات العلمية، واللغوية، والأدبية، والعمل على توحيدها ونَشْرها.
- تكريم العلماء والباحثين والمختصِّين في اللغة العربية.
- تقديم الخدمات ذات العلاقة باللغة العربية للأفراد، والمؤسَّسات، والهيئات الحكومية.

وقد قام المركز بعدد كبير من الأنشطة، من بينها: عَقْد لقاء تشاوُري عن وَضْع اللغة العربية في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ولقاءات بين عُمَداء كلِّيات اللغة العربية وأقسامها في المملكة، ولقاءات للمهتمِّين باللغة العربية عبر الإنترنت، ورَصْد للمؤسَّسات والأقسام التي تُعنى باللغة العربية في العالم، وتنفيذ نشاط أَطْلقَ عليه المركز عنوان "شَهْر اللغة العربية في دولة..."، وقد أُقيم في دولتَي الصين وإندنوسيا في عامَيْن سابقَيْن، وأثبت نجاحًا مميَّزًا، وسيُقام قريبًا –بإذن الله– في دولة الهند. وقد أقام المركز مسابقات في الخطابة باللغة العربية وفي الخط العربي في بعض الدول ولاقت قبولاً مُبهِجًا.

وبعد أن انتهت الدورة الأولى لمجلس الأمناء المحدَّدة بثلاث سنوات أعاد معالي وزير التعليم العالي الأسبق تشكيل المجلس للدورة الثانية من الأساتذة الآتية أسماؤهم:

- الدكتور عبدالله بن عبدالرحيم عسيلان رئيسًا.
- الدكتور عبدالقادر الطاهر المهيري (تُوَفِّي رحمه الله) نائبًا للرئيس.
- الدكتور أحمد بن عبدالله السالم عضوًا.
- الدكتور محمَّد بن عبدالرحمن الهدلق عضوًا.
- الأستاذ حجاب بن يحيى الحازمي عضوًا.

- الدكتور عبدالله بن حمد محارب عضوًا.
- الدكتورة بربارا ميخليك عضوًا.
- الدكتور أحمد فؤاد أفندي عضوًا.
- الدكتور حسن محمود الشافعي عضوًا.

وقد أوصى هذا المجلس بإعادة ترشيح الدكتور عبدالله بن صالح الوشمي أمينًا عامًّا للمركز لفترة ثانية، وصَدَرَ قرار معالي وزير التعليم، المشرف العام على المركز، بتجديد تعيينه في هذا المنصب.

أمَّا فيما يخصُّ الفقرة من السؤال التي تقول:"هل ترون أنه يقوم بالدَّوْر المناط به بالشكل الأمثل؟"، فالجواب أنَّ الطُّموح أكبر من المتحقِّق، فهناك عقباتٌ تعترض تنفيذ ما يُخطَّط له، والعائق الأكبر هو الجانب المالي، فليس للمركز ميزانية مستقلَّة كافية لتغطية أنشطته ومشروعاته، وإنما له ميزانية تشغيلية محدودة تزوِّده بها وزارة التعليم سنويًّا، كما أنه ليس له مقر دائم، فمقرُّه الدائم لايزال قيد الإنشاء، ويعاني المركز مِن نَقْص كبير في عدد المستشارين الأكاديميين فيه، وفي عدد الموظَّفين الإداريين، ولكنَّ المأمول أن يتغلَّب على هذه العوائق في قابل الأيام.

ماذا عن برنامج الملك عبدالله للابتعاث؟ هل خدم اللغة العربية؟

برنامج الملك عبدالله للابتعاث الخارجي لم ينشأ –حسب فهمي– لخدمة اللغة العربية، وإنما استُحدث لتأهيل العديد من الطلاب في التخصُّصات العلمية التي تحتاج إليها المملكة، إضافةً إلى إسهامه في حلِّ مشكلة قبول الطلاب في الجامعات يوم أنْ كان عدد الجامعات محدودًا وكان عدد الطلاب يفُوْق طاقة الجامعات الموجودة.

سعادتكم مِن أبرز روَّاد مركز حمد الجاسر الثقافي، وعضو مجلس الأمناء في مؤسَّسة حمد الجاسر الخيرية التي انبثق منها المركز. ما تقويمكم لعمل المركز؟

مركز حمد الجاسر الثقافي واجهة مشرقة للحياة الثقافية في مدينة الرياض، فهو يقدِّم كلَّ أسبوع إمَّا ندوة، وإمَّا محاضرة، وإمَّا لقاء، وذلك على مدار العام باستثناء الإجازة الصيفية، وتمثِّل هذه المحاضرات والندوات واللقاءات مُتَنَفَّسًا فكريًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا لسكان مدينة الرياض وما حولها على اختلاف أعمارهم وجنسيَّاتهم ومَشَاربهم.

كما أنَّ المركز يقوم بنَشْر المؤلَّفات العلمية والثقافية بعد أن تُقِرَّها اللجنة العلمية فيه، وهذا جهد عظيم يُسَجَّل للمركز والقائمين عليه. فللأستاذ النبيل البارّ معن بن حمد الجاسر، ولرئيس مجلس أمناء مؤسَّسة حمد الجاسر الثقافية، وأعضاء المجلس، وجميع العاملين في المركز ولجانه، خالصُ الشكر والتقدير على جهودهم الخيِّرة.

عضويَّتُكم في هيئة تحرير مجلَّة "العرب" مَنَحَها رافدًا وإضافة نوعية، ما تقويمكم لأداء المجلَّة، وهل لديكم خطَّة لتطويرها؟

عضويَّتي في هيئة تحرير مجلَّة "العرب" حديثة جدًّا، فأنا لم أحضر سوى اجتماع واحد من اجتماعات هيئة التحرير، وقد سُرِرْتُ لانتسابي إلى هيئة التحرير وذلك لأتعلَّم من معالي رئيس التحرير الأستاذ الدكتور أحمد بن محمَّد الضبيب، ومن إخواني أعضاء هيئة التحرير، أسرارَ المهنة، وإني لأرجو أن أكون قادرًا في قادم الأيام على أن أساعد في تطوير العمل في هذه المجلَّة العريقة.

الفصل الأول: أبحاث مهداة

الهدلق (أحاديثَ تبقى، والفتى غيرُ خالدِ)

❖ أ. د. عبدالله الجربوع

أتوقع أنه لم يخطر على مخيلة أبي خالد (محمد بن عبدالرحمن بن محمد الهدلق) الذي قضى شطرًا من صباه في مزرعة أبيه وعمه يسقي ويقطف ما تيسر له من ثمار المزرعة، يجمعها ثم يأخذها ليبيعها في أسواق بلدته شقراء.

أظنه لم يتوقع أن هذه البداية البسيطة في حياته ستأخذه إلى فضاء أرحب وأوسع وستجعل منه تلك البداية، رجلًا عصاميًا، رأى عن اقتناع وبعد نظر أن طموحه يتوقف على جِدِّه واجتهاده ومثابرته في طلب العلم والدراسة والتحصيل، وعندما حصل على الشهادة الجامعية من كلية اللغة العربية في الرياض عام ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م لم يتجه شأن كثيرين من أمثاله لطلب الوظيفة التي كانت متاحة للجميع، وتعطي مردودًا ماليًا مرموقًا لمن يتهيبون صعود الجبال، وفي ظل تلك الظروف المغرية لعديد من أمثاله من الشباب لم تغره المادة بكل بريقها آنذاك، بل صمم واختار أن يواصل دراسته العليا في مصر، وحصل على الماجستير من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ولأن طموحه لا حدود له أُعلن عن وظائف للمعيدين في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة؛ فسارع مع صديق طفولته ورفيق دراسته عبدالعزيز المانع، تقدم الاثنان للمقابلة وقُبلا، وبعد عام ابتُعثا للدراسة العليا في بريطانيا، كانت اللغة الإنجليزية هي العائق في البداية غير أنه تجاوز ذلك بعد أقل من عامين قضاهما في معهد متخصص لتعليم اللغة الإنجليزية.

حينها تقدم للقبول بجامعة إدنبرا فكان قبوله، وكان قدره أن يسند إشرافه إلى أستاذ لا ينحدر أصله من جذور وأصول إنجليزية، عالم ومتمكن من اللغتين

العربية والإنجليزية، قاسٍ في تعامله مع الآخرين، لا تعرف الابتسامة طريقًا إلى محياه، وبسبب تلك القسوة التي عرف بها، أغلب الطلاب الذين بدؤوا الإشراف معه تركوه إلى غيره، أو بسبب تعامله انتقلوا إلى جامعة أخرى، وكان أبو خالد –رحمه الله– الفارس الوحيد الذي صبر عليه وتحمله، بعزيمة لا تلين ولا تضعف، وقد أنهى معه وتحت إشرافه درجة الماجستير عام ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ثم واصل معه مسيرته في الدكتوراه حتى نالها عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

كانت السنوات التي قضاها في جامعة إدنبرا حافلة بالعطاء والتميز؛ فقد وجد ضالته في مكتبة الجامعة التي كانت تحتوي على كثير من أمّات كتب التراث العربي والإسلامي، وتضم كثيرًا من دواوين الشعر العربي التي نُشرت وطُبعت في أوروبا قبل نشرها في العالم العربي، وكان رحمه الله يقضي ساعات النهار الطويلة وأجزاء من ساعات المساء في مكتبة الجامعة، يبحث ويقرأ ويجمع المعلومات الي كانت لها صلة مباشرة ببحثه، ومن شدة تعلقه بالمكتبة كان يذهب إليها صباح كل سبت وهو يوم إجازة، ولم يقتصر اهتمامه في القراءة على كتب الأدب ودواوين الشعر العربي، بل كان يتابع ويقرأ ما ينشره كبار المستشرقين في موضوعات مختلفة تنشر في مجلات متخصصة تصدرها مختلف الجامعات في أوروبا وأمريكا.

علاقة الصدفة في بلاد الغربة:

علاقتي بأبي خالد بدأت منذ خمسة عقود، جمعتني به الصدفة من غير سابق معرفة في السبعينيات الميلادية من القرن الماضي، حينما قُبِل للدراسات العليا في جامعة إدنبرا في بريطانيا وهي ذات الجامعة التي كنت أحضّر فيها رسالتي للدكتوراه، وفي يوم وصوله إلى مدينة إدنبرا علم أني أرقد في مستشفى الجامعة

إثر عملية جراحية أُجريت لي، وفي أمسية لا أنساها بل إني أعدها من أجمل أيام حياتي فاجأني أخي الغالي المرحوم بإذن الله عبدالله العثيمين بزيارته المعتادة لي كلَّ مساء وبصحبته اثنان لم أعرفهما ولم أرهما من قبل أبو خالد وصديقه الوفي ورفيق دربه عبدالعزيز المانع، وكانت لحظة لا تنسى وستظل ذكراها عالقة في نفسي ما دام في الروح نفَس، وكان هذا أول لقاء جمعني بهما، ومنذ ذلك التاريخ توطدت العلاقة، ولم تزدها الأيام والسنون إلا رسوخًا ومودة ومحبة، هذه العلاقة التي ربطتني بأبي خالد لسنين طويلة أثناء سنوات الدراسة أو أثناء سنوات العمل في الجامعة جعلتني أعرف كثيرًا من صفاته وعن شخصيته، عرفت عنه ومنه الوفاء بكل أشكاله ومعانيه، ولمست فيه حبه للآخرين مهما اختلف مع توجهاتهم ومشاربهم، وعرفت فيه احترامه الشديد لعنصر الوقت، والدقة في إنجاز العمل الذي يوكل إليه وتنفيذه وإنجازه في وقته، كما عرفت فيه الجد والمثابرة في كل أمر من أمور حياته، لا يلين ولا يضعف مهما تعاظمت الأمور وتنوعت المتاعب والمصاعب، وأشياء كثيرة تتعلق بإنسانيته وشخصيته وجديته، وحديثي عنه لا يصدر عن هوى محب له، بل إني أوثق وأحكي مسيرة خمسة عقود لازمته فيها، وكنت قريبًا منه؛ مما يبعد مظنة المجاملة التي تقال وتحكى في مثل هذه المواقف.

في البداية لازمته خمس سنين في جامعة إدنبرا نقضي معًا جل أوقات الصباح والمساء في مكتبة الجامعة، ونسكن متجاورين في شارع واحد، عرّب اسمه وسماه شارع الخير، وكان بجوار الشارع حديقة كبيرة، كنا نمارس فيها أثناء إجازة الأسبوع رياضة المشي والجري، وكنت لا أستطيع مجاراته في ذلك، وبعد أن عاد مظفرًا إلى الوطن عُيّن أستاذًا مساعدًا بكلية اللغة العربية في جامعة أم القرى، أمضى فيها قرابة العامين، ثم انتقل للعمل بجامعة الملك سعود، وبعد

سنوات شدتني الصحبة والرفقة للّحاق به وبصديقه الوفي عبدالعزيز المانع للعمل جميعًا في جامعة الملك سعود، وكان أبو خالد شديد الحرص على طلابه وعلى الالتزام بساعات الدوام، وعمله أستاذًا لمادة النقد والبلاغة في جامعة الملك سعود، ومع ذلك لم تشغله ساعات الدرس وأمور الحياة الأخرى عن هوايته المفضلة وهي البحث والدرس والتحصيل؛ فبدأ منذ وقت مبكر بإعداد البحوث ونشرها، ولتحقيق هذه الغاية، اهتم –رحمه الله– بالرحلات العلمية في أثناء الإجازة الصيفية؛ كما زار أثناء سنوات التفرغ العلمي التي منحته الجامعة عديدًا من مكتبات الجامعات الأمريكية والأوروبية.

وفي صيف عام ١٤٠٦هـ عرض عليّ القيام برحلة علمية، تمتد لشهر نزور فيها المكتبات المشهورة في بعض المدن الأوروبية التي تحتوي على نفائس المخطوطات العربية والإسلامية، كما نزور معالم تلك المدن ونتعرف عليها، التقينا في أسبانيا، بدأنا الرحلة من مدريد حيث أمضينا أيامًا في مكتبتها الوطنية، ثم تحولنا منها إلى مكتبة الأوسكريال التي تبعد عن مدريد قرابة ساعة بالقطار، وهي تعد من أشهر المكتبات في أوروبا التي تحتفظ بكم هائل من المخطوطات العربية في مختلف العلوم.

وقد فهرس محتوياتها المستشرق الفرنسي (بروفنسال) وصدر في ثلاثة مجلدات ضخمة، وما أن انتهت زيارة المكتبات حتى بدأت زيارة معالم المدن العربية في الأندلس، وكانت البداية من طليطلة القريبة من مدريد، وفي صبيحة يو الأحد خرجنا مبكرين لزيارة المدينة، وحينما عبرنا مشيًا في الطريق الرئيس متجهين إلى محطة القطار صادفنا ثلاثة أشخاص جالسين على كرسي في قارعة الطريق، وبعد أن تجاوزناهم بأمتار حدثت المفاجأة؛ فهؤلاء الثلاثة لم يكونوا عابري الطريق، بل كانوا لصوصًا محترفين يقتنصون فرصة غفلة من سياح

المدينة، وهنا حدثت المفاجأة التي يعبر عنها بكل جلاء المثل العربي المشهور "من مَأْمَنِه يُؤتى الحَذِر".

كان أبو خالد يرتدي فوق قميصه معطفًا خفيفًا، كان هدفه من وراء ارتدائه هو أن يصنع محفظة صغيرة معه بداخلها رخصة القيادة وبطاقة الجامعة وعناوين تهمه في الجيب الداخلي من المعطف منظر المعطف، أغرى اللصوص الثلاثة؛ فقرروا أن يكون أول ضحايا هذا الصباح، وكان معهم مادة سائلة كريهة الرائحة معبأة في خزان مسدس ألعاب، وبعد أن تجاوزناهم عمد أحدهم إلى رش المعطف من الخلف بتلك المادة السائلة التي انتشرت على شكل بقع خلف المعطف، ثم لحق بنا ليبخبرنا ماذا يوجد خلف المعطف، وحينما عاينت البقع المنتشرة خلف المعطف وشكلها ورائحتها الكريهة احترت ماذا أفعل؟ وفجأة حضر الاثنان من أفراد العصابة، وعرضا المساعدة بتنظيف المعطف بمادة كانت معهم أزالت كل ما علق بالمعطف من آثار، وحينما بدأ الاثنان بالتنظيف شد أبو خالد وأمسك بجيبَي المعطف اليمين واليسار بكلتا يديه؛ مما سهل على اللص الثالث بعد أن انكشف له الجيب الداخلي أن ينتشل المحفظة التي كانت بداخله، ثم يهرب بعيدًا عنا، بينما زميلاه مشغولان بتنظيف المعطف من الخلف، انتهت المهمة بعد أن تأكدنا من نظافة المعطف، ومضينا في طريقنا إلى محطة القطار وبعد أن ابتعدنا قليلاً عن المكان لاحظ أبو خالد أن اللص الثالث تمكن من نشل المحفظة التي كانت بداخل جيب المعطف، اهتم أبو خالد وحزن لفقد محتويات المحفظة: العناوين، ورخصة القيادة، وبطاقة الجامعة. أما النقود فلم يكن بداخلها إلا ثلاثون ريالًا فقط.

ألقت حادثة المحفظة بظلالها لأيام على أبي خالد إلا أن جمال معالم طليطلة وجمال طبيعتها كانت كفيلة بنسيان الحادثة وذيولها، كانت الخطة تقضي

بزيارة جميع المدن العربية في الجنوب الإسباني، ولم يقتصر الأمر على زيارة مسجد قرطبة وقصور الحمراء، بل كان –رحمه الله– مصرًا على أن نستمر راجلين في أزقة وممرات تلك المدن العربية التي تغنى وأسهب في وصفها شعراء الأندلس، وكان –رحمه الله– يحفظ كثيرًا من تلك القصائد التي نظمها الشعراء في وصف طبيعة تلك المدن أو في رثائها حينما بدأت تتساقط الواحدة بعد الأخرى في يد الإسبان المسيحيين، وحينما كنا نتجول في أزقة تلك المدن لاحظنا أن كبار السن من الجنسين كانوا يجلسون على شرفات منازلهم، ويتحدثون مع بعضهم على الطرف المقابل لتلك الأزقة الضيقة، وكان يرى أن تلك العادة مكتسبة ورثوها من عادات أسلافهم العرب، جمال معالم تلك المدن العربية في الجنوب الإسباني أنست أبا خالد حادثة المحفظة، خصوصًا تلك المشاهد التي رأيناها واستمتعنا بها في قصر الحمراء؛ مما جعل أبا خالد يردد قصيدة نزار قباني:

في مدخل الحمراء كان لقاؤنا ما أجمل اللقيا بلا ميعاد!

ولأن الأندلس كل ما فيها جميل يدعو للبهجة والفرح؛ فبعد أقل من شهرين من حادثة خطف المحفظة فجئ أبو خالد بطرد بريدي وصل إلى عنوانه في الرياض وبداخله المحفظة ومحتوياتها وبداخلها خطاب اعتذار من اللصوص الثلاثة يعتذرون فيه عن الإزعاج الذي سببوه لنا في مدريد، وقد احتفظ –رحمه الله– بتلك المحفظة وأصبحت أثيرة عنده لا تفارقه في كل سفرة له خارج المملكة، ومن إسبانيا انطلقنا إلى إيطاليا، وكانت وسيلة النقل دائمًا هي القطار أو الحافلات، وكانت الفلسفة من وراء اختيار القطار وسيلة للنقل أن هذه هي الطريقة المثلى للتعرف على طبيعة تلك البلدان.

وفي روما قضينا عدة أيام بضيافة ابن عم أبي خالد الذي يعمل موظفًا في السفارة السعودية، وقد أتاح لنا التعرف على معالم تلك المدينة، وكان أبو خالد

–رحمه الله– شغوفًا وحريصًا على زيارة المتاحف والتعرف على محتوياتها، وكنت لا أشاركه في هذه الرغبة في بعض الأحيان، وفي روما حددنا موعدًا لزيارة مكتبة الفاتيكان وكانت المفاجأة غير السارة التي صادفتنا في تلك الزيارة في المكتبة تكاد تكون معظم محتوياتها مراجع ومؤلفات لكتب ليست من اهتماماتنا.

وكانت المحطة الثالثة في الرحلة هي برلين، وفي مكتبتها التي تحتوي على عديد من أمّات كتب التراث العربي والإسلامي، وقد وجدنا فيها عوضًا عن خيبة الأمل التي صادفتنا في مكتبة الفاتيكان.

وكانت المحطة الأخيرة في تلك الرحلة هي زيارة النمسا، وفيها التقينا زميلَ أبي خالد وصديقه الدكتور الشماع الذي يعمل أستاذًا في قسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود، وهو مواطن عراقي مقيم في النمسا، صاحب نكتة، كريم، يتمتع بأخلاق عالية، كثيرًا ما نجدها في من عرفنا من زملائنا وإخواننا العراقيين، زود الدكتور الشماع أبا خالد بخارطة العاصمة النمساوية، وحدد فيها جميع المعالم التي تحتاج إلى زيارة، تَحَفَّزَ أبو خالد وأصرّ على زيارة جميع تلك المعالم مكتبات وقصور ومتاحف، ولم يمر علي في حياتي أن مشيت يومًا ساعات طويلة مثل تلك الرحلة، وكنا لا نلجأ إلى ركوب الحافلات إلا في حالة واحدة حينما يكون الهدف هو التعرف على معالم المدينة، وحينها نُزَوَّد بجهاز يعرّفنا على الأماكن التي نمر بها، ومن حسن الحظ أن الدكتور الشماع عرّفنا على مطعم مشويات رخيصة أسعاره، ويقدم أطباقًا مختلفة من مشويات اللحوم اعتدنا زيارته في أغلب الأيام في وجبة الغداء، حين تكون البطون خاوية من كثرة المشي في النهار، وقد نذهب إليه لتناول وجبة العشاء، ومنه إلى النُّزُل (الفندق) لنومة عميقة حتى تباشير الصباح استعدادًا للركض والجري في اليوم التالي كان –رحمه الله– لا يتعب من المشي، ولا يمل من زيارة المتاحف والتعرف على

صغير وكبير محتوياتها، رحم الله أبا خالد وعفا عنه وجمعنا وإياه في الفرودس الأعلى من الجنة، مضى الشهر سريًعا ولم نشعر به، وعدنا إلى الوطن نحمل أجمل الذكريات وأحلاها عن رحلة أَعُدُّها رحلة العمر التي ما تكررت.

ولعلي في الصفحات الماضية وقفت وحققت ما نصت عليه ورقة دعوة المشاركة، وذلك من خلال عرضي الموجز لمسيرتي مع أبي خالد والإشارة إلى بعض المواقف التي كنت طرفًا فيها أو شاهدًا عليها.

وكنت أود وأطمح بإعداد بحث متخصص يتناسب مع قامته العلمية، ومكانته الرفيعة، وجهوده المميزة التي صورتها بحوثه المنشورة في مجالات النقد والأدب والتحقيق إلا أن ظروفي الصحية حالت بيني وبين تحقيق تلك الرغبة الغالية في نفسي، وعليه فإن مشاركتي في هذه المساحة التي أُعِدُّها في ظل ظروف خاصة، وهي لا تعد مرضية بل هي في حقيقتها جهد مقلٍ تقتصر على عرض موجز لبحثين من بحوثه وردا ضمن كتاب (النقد الأدبي)، وهو أحد الإصدارات الخمسة التي صدرت له ضمن منشورات كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع.

وقد صدر الكتاب عام ١٤٤١هـ/٢٠١٩م، ويتضمن كما جاء في مقدمته ستة أبحاث مقدمة، أولها جاء بحث تحت عنوان: النقد الأدبي في عصر الرسول –صلى الله عليه وسلم– والخلفاء الراشدين، في بداية هذا البحث أكد الهدلق على قضية تكاد تكون محل إجماع بين جميع من عرض لهذا الموضوع من الدارسين العرب، وهي أن النقد في ذلك العصر بدأ بداية بسيطة، تمثلت في الوقوف عند استخدام لفظة في غير ما ينبغي أن تستخدم فيه أو استخدامها في الشعر مع أن غيرها أفضل منها، هذه البدايات البسيطة التي كان عليها النقد في العصر الجاهلي علل لها الباحث بقوله: "لقد بلغ الشعر في الجاهلية منزلة عالية من الرقي لم يصاحبها تطور نقدي يرقى إلى المنزلة التي وصل إليها الشعر لعل

السبب في ذلك يعود إلى أن الشعر ينشأ في الأصل عن موهبة هي في الغالب فطرية، أما النقد فهو يقوم على الكثير من التدبر والتأمل، وإعمال الفكر، وهذا لا يتأتى في الغالب للعقلية الجاهلية التي يعيش معظم أهلها على التنقل والترحال".

وفي بداية عصر الرسول –صلى الله عليه وسلم– والخلفاء الراشدين، قل النشاط الأدبي، وخف صوت الشعر، وأخذ الناس يستمعون إلى القرآن يتدبرون آياته، ووجدوا فيه شيئًا مختلفًا عما كانوا يتناشدونه من أشعار أو كانوا يؤلفونه من كلام نثري في الخطابة والحكم والأمثال فاستسلم عدد كبير منهم إلى ما يدعو إليه، ونفر منه آخرون، ووقفت فئة منهم موقف المبهوت العاجز عن تفسير تفرده؛ فذهب بعضهم إلى وصف الرسول بأنه شاعر، ولقد نفى الله عن الرسول هذه الدعوى في قوله: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ (الحاقة: ٤١)، وقوله ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ (يس: ٦٩)، وحينما اتخذ المشركون من الشعر سلاحًا لمحاربة الدعوة والنيل من أعراض المسلمين دعا الرسول –صلى الله عليه وسلم– حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة للرد على شعراء المشركين دفاعًا عن أعراض المسلمين. وكان الرسول –صلى الله عليه وسلم– يشجع شعراء الدعوة ويدعوهم إلى نظم الشعر، ويدعو لهم في بعض الأحيان، كما كان عليه الصلاة والسلام يهذب من ألفاظهم ومعانيهم.

وحينما أشار الباحث إلى النقد في عصر الرسول –صلى الله عليه وسلم– قال: "إذا ذهبنا نبحث عن الملحوظات النقدية التي صدرت عن الرسول –صلى الله عليه وسلم– في الحكم على الشعر، فإننا لا نظفر بالكثير ومن بين هذه الأمثلة التي استشهد بها رواية النفر الذين وفدوا على الرسول من اليمن وقالوا: (أحيانا بيتان من شعر امرئ القيس) فقال النبي –صلى الله عليه

وسلم–: (امرؤ القيس مذكور في الدنيا منسي في الآخرة، بيده لواء الشعر إلى النار) وقد أورد ابن قتيبة هذا الحديث في ترجمته لامرئ القيس في كتاب الشعر والشعراء وقد ذكر الشيخ أحمد محمد شاكر محقق الكتاب في تعليقه عن هذا القول بأنه ضعيف النسبة إلى الرسول، ونقل عن ياقوت الحموي أن هذا القول مشهور عند الإخباريين والأدباء، ولكنه غير معروف عند المحدثين، وهم الحجة فيما ينسب إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم– من الأخبار وقد عقب الباحث على ما سبق ذكره بقوله: "إذا افترضنا صحة هذا الحديث فإنه، على الرغم من تحقيره لامرئ القيس في الآخرة، يدل على تقدم امرئ القيس في ميدان الشعر؛ لأنه هو الذي يحمل لواء الشعراء إلى النار، واللواء في الغالب لا يحمله إلا شخص متميز".

أما الرواية الثانية التي عرضها في بحثه عن الخلفاء الراشدين فهي تنسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد كان عمر شاعرًا وله ديوان شعر مطبوع، وهو من أشهر الخلفاء الذين صدرت عنهم ملحوظات نقدية، وبعض هذه الملحوظات النقدية يبدو منها أن قائلها غير عالم بالشعر، أو أنها متضاربة، ولكن عند التدقيق فيها يتبين أنها ليست كذلك.

ومن هذه الملحوظات رأي عمر في هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر، ومثل هذا ما فعله عمر عند هجاء النجاشي الحارثي لبني العجلان فاستعدوا عليه عمر.

عقب الهدلق على هذه المحلوظات بقوله: "من البدهيّ القول إن عمر بن الخطاب ما كان يجهل ما اشتمل عليه قول الحطيئة وقول النجاشي الحارثي من هجاء لكن بصفته أميرًا للمؤمين يسعى إلى إصلاح ذات البين بين المسلمين ويعمل على وأد الفتنة في مهدها؛ ولكن إذا أصر أحد الخصمين على الفصل في القضية فإن عمر رضي الله عنه لا يحكم بنفسه وإنما يكل الحكم في ذلك على من مهنته

الشعر ومن يعرف من أبعاده وخفاياه أكثر من غيره ومن هنا وجدناه يسأل حسانًا والحطيئة رأيهما في ذلك الشعر".

ولعلي أضيف على ما ذكره الهدلق –رحمه الله– سببًا آخر وهو أن عمر وإن كان لا يقل عن حسان والحطيئة في معرفة خفايا الشعر وأبعاده إلا أنه أراد من وراء سؤاله لحسان والحطيئة أن يقيم الحجة على الحطيئة والنجاشي ليتخذ العقاب المناسب بحقهما فبعد سماع رأي حسان في هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر أمر بحبسه وقال له: (لأشغلنك يا خبيث عن أعراض المسلمين) وكذلك فعل مع النجاشي الحارثي حينما استمع إلى رأي حسان والحطيئة في هجاء النجاشي لبني العجلان فقد هدده عمر وقال له: (إن عدت قطعت لسانك).

ومعرفة عمر بن الخطاب بالشعر وأبعاده يؤكد رأيه في شعر امرئ القيس حينما قال عنه: (سابق الشعراء، خسف لهم عين الشعر، فافتقر عن معان عور أصح بصرًا)، فهذا الرأي لعمر بن الخطاب للحكم على شعر امرئ القيس يؤكد معرفة عمر للشعر وتذوقه ورأيه هذا ينم حينما صدر عنه عن فهمه وإدراكه لخفايا الشعر وأبعاده فامرؤ القيس في رأيه هو سابق الشعراء ذلل الطريق لمن جاء بعده من الشعراء وبصرهم بمعانيه، وفنن أنواعه وقصيده فاحتذى الشعراء على منواله.

وعن معرفة عمر للشعر الجيد ونفاذ رأيه فيه استشهد الباحث برواية ابن سلام الجمحي التي وردت في طبقات فحول الشعراء (١/٦٣) فقد ذكر ابن سلام أن عمر بن الخطاب قال لابن عباس (أنشدني لأشعر شعرائكم) فقلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال زهير – قلت: وكان كذلك! قال: كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتبع وحشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه) وعقب الباحث على هذه الرواية فيقول: هذه المقولة رغم اختصارها تنم عن معرفة بالنقد فهي تركز على جانبين

مهمين في الشعر وهما جانب الأسلوب الذي يشير إليه تجنب المعاظلة وحشي الكلام، والجانب الآخر هو جانب المعني، المتمثل في الصدق في القول، الذي يشير إليه قول عمر: (لا يُمدح الرجل إلا بما فيه).

وكما فضّل عمر زهيرًا وقدمه على سائر الشعراء، فضل وقدم النابغة الذبياني، وعده أشهر شعراء غطفان فقد سأل عمر وفد غطفان الذي قدم إليه عن قائل عدد من الأبيات فذكر الوفد أنها جميعها تنسب إلى النابغة فقال للوفد: هذا أشعر شعرائكم.

ويرى الباحث أنه لا تعارض إطلاقًا بين حكمي عمر على شعر كل من زهير والنابغة.

ويبدو أن الباحث –رحمه الله– لم يكن راضيًا عمّا عرضه في هذا البحث، أو على الأقل مقتنعًا فيه؛ فقد ختمه بقوله: "هذا البحث المختصر لا يعدو أن يكون إطلالة على مسيرة النقد الأدبي في عصر الرسول –صلى الله عليه وسلم– والخلفاء الراشدين وأرجو أن يكون فيه شيء من الفائدة".

والمبحث الثاني من كتاب (في النقد الأدبي) والذي وقع الاختيار على عرض مضمونه ومحتواه جاء في آخر الكتاب تحت عنوان: (مآخذ ابن معقل الأزدي المهلبي) على شُرَّاح ديوان أبي الطيب المتنبي، وتأويله لبعض الأبيات في ضوء مراد الشاعر واحتمالات النص).

لقد جاء البحث في أربع وستين صفحة، ويبدو لي أن أبا خالد –رحمه الله– فكر بإعداد هذا البحث بعد أن اطلع على الكتاب، حينما كان مخطوطًا لم ينشر بعد، وقد وجد فيه ما شجعه على اختياره موضوعًا لبحثه، لقد صور النسخة المخطوطة على ورق ليسهل عليه قراءتها، ومن خلال تلك القراءة أدرك أهمية الكتاب وقيمته العلمية كيف لا؟ والكتاب يتضمن نقدًا لشروح خمسة من

مشاهير شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، وهم ابن جني، والمعري، والتبريزي، وأبو اليمن الكندي، والواحدي. لقد كان اقتناء الهدلق للنسخة المخطوطة وإدراكه لقيمة محتواها ومضمونها هو الذي دفع وشجع الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المانع على الإقدام على تحقيق هذا الكتاب ونشره. يقول المانع في مقدمة تحقيقه لكتاب المآخذ دار حديث بيني وبين أخي وزميلي الأستاذ الدكتور محمد الهدلق، فسألني عما أنوي بعدما ما فرغت مما كنت مشغولاً بتحقيقه فقلت إني مشغول بالبحث عن عمل له وزنه، وإذا به يشير علي بتحقيق كتاب المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، (بل ذهب جزاه الله خيرًا إلى أبعد من هذا فقدم لي العمل كاملاً مصورًا على ورق في أجزائه الخمسة، مثنيًا على الكتاب ومكانته النقدية في تناول شراح شعر المتنبي، وشهادة مثله وهو الباحث الناقد المتميز على قيمة هذا الكتاب جعلتني لا أتردد في الإقدام على تحقيقه ونشره، رغم ضخامته وما يحتاج إليه من جهد ووقت ورحلات).

المقدمة (ص ٥ – ٦) استهل الباحث نقاشه لموضوع بحثه، بالتعريف بصاحب الكتاب فقال: "أبو العباس بن أحمد بن علي بن معقل الأزدي المهلبي أديب، وناقد، ونحوي، وعروضي، عاش في القرنين السادس والسابع الهجريين فقد ولد بحمص عام ٥٦٧هـ وتوفي بدمشق عام ٦٤٤هـ وأشهر ما عرف من مؤلفاته كتاب (المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي) يتضمن الكتاب كما ذكر من قبل، نقدًا لشروح خمسة من مشاهير شراح ديوان أبي الطيب المتنبي وهم ابن جني، والمعري، والتبريزي، وأبو اليمن الكندي، والواحدي، وقد اختار ابن معقل هذه الشروح الخمسة على الرغم من وجود غيرها لأنها هي الأشهر في عصره، وهي الأكثر تداولًا بين دارسي الأدب، ومع اعتراف ابن معقل

بفضل من قاموا بتلك الشروح فإنه يرى أنهم (قصروا في بعض المعاني، فهدموا بها تلك المباني، وأشكل عليهم بعض الأبيات فخفيت عليهم تلك الآيات).

فكان ذلك حافزًا إلى تأليف الكتاب، (وقد أردت منه أن أنبه على ما أغفلوه، ويهدي إلى ما أضلوه، ويبين ما جهلوه) وقد أشار الباحث إلى أن ابن معقل أبدى احترامًا لأولئك العلماء، وتقديرًا لما قاموا به من جهد. ثم قال من غير أن أكون زاريًا عليهم، أو مهدي اللوم إليهم، كيف وقد سهلت أقدامهم من وعره، وبنيت أفهامهم من سرّه، فأصابوا الجم الغفير وأخطأوا النزر اليسير).

وقد عقب الباحث على ما جاء في هذه المقدمة بقوله: "وسنرى، فيما سيأتي، ما إذا كان ابن معقل التزم بما أعلن عنه في هذه المقدمة من عدم الزراية بأولئك العلماء، وعدم اللوم لهم، أم أنه قد نسي تمامًا ما قاله فيه هذه المقدمة"؟.

ولتبيان حقيقة ما جاء في مقدمة ابن معقل في مآخذه على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، وتقديره لأولئك الشراح، واحترامه لآرائهم وجهودهم، فصّل الباحث وعرض مواقف ابن معقل من هؤلاء الشراح. فبدأ بذكر:

١. مآخذ ابن معقل على شرح ابن جني

وقبل عرضه لتلك المآخذ قدم الباحث لذلك بمقدمة وافية، فذكر أن ابن جني عالم لغوي مشهور، ألف كتبًا كثيرة مشهورة كما أنه مهتم بالأدب، وكاتب تربطه بالمتنبي علاقة وثيقة، قرأ عليه الكثير من شعره، كما أنه قد شرح ديوانه شرحًا مشهورًا عنوانه (الفسر) وقد نُشر بعض أجزاء هذا الكتاب. أما البعض الآخر فلا زالت تنتظر النشر.

ويعد ابن جني من أوائل شراح ديوان أبي الطيب المتنبي إن لم يكن من أولهم وكان يهتم بالجوانب النحوية، واللغوية، والعروضية، كما أنه كان يهتم بالمعنى العام للأبيات، وقد أكثر ابن جني في شرحه

على الإحالة على ديوان أبي الطيب المتنبي، وهذه الصلة المباشرة بأبي الطيب أعطت شرحه أهمية كبرى، فقد أكثر الشراح من النقل عنه والإحالة عليه.

وختم الهدلق مقدمته الجامعة عن ابن جني بقوله: "لا غرابة في أن يوفق ابن جني في شرحه، فهو عالم مشهور، وعرف عنه الجدّ والذكاء، وسعة الاطلاع والدراية".

وقد أحصى الباحث مآخذ ابن معقل على شرح ابن جني لديوان أبي الطيب المتنبي، وقد تمثلت مآخذه بالنقاط التالية:

- الحكم على الأشعار، هو من اختصاص الناقد الذي صقلته التجربة، وإدامة المدارسة، فأصبح يغوص على المعاني ويدرك معانيها، وليس من اختصاص النحاة واللغوين.
- يعترض ابن معقل على تخريجات ابن جني النحوية واللغوية فيحصي مآخذه على شرح ابن جني لديوان أبي الطيب المتنبي؛ فيذكر أن ابن جني قد طول في الشواهد وقصر في المعاني، ويقول عنه: طبعه تكثير الكلام، وغرضه من ذلك تكثير الكتاب فما يبالي بعد تكبير ذلك أخطأ أم أصاب، ويذكر أيضًا أن طريقته المألوفة هي (كثرة الكلام والتمويه والإيهام).

ويعقب الباحث على مآخذ ابن معقل السابقة فيقول عن الفقرة الأولى: تحدث ابن معقل في مقدمة كتابه المآخذ عن دور الناقد الذي صقلته التجربة، وإدامة المدارسة، فأصبح يغوص على المعاني، ويدرك أبعادها وخفاياها، على

العكس ممن يدعي معرفة معاني الشعر، وهو لم يتسلح بالثقافة الواسعة وإنما يقتصر على جانب واحد من جوانبها.

وفي موضع آخر يقول: إن معرفة معاني الشعر ليست من اختصاص من استنفد عمره في معرفة وجوه الإعراب، واستفرغ جهده في معرفة لغة الأعراب، ولا من نظم أبياتًا في صدر كتاب ورد جواب، أو استزارة صديق، أو استهداء رفيق، وما شابه ذلك، مما لم ينعم فيه النظر، ويتعب فيه الفكر.

ويعقب الهدلق على ما سبق فيقول: إن ابن معقل هنا يعيد إلينا النقاش الحاد الذي دار بين النحاة واللغويين من جهة، وبين الشعراء ونقاد الأدب من جهة أخرى فإن هؤلاء الآخرين كانوا يرون النحاة واللغوين ليسوا مؤهلين للحكم على الأدب؛ لأن أدواتهم مقصورة على معرفة الصحة والخطأ، ومعاني الشعر ومراميه البعيدة تتجاوز مسألة الصحة والخطأ إلى مناحٍ دقيقة المسالك خفية المرامي، ومقولة البحتري في الإمام اللغوي ثعلب وحكمه على الشعر ذائعة مستفيضة.

ويحاول الباحث أن يلتمس عذرًا ويبرر لتلك القسوة التي أبداها ابن معقل تجاه تلك الشروح التي تضمنها شرح ابن جني لديوان أبي الطيب المتنبي فيقول: ربما أن هذه القسوة جاءت من واقع ما أعلنه ابن معقل في مقدمته من أن الحكم على الأشعار ليس من اختصاص النحاة واللغويين، بل ولا من اختصاص عامة الكتّاب، ويضيف فيقول: "ولعل هذه القسوة ناتجة في الأساس عن إكبار لابن جني، والمنزلة التي يتبوؤها في ميدان اللغة العربية، فإن ابن معقل إذا ما وجد أن ابن جني قد أورد تفسيرًا غير جيد بينما توجد تفسيرات أخرى أبلغ منه وأجود يلومه على إخفاقه في إدراك المعاني ويلاحظ الباحث أن ملحوظات ابن معقل ومآخذه على ابن جني في عدم فهمه لمعاني الشعر كثيرة جدًا وهي تكشف

عن طول باع ابن معقل في فهم الشعر، وقدرته على استنباط المعاني المتعددة التي تتحملها لغة الشعر ولهذا السبب نجد ابن معقل يثور على ابن جني إذا ما وجده يخفق في فهم بعض المعاني ويسخر منه ومن فهمه، ويبدي استغرابه من الشراح الآخرين الذين يأخذون عن ابن جني.

ومن أمثلة سخرية ابن معقل واتهامه لابن جني بعدم فهمه لمعاني الشعر التي استشهد بها الباحث أكتفي بهذا المثال:

بعزم يسير الجسم في السرج راكبًا به ويسيرُ القلب في الجسم ماشيا

يعقب ابن معقل على شرح ابن جني لهذا البيت فيقول: "ما أغناك عن التعرض لشرح معاني الشعر، وأنت فيها بهذه المنزلة، وأحوج هذا الديوان إلى غيرك، ولو كان تصرفك في المال كتصرفك في المعاني لكان ينبغي أن يحجر فيه عليك، ويؤخذ فيه على يديك، ولقد أخطأ سبيل هذا المعنى، وتجاوزتَ طريقه، فأنت في واد وهو في واد".

وفي الفقرة الثانية من مآخذ ابن معقل على ابن جني، يعترض ابن معقل على تخريجات ابن جني النحوية واللغوية. ويعقب الباحث على هذه الفقرة من الملحوظات بقوله: "وهذا أمر لافت للنظر أن يجرؤ عالم متأخر على تخطئة ابن جني".

وحول مآخذ ابن معقل على ابن جني في الفقرة الثالثة فقد اكتفى الباحث بإحصاء تلك المآخذ من دون تعقيب منه عليها.

٢. مآخذ ابن معقل على شرح المعري.

يعرف هذا الشرح بـ (اللامع العزيزي) والشرح لا يزال مخطوطًا كما يذكر محقق كتاب المآخذ الدكتور عبدالعزيز المانع.

ذكر الهدلق في بداية نقاشه لهذا الجزء من البحث إلى أن ابن معقل قد تعامل مع أبي العلاء برفق، ولم يتجرأ عليه كما تجرأ على ابن جني وإن كان لم يسلم من بعض رشقاته.

وقد أجمل الباحث مآخذ ابن معقل على أبي العلاء بالنقاط التالية:

١- يذكر معنى بعض الألفاظ والعبارات عند الشرح، ويترك أخرى لا يشرحها رغم أنها تحتاج إلى شرح.

٢- يرى ابن معقل أن أبا العلاء جعل كل مقصوده، في ديوان المتنبي شرح كلمة حوشية أو نادرة غريبة، وقلما يعرض فيه لذكر معنى مشكل، أو ينبه فيه على صناعة بديعة.

٣- يأخذ عليه أنه أحيانًا لا يزيد في شرحه على إعادة كلام المتنبي وبخاصة إذا كان في البيت إشكال ولم يفهم معناه.

٤- يخطّئ ابن معقل أبا العلاء المعري في شرح معاني بعض المفردات، كما أنه يخطئه في اشتقاق بعض المفردات وقد استشهد الباحث بمثال أورده ابن معقل على تلك المآخذ السابقة.

وحينما أتى الباحث على ذكر النقطة الخامسة على مآخذ ابن معقل على شرح أبي العلاء بدأها بقوله: وعلى الرغم من أن أبا العلاء المعري قد عرف بالذكاء، وحدة الذهن، والغوص على المعاني فإن ابن معقل لم يتحرج من وصفه بعدم الفهم، بل إنه قد يسخر منه في بعض الأحيان وقد ساق الباحث بعض الأمثلة التي استشهد بها ابن معقل ويضيف الباحث؛ فيذكر أن ابن معقل

لم يقتصر على اتهام أبي العلاء بعدم الفهم والسخرية من شروحه لأبيات أبي الطيب المتنبي، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيشتط في مؤاخذته لأبي العلاء ويتجاوز التسامح الذي عرفته الدراسات الأدبية عامة، ويصف أبا العلاء بالجهل والكفر المحض وقد جاء هذا الوصف في تعقيب لابن معقل على تفسير أبي العلاء لبيتين من أبيات أبي الطيب المتنبي.

٣. مآخذه على شرح التبريزي:

ألف أبو زكريا التبرزي (ت ٥٠٢هـ) شرحًا لديوان أبي الطيب المتنبي عنوانه (الموضح) وهو لّما يزل مخطوطًا حسبما أوضح ذلك محقق الكتاب.

مآخذ ابن معقل على الخطيب التبريزي كما حددها الباحث: "شبيهة بمآخذه على من سبقه من الشراح فهي تنصب على أمور نحوية، أو عروضية، كما تتضمن وجهات نظر حول تفسير بعض الأبيات، والتماس مخارج لأبي الطيب المتنبي كي تسلم من التناقض الذي أخذه عليه التبريزي، وفي خلال هذه المناقشات تطرق ابن معقل إلى بعض القضايا النقدية مثل: عناية العرب بالألفاظ والمعاني، والمبالغة والسرقات الشعرية والمجاز وأهميته، وتأويل الشعر وما ينبغي أن يقوم عليه".

وحول المآخذ السابقة، أورد الباحث عدة أمثلة من شرح التبريزي لأبيات من شعر أبي الطيب المتنبي مع تعقيب ابن معقل على تلك الأبيات وختمها بقوله: "والقسوة في النقد صفة بارزة من صفات ابن معقل فلم يسلم منه أحد من الشراح الذين ناقش شروحهم".

وقوله: "ومن بين ما قاله عن التبريزي قلة التحصيل وكثرة الجهل باستعارة العرب وقوله هذا نقد غير بصير بجواهر الكلام، وقوله: تأمل هذا

التفسير الذي لا يقوله بصير، وكأنه قد التزم أن لا يصيب معنى فيه أدنى إشكال. وقوله: وأعجب من تتبعه له للمتنبي دائمًا من غير عثور على خطأ أو إظهار فائدة، ولكنه يريد أن يشتهر وأن ينخرط في سلك الأدباء ويجري في حلبة النقاد على الشعراء".

٤. مآخذه على شرح أبي اليمن الكندي:

ألف أبو اليمن الكندي، شيخ ابن معقل الأزدي شرحًا لديوان أبي الطيب المتنبي عنوانه (الصفوة في معاني شعر المتنبي وشرحه).

ويبدو أن هذا الشرح عبارة عن ملحوظات يسيرة على بعض أبيات المتنبي كان القاضي الفاضل قد سأل أبا اليمن الكندي تدوينها وأجابه إلى ذلك وكتبها بخطه وأهداها إليه ويذكر ابن معقل أن الكندي: (لم يزد فيها من عنده على من قبله من الشراح إلا الشيء اليسير) ونتيجة لذلك كانت مآخذ ابن معقل على شيخه قليلة يمكن حصرها بما يلي:

١- يعلق على قول الكندي عند شرحه لبيت من شعر المتنبي ويأتي بالمثال على ذلك.

٢- يأخذ ابن معقل على شيخه وعلى غيره من الشراح اعتماد بعضهم على بعض، وأخذ بعضهم من بعض دونما تمحيص وإعمال فكر ويأتي بأمثلة على ذلك من شرح الكندي لأبيات المتنبي ويعقب عليها.

٣- يرفق ابن معقل على شيخه الكندي ويلتمس له العذر على غير عادته مع الشراح الآخرين، ويعقب ابن معقل على شرح الكندي

لأحد أبيات المتنبي فيقول: (لعل الشيخ لم يقف عليه من كثرة وقوفه على شرحه ونقله عنه).

ولم يكن تأدبه مع شيخه مقصورًا على هذين الموطنين اللذين اعتذر فيهما له بل إننا نجده يخرج عن مسلكه، وهو إيراد المآخذ فقط إلى إيراد ما يثني به عليه فقد أورد شرح الكندي لبيتين في شعر أبي الطيب ثم علق على ذلك قائلاً: "وأقول إن هذا موضع حسن، إنما ننبه تنبيهًا للأخذ عنه لا للأخذ عليه، وإن كان التبريزي قد سبقه إليه، إلا أنه زاد بحسن الترتيب عليه".

٥. مآخذه على شرح الواحدي:

قدم الباحث نقاشه لمآخذ ابن معقل على شرح الواحدي بقوله: ألف أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨) شرحًا على ديوان أبي الطيب المتنبي، يقع في جزأين، وهذا الشرح منشور وقد ذكر الباحث أن مآخذ ابن معقل على هذا الشرح جاءت أطول من مآخذه على الشراح السابقين، كما ذكر أن ابن معقل اعترف بشهرة شرح الواحدي وقال عنه: أسير وأشهر من الشمس كما اعترف بأن الواحدي من أقدر الشراح على استخراج المعاني.

إلا أن الباحث ذكر أن هذا الاعتراف من ابن معقل بشهرة شرح الواحدي وقدرته على استخراج المعاني، جاءت فقط من خلال سياق مآخذ بعض الشراح الآخرين، ومع هذا الثناء الذي أبداه ابن معقل على شرح الواحدي واعترافه بأنه من أقدر الشراح على استخراج المعاني ومع ذلك فقد ظفر بنصيب من التجريح والتهكم، بل إن ما لحقه منه ربما يفوق أي واحد فيمن نقدهم ابن معقل ويمكن تلخيص مآخذ ابن معقل على شرح الواحدي كما جاءت في سياق البحث بالنقاط التالية:

١- قال عن الواحدي: يغلط ويتخبط في شرح معاني ولغة بعض الأبيات، وينتقد بعض تخريجاته اللغوية التي أوردها، ويرى أن العربية ليست من اختصاصه وكان الأولى أن يقتصر جهده على استخراج معاني الشعر.

٢- يتهكم ابن معقل من تفسير الواحدي لأحد أبيات المتنبي حيث يرى الواحدي أنه انفرد بهذا الشرح دون سائر الشراح وقال لم يفسر أحد هذا البيت كما فسرها ويعلق عليه ابن معقل قائلًا: (أنت تصدق في قولك لم يفسر أحد هذا البيت كتفسيرك ولكن في الرداءة لا الجودة).

٣- يستأنس الواحدي كثيرًا بشرح ابن جني وينقل عنه، ويؤاخذه أحيانًا، وقد لا يستحسن ابن معقل رأي ابن جني فيهاجمه هنا مثلما هاجمه أثناء مناقشته لشرحه، وقد لا يرتضي رأي ابن جني ويفضله على رأي الواحدي ويدافع عن ابن جني).

٤- مآخذ ابن معقل على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي كثيرة ومتنوعة ولم يسلم الواحدي، شأنه شأن الشراح السابقين من مآخذه حيث يعترض على بعض تفسيراته اللغوية والنحوية والعروضية فيتناولها بإيضاح تفسيرات لم ينبه إليها أولئك الشراح أو تضعيفًا أو ربما رفضًا لبعض التفسيرات التي أوردوها.

هذه النقاط التي سبق ذكرها ناقشها الباحث وفصل القول في كل فقرة سبقت وذلك من خلال العديد من الأمثلة والشواهد التي عقب عليها ابن معقل في مؤاخذته على الواحدي وعلى الشراح السابقين لديوان أبي الطيب المتنبي.

ويختم الباحث موضوع بحثه القيم بالثناء على ابن معقل ويقول عنه: كان يتمتع بقدرة عجيبة في الغوص على المعاني، وتقليب وجوه النظر فيها، كما أنه يتحلى بجرأة وشجاعة غير عادية في الاعتراض وإبداء الرأي المعارض، ويرى الباحث أن هذه الجرأة قد تجاوزت حدودها في بعض الأحيان وتحولت إلى هجوم عنيف على الشراح، هو أقرب ما يكون إلى السباب المحض وهذا يتعارض مع ما سبق لابن معقل أن أعلن عنه في مقدمة كتابه عن تقدير لأولئك الشراح، واعتراف بفضلهم ووعد منه بعدم تجاوز الحد في مؤاخذتهم، ولكن ابن معقل انقاد وراء طبعه وأطلق العنان لغريزته وأخذ يسب هذا ويغمز ذلك وهذا مسلك مناف لشيم العلماء وأخلاق الأدباء.

وتطرق الباحث وختم موضوعه بالإشارة إلى مسألة أحكام ابن معقل إلى مراد الشاعر من شعره واتخاذه حجة في رد تفسيرات أن بعض الشراح حتى ولو كانت تلك تفسيرات مستقيمة، ثم عقب عليها قائلاً هذه الحجة لابن معقل لا تجد سندًا يدعمها في معظم الأحوال، بل إنها تصطدم ببعض تفسيرات ابن معقل الذي كان يجتهد في البحث عن المعاني المتعددة وكشفها دون أن يلقي بالاً إلى كون المتنبي أراد ذلك المعنى أو لم يرده.

ويرى الباحث أن مسألة مراد الشاعر من شعره، التي لجأ إليها ابن معقل، لا نعدم في معظم الأحوال أن تكون وسيلة يلجأ إليها ابن معقل لتعزيز وجهة نظره وإضعاف وجهة نظر الشارح الذي يعترض عليه.

يوم الخروج : المتنبي هاربًا!

❖ أ. د. عبدالعزيز بن ناصر المانع

عندما ترك أبو الطيب بلاط سيف الدولة وجعل "ضُميرًا" عن ميامنه، وحل ضيفًا على ابن طغج الإخشيدي في الرملة، أكرمه أشد الإكرام، ولما جاءت أبا الطيب دعوة من كافور بالتوجه إليه في منتصف سنة (٣٤٦هـ) استجاب ورحل إليه، وأظن أن هذه الدعوة التي جاءته لم تكن مصادفة، بل كانت تدبيرًا من ابن طغج نفسه، لكي يتجه المتنبي – الذي كان وزير إعلام الدولة الحمدانية- إلى الفسطاط ليكون وزير إعلام لدولة كافور في مصر، وليشد من عضده ويرفع من شان مكانته ليكون أشد مهابة في أعين الفاطميين في المغرب، الذين كانت أعينهم على مصر، لكن مصالح أبي الطيب جاءت مخالفة لمصالح كافور فهو يريد إمارة لا أن يكون وزير دعاية فحسب، كان المجد أو طلب المجد أول ما ساور نفسه وشغلها وشاغلها، ولعله طمع في كافور أكثر من طمعه في سيف الدولة، لاعتقاده بسهولة إقناعه له ليصل عن طريقه إلى تحقيق مراده ؛ لكونه أولاً– وصيًّا على عرش الإخشيديين وليس الأمير نفسه، ثم لكونه وصيًّا غير عربي بل أسود اللون! وأين هو من المتنبي وفخره بنفسه وبعروبته وقوميته حيث يقول[1]:

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عُرْبٌ ملوكها عجمُ

لهذا نجد المتنبي عندما حط رحاله في الفسطاط يبتدر ممدوحه كافورًا في شهر جمادى الآخرة سنة (٣٤٦هـ) بقصيدته اليائية التي تضج بالتشاؤم من أول بيتٍ فيها تعاليًا على ممدوحه لفارق النسب والمقام، ولكنها قصيدة المحتاج[2]:

---

(١) ديوانه ٨٤.

(٢) نفسه ٤٣٩.

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيا

في هذه القصيدة الأولى يقدم المتنبي إلى كافور أول طلب رسمي لتعيينه أميرًا أو واليًا ؛ لأن هذا الأمر في تعيين الولاة هو من صلاحيات كافور ؛ الوصي[1] :

وغيرُ كثيرٍ أنْ يَزورَكَ راجلٌ فيرجِعَ مَلْكًا للعراقين واليا

أو مثل قوله في الأخرى :

وفؤادي من الملوكِ وإن كا ن لساني يُرى من الشعراءِ

أو بقوله :

أبا المسك، هل في الكاس فضلٌ أناله فإني أُغنِّي منذ حينٍ وتشربُ

إذا لم تُنِطْ بي ضيعةً أو إمارة فجودك يكسوني وشغلك يسلبُ

لكن كافورًا في كل ذلك يسمع ولا يجيب النداء!

ولهذا نجد خيبة أمل المتنبي في كافور تظهر في تناقص عدد قصائده على مدى سنوات إقامته، ففي الشهور الستة الأخيرة من سنة ٣٤٦هـ، وهي سنة وصوله مصرَ، نظم ثلاث قصائد في كافور.

وفي سنة ٣٤٧هـ، نظم في السنة كلها أربع قصائد.

وفي سنة ٣٤٨هـ، نظم في السنة كلها ثلاث قصائد.

من بينها قصيدة الحمى، وهي ليست موجهة لكافور، بل هي التي أطربت المصريين وأغضبته.

أما في سنة ٣٤٩هـ، فقد نظم فيه يتيمته البائية، وهي قصيدة تنم عن شيء غير قليل من خيبة الأمل وشدة الضيق مما آل إليه حاله في مصر.

---

(١) نفسه ٤٤١.

ويضم إلى ذلك موقف ابن حنزابة وزير كافور من أبي الطيب إذ نصح كافوراً بعدم تمكين المتنبي من ولايات مصر، ولذلك عرّض به المتنبي في قوله:

وأبلجُ يَعْصي باختصاصِي مُشِيرَهُ عَصَيْتُ بقَصْديهِ مُشِيري ولُوَّمي

ثم هجاه عندما غادر بقوله:

بِها نَبَطِيٌّ مِنَ اهلِ السَوادِ يُدَرِّسُ أَنسابَ أَهلِ الفَلا

كان هذا مستوى علاقاته في البلاط، فماذا كان حاله على مستوى خاصة مصر وعلمائها؟

لاتبدو جيّدة على الإطلاق، بل تظهر قلة صلاته ووحدته جلية في بيته:

بِمَ التعللُ لا أهلٌ ولا وطنُ ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكنُ

وكذلك في بيته حينما مرض بالحمى:

قليلٌ عائدي سقمٌ فؤادي كثيرٌ حاسدي صعبٌ مرامي

ويستثنى من الخاصة ذلك الزائرُ النبيلُ أبو نصر بن غياث النصراني الذي كان عائده الوحيد في وقت قل فيه الوفاء، فجزى الله ذلك النصراني خيرًا على وفائه.

هذا الاستقبال السلبي له في مصر جعل أبا الطيب بدلاً من أن يطمح في الإمارة يتوق إلى الحرية والرحيل؛ لذلك نراه يجُسُّ نبض كافور حين طلب منه الذهاب إلى الرملة لتنجُّزِ مالٍ له هناك، فكان رد كافور حاسمًا إذ قال: لا والله، لا نكلّفك المسير، بل نرسل من يقبضه عنك ويأتيك به.

وما كان قسم كافور إلا لخوفه مما يعقب خروجه من إطلاق لسانه بهجاءٍ مقذع، فأضاف إلى مَنْعِ خروجه إحاطتَهُ برقابة صارمة.

وهكذا أقام أبو الطيب في سجنه الواسع الضيق.

لابد أنه فكر في الخروج بعدئذ ويظهر ذلك واضحًا جليًّا في مقدمة قصيدة "الحمى" حيث ينادي بأعلى صوته مطالبًا بالحرية وأن يطلق له العنان فلديه كل الوسائل التي يحتاج إليها الراحل أو المسافر أو الهارب: فأبو الطيب لايحتاج إلى "دليل" ولا يخشى "الفلاة" ولا "حر الهجير" "بلثام" و "بغير لثام" فهو في رحلاته "يستريح" بأي منهما، أما ما لا يستريح إليه فهو "الإناخة" والمقام عند من لايستحق المقام ولا يحترم المقيم، وإذا ما أصاب عينَهُ ما يحجُبُ رؤيته في ترحاله في الفلوات "فعيون رواحله عيونه" و"بغامها بغامه" وإذا كان وحيدًا فسيفه صديقه وحاميه.

لكن العيب كل العيب، والضيق كل الضيق، أن يبقى ضيفًا لأهل البخل، ثم يرخي أبو الطيب عِنان شعره للحكمة التي استوحاها من هُون المقام عند كافور.

يصف الوحيد الأزدي المهلبي البصري (ت٣٩٠هـ) حال المتنبي وقد لقيه بمصر فيقول[1]: "كنتُ بمصرَ وبها أبو الطَّيب، ووقفتُ من أمره على شَفَا الهلاك، ودَعَتْنِي نفسي لحبِّ أهل الأدب إلى أن أحثَّهُ على الخروج من مصر، فخشيتُ على نفسي أن يشيع ذلك عني، وكان مستعدًّا للهرب، وإنما خاف أظافير الموت، ومخالب المنية، وهو جَنَى ذلك على نفسه؛ لأنه ترك مَدْحَ ابن حنزابة وهو وزير كافور ... فأتى من غير الباب".

لكن المتنبي أخيرًا لايجد مفرًا من مواجه الموت بديلاً عن الذلِّ.

وهكذا يتحول طموح الإمارة إلى رغبة في الهروب ففي الحادي عشر من شهر شوال سنة ٣٥٠هـ اختطفت المنيّة فاتكًا الإخشيدي، وهو أعز شخصية عرفها في مصر، فكان موته تاريخًا مَفْصَلِيًّا في حياة المتنبي المصرية، إذ قرر بعده

(١) البديعي، الصبح ١١٣.

الهروب مباشرة فلم يدم مقامه بعد وفاة فاتك سوى ٥٨ يومًا، كانت كافية للإعداد والاستعداد والهروب الذي حدد له يوم التاسع من شهر ذي الحِجَّة سنة ٣٥٠هـ، أي يوم الحج الأكبر وقد كان.

الاستعداد للهرب

من أخبار أبي الطيب وأخبار رحيله نجزم أنه أعدَّ قصيدته الدالية المشهورة قبل يوم عيد الأضحى سنة ٣٥٠هـ بمدة، كما أن مسيره كان في يوم عرفة من تلك السنة، فما السِّرُّ في اختيار هذا اليوم دون غيره من أيام السنة؟

تقول أخباره[1]: إن أبا الطيب "انتهز الفرصة في العيد، وكان رسم السلطان {كافور} أن يستقبلَ العيد بيومٍ تُعدُّ فيه الخِلَعُ والحِملاناتُ وأنواعُ المبارِّ لرابِطة جنده، وراتِبة جيشهِ، وصبيحةُ العيد يُفَرِّقُ، وثاني اليوم يُذكَرُ له من قَبلَ، ومن ردَّ واستزادَ، فاهتبلَ المتنبي غفلةَ كافور وانشغالَهُ بذلك وقرر الهرب".

وهذا سبب وجيه جدًّا لاختيار التوقيت، ولكني أرى أن هذا السبب - وحده- ليس كافيًا، بل تضاف إليه أسباب أخرى ثلاثة:

أما أحدها فهو أنه قد وقر في ذهنه وذهن من خطط معه أن يكون طريقه عبر صحراء سيناء، ورحلته في هذا الطريق في هذا الوقت آمَنُ له جدًّا، إذ إن طريق الحج وغيرَهُ من الطرق الأخرى أيضًا شبهُ خالية من سالكيها، فالحُجاج حينئذٍ بين عرفة ومِنًى يقضون حجَّهم، ولن يعودوا قبل شهرٍ من تاريخ مغادرته في الأقل.

وكذلك قوافل التجار؛ فإن أكثرهم أيضًا في شغلٍ عن الرحلة والترحال أيام عيد الأضحى المبارك، فهم يقضون أيامه بين أهليهم أو قريبًا منهم، فهو عيدٌ

(١) الأصفهاني، الواضح ١٣.

له مكانته المقدسة في نفوس التجار المصريين بخاصة، كل هذا يجعل المتنبي في مأمن مما أمامه في ذلك الطريق.

وسبب ثانٍ راعاه أبو الطيب فيما أعتقد، وهو أن توقيت رحلته أراده متزامنًا مع فصل الشتاء، وهذا مهمٌّ جدًّا لمن سيعبر صحراء سيناء وصحراء بلاد الشام، حيث يشُح الماء في الصيف، ورحلة أبي الطيب بدأت في شهر يناير سنة ٩٦٢م.

وسبب ثالث مهمٌ أيضًا، وهو أن حاجته إلى الماء ملحَّةٌ جدًّا، ليس له ولا لغلمانه ولا لإبله، ولكن لخيله التي لاتصبر عن ورود الماء لأكثر من يومين أو ثلاثة على خلاف الإبل التي قد تصبر خمسة أيامٍ أو أكثر.

كل هذه الأسباب مجتمعة تصب في صالح توقيت رحلة الهروب.

ولكن: بقي السؤال الأهم: كيف تمكن من الخروج؟

يدل خبر القصيدة دلالة واضحة على أن إقامة المتنبي في مصر كانت محاطة بالعيون والرقباء خوفًا من هربه وما قد يتبعه من هجاءٍ مقذع من شاعرٍ عظيمٍ كأبي الطيب لسلطانٍ تقيٍّ مثلِ كافور.

يقول الخبر: "وكان للأسود عليه عيون، وكان جميع جيرانه يراعونه حتى كان قومٌ يسهرون حِذاءَ منزله ويتعرفون من يدخل عليه ومن يخرج من عنده، ويغدو كلَّ يومٍ **صاحبُ الخبر** إلى بابه حتى يقف على حاله، وهو يعلم بذلك فلا يظهره لهم".

و"صاحب الخبر" هو: "العين".

أتوجد رقابة أشد صرامة من هذه الرقابة؟ أبدًا.

ولكن أبا الطيب الذي قرر الهرب كان يستعد استعداد من لا رقابة عليه فهو—كما يقول خبر القصيدة أيضًا— يُعِدُّ كل مايحتاج إليه على مَرِّ الأيام في لطفٍ

ورفقٍ، لا يعلم به أحد من غلمانه فهو يظهر الرغبة في المقام، فهاهو المتنبي يخرج ويدفن الرماح في الرمل ويحملُ الماء على الإبل في الليل عدةً لعشرِ ليالٍ، ويتزود من الطعام ما يكفيه لعشرين ليلة[1].

هذا الخبر يناقض خبر "الرقابة الصارمة" مناقضة واضحة، وإن نصَّ الخبر على تراخي هذه الرقابة.

فكيف استطاع أبو الطيب أن يفلت من هذه الرقابة لينقل الماء من النيل ويدفنَ الرماح ويتزودَ بالزاد في الليل وبيتهُ محاصرٌ من كل تلك العيون؟!

أين الرقباء؟ و"أين صاحب الخبر"؟ الذي يأتي كل صباح لتلقي تقارير موظفيه عن تحركات أبي الطيب في المساء؟

كيف لم يكتشف لا "هو" ولا مساعدوه المكلفون بمراقبة أبي الطيب ولا جيرانه ماكان يقوم به في الليل، وهو الوقت الذي تشتد فيه الحراسة؟

ليس هذا فحسب، بل إن أبا الطيب يومَ الهروب أو ليلَتَه "أخفى طريقه فلم يأخذوا له أثرًا، حتى قال بعض أهل البادية: هَبْهُ سار، فهل محا أثره؟!!

وقال بعض المصريين: إنما أقام حتى عمل طريقًا تحت الأرض!!

وتبعته البادية والحاضرة ومن وَثِقُوا به من الجند" ولم يظفروا به!!

من هذا الهارب الذي أعجز وحده كلَّ الحراس والبادية والحاضرة والجند؟

عندي أن الذي صاغ هذه الأخبار ربط بين شخصين: النبي ﷺ وخبر هجرته، والمتنبي وخبر هروبه، مستفيدًا استفادة كبيرة من الاشتقاق اللغوي بين اللقبين، إذ إنَّ هذه القدرة من المتنبي على ترتيب هروبه محاطة بخوارق عجيبة تقتضي أن رواة الخبر أسقطوا أخبار الهجرة على أخبار (الهروب) ولا يتضح أمر

---

(1) ينظر: الديوان ٤٨٨.

ذلك إلا بالمقارنة المتأنية بين ما ورد هنا وبين أخبار الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.

ولعل المقارنة توضح ذلك، ولنبدأ بالاشتراك في "مبدأ الهروب" إذ إن هجرة النبي ﷺ تسمى في بعض المصادر الأساسية "هروبًا" أو "فرارًا":

أولاً:

أ- هذا الإمام الترمذي -رحمه الله- يفسر حديث النبي ﷺ[1]: "لقد أُخفت في الله ومايخاف أحدٌ، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يومٍ وليلةٍ وما لي ولبلال طعامٌ يأكله ذو كبدٍ إلا شيءٌ يواريه إبطُ بلال".

يقول الإمام الترمذي عن مناسبته: "ومعنى هذا الحديث: حين خرج النبي ﷺ هاربًا من مكة ومعه بلال ..." إلخ.

وقد أورد ابن الأثير في "جامع الأصول" الحديث وتفسيره بنصِّهِ منسوبًا إلى الترمذي، رحمهما الله جميعًا[2].

ب- وهذا الإمام الطبري -رحمه الله- يقول في تفسير قوله تعالى[3]: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وإنما عنى -جلَّ ثناؤه-: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ رسولَ الله ﷺ وأبا بكر ﷺ؛ لأنهما اللذان خرجا **هاربين** من قريش"[4].

ج- وهذا الواحدي في تفسيره يقول: "قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِذْ

---

(١) الترمذي، الجامع ٤: ٢٥٥- ٢٥٦.

(٢) ابن الأثير، جامع الأصول ٤: ٦٨٧.

(٣) سورة التوبة ٤٠.

(٤) الطبري، جامع ١٠: ١٣٥، وينظر الواحدي، التفسير البسيط ١٠: ٤٣٦، يقول: "قال ابن عباس في قوله تعالى: (إذ أخرجه الذين كفروا)، يريد: من مكة هاربًا منهم".

﴿أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يريد: من مكة هاربًا منهم"[1].

د- وهذا القرطبي –رحمه الله– يقول في تفسير الآية نفسها "وهو خرج بنفسه –عليه السلام– فارًّا؛ لكن بإلجائهم له إلى ذلك"[2].

هـ- وهذا ابن كثير في تفسيره[3] يقول عن عام الهجرة: "... لما همَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هاربًا بصحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور".

فالذي صنع خبر أبي الطيب أسقط لفظ (فرار) النبي عليه الصلاة والسلام أو (هروبه) على لفظ (الهروب) عند المتنبي، وحاشا رسول الله أن تكون هجرته فرارًا أو هروبًا، ولكنه كان فارًّا هاربًا بدينه ورسالته.

وعلى هذا:

فخروج ﷺ النبي إلى المدينة هروب، وخروج المتنبي إلى الكوفة هروب.

ثانيًا:

خرج النبيّ ﷺ من مكة –كما يقول ابن هشام– ولم يعلم بخروجه أحدٌ إلا عليٌّ وأبو بكر رضي الله عنهما[4].

وكذلك المتنبي، فقد خرج من الفسطاط كما سيأتي تفصيله ولم يعلم به أحدٌ إلا عبدالعزيز بن يوسف الخزاعي وأبو بكر الفرغاني، حتى غلمانه لم يكونوا على علمٍ باستعداده ونقله الماء والزاد كما ينص الخبر[5].

ثالثًا:

---

(١) الواحدي، تفسير البسيط ١٠: ٤٣٦.

(٢) القرطبي، الجامع ٨: ١٤٣.

(٣) .ابن كثير، تفسيره ٤: ١٥٥.

(٤) ابن هشام، السيرة ١: ٤٨٥.

(٥) ديوانه ٤٨٨.

يقول خبر خروج النبي ﷺ: "وكان عامر بن فهيرة يرعى غنم أبي بكر في مراعي قريش ويتلو النبي وأبا بكر بالغنم فيُعَفِّي أثرهما ويمحوه"[1].

وكذلك المتنبي، فهذا أثره يختفي!

يقول خبره: "وأخفى طريقه فلم يأخذوا له أثرًا حتى قال بعض أهل البادية: هبهُ سارَ، فهل محا أثره؟"[2].

هل صورة المتنبي في ذهن هذه البادية صورة نبي؟

رابعًا:

خرج النبي ﷺ مضطرًّا لا مختارًا كما يقول الله في محكم كتابه[3]: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

يفسِّر القرطبي ذلك بأنه "خرج عليه السلام بنفسه **فارًّا**، لكن بإلجائهم إلى ذلك حتى فعله"[4].

وكذا أبو الطيب ألجأه حصار كافور له ومنعُهُ من الخروج إلى الفرار والهروب إلاَّ أن الفرق بينهما أن النبي ﷺ خرج فارًّا بدينه إلى المدينة حيث استقر به المقام، أما أبو الطيب فقد خرج فارًّا بنفسه إلى الكوفة طلبًا للأمن والسلامة.

خامسًا:

عندما عزم النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه على الهجرة استأجرا عبدالله بن أرقط دليلاً، ودفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور[5].

---

(١) ابن هشام، السيرة ١: ٤٨٦؛ القرطبي ٨: ١٤٤.

(٢) ديوانه ٤٨٩.

(٣) سورة التوبة ٤٠.

(٤) القرطبي، الجامع ٨: ١٤٣.

(٥) ابن هشام، السيرة ١: ٤٨٨، ٤٩١، ٤٩٢؛ القرطبي، الجامع ٨: ١٤٤، ١٤٥.

وهذا المتنبي عندما عزم على الرحيل والهرب طلب دليلاً من عبدالعزيز بن يوسف الخزاعي العربي ليرافقه في الطريق.

سادسًا:

والنبي ﷺ عندما التجأ هو وصاحبُه إلى الغار في جبل ثور وطلبته قريش وأدركته بالغار حماه الله سبحانه وتعالى إذ أرسل العنكبوت لتنسِج بيتًا على فم الغار ومن ثم ردَّ الله عنه قريشًا وكيدهم، فجزموا بِخُلُوِّ الغار من النبي وصاحبه. وهذه معجزة سماوية أرادها الله لحماية نبيه عليه السلام وحماية صاحبه أبي بكر رضي الله عنه من قريش.

وهذا المتنبي يخرج فلا تجد له البادية بعد خروجه من الفسطاط أثرًا ويعجزهم الوصول إلى الطريق الذي سلكه فتحتار البادية ويحتار المصريون في أمر المتنبي فلا يجدون علة أو سببًا إلا سببًا واحدًا وهو حدوث معجزة حَمَت المتنبي من طلابه، فها هم يقولون عنه[1]: "**إنما أقام حتى عمل طريقًا تحت الأرض**" هرب منه، وحَفْرُ المتنبي الطريق تحت الأرض وحده ثم مرورُه من خلاله ثم اختفاءُ هذا النفق معه، معجزة لا تحدث إلا لنبي.

سابعًا:

ثم هذا المتنبي يحيطه كافور بالعيون ويجعل جميع جيرانه يراعونه ويراقبونه "حتى كان قومٌ يسهرون حِذاءَ منزله ويتفقدونه ويتعرفون من يدخل إليه ويخرج من عنده، ويغدو كل يوم صاحب الخبر إلى بابه حتى يقف على حاله" فكيف كسر هذا الحصار؟

---

(١) ديوانه ٤٨٩.

هذا المتنبي –بقدرة قادر عليم– يخترق هذه الرقابة ويحمل الماء على الإبل، في الليل، ويحمل الرماح ويدفنها في الرمل، ويتزود من الطعام لعدة عشرين يومًا، ومع هذا فإن كل هذه العيون وكل هؤلاء الرقباء لايرونه! فما الخبر؟

لابد لأبي الطيب من معجزة أخرى تكفيه شر العيون والرقباء.

أكان المتنبي ينثر التراب على رؤوس حراس منزله كما فعل الرسول ﷺ ليلة هروبه إلى المدينة؟

يقول خبر هجرة الرسول ﷺ إنه أمر عليًّا ﷺ أن ينام في فراشه، ثم لَّما خرج ليلة عزمه على الهجرة وكانت قريش مجتمعة على بابه، أخذ حفنة من تراب فجعل ينثره على رؤوسهم، فأخذ الله أبصارهم فلا يرونه[1]: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[2].

ثامنًا:

وقريش تدفع مئة ناقة لمن يقبض على رسول الله ﷺ، وكافور يدفع الأموال، نفسها أو أكثر منها، لمن يعيد إليه المتنبي.

تاسعًا:

والنبي ﷺ في مسيره من مكة إلى المدينة يغير طريقه بواسطة دليله بين الفينة والفينة، بل إنه لم يتقاطع مع الطريق الرئيس بين مكة والمدينة سوى مرة واحدة، فيما أعتقد، عند وادي أمج (خُليص حاليًّا)، وكذا يفعل المتنبي في خط سيره إلى الكوفة[3].

---

(١) سورة يس الآية ٩.

(٢) ابن هشام، سيرة ١: ٤٨٣؛ القرطبي، الجامع ٧: ٣٩٧، ٨: ١٤٤.

(٣) خريطة خط الهجرة، معرض محمد عليه السلام بالمدينة، والكتيب المصاحب له الذي طبعته دارة الملك عبدالعزيز.

عندي أن هذه القصة التي تحمل من التناقض ما تحمل إنما هي من صنع الرواة، وصُنْعها بهذه الطريقة الإعجازية هي محاولة لإظهار عظمة المتنبي الإنسانية أمام كافور وحصاره لتتناسب مع عظمته الشاعرية، لهذا ألحقوا بشخصيته هذه الخوارق التي أعجزت الباحثين عنه من عرب وبادية ومصريين من رجال كافور.

إذًا: كيف خرج أبو الطيب من الفسطاط بأمان؟

لعل السبب الحقيقي يرجع إلى علاقاته الشخصية خارج الفسطاط وعلى وجه التحديد في صلاته الوثيقة مع أمير "بِلبِيْس" عبدالعزيز بن يوسف الخزاعي. أما كيف تكونت هذه العلاقة بينهما، فهو أمرٌ يحتاج إلى شيءٍ من التفصيل:

من المعلوم –كما تنص أخبار المتنبي في ديوانه– أنه عندما خرج مغاضبًا من بلاط سيف الدولة سنة ٣٤٦هـ توجَّه إلى "دمشق" الإخشيدية، ثم إلى الرملة ثم إلى بِلبِيس، ويبدو أنه كوّن علاقة طيبة بأميرها، كما أن هذه العلاقة دامت بينهما وقويت أواصرها أثناء مقام الأول بمصر الذي كان عيشه فيها مرًّا كدرًا حيث أمضى سنواته الخمس العجاف، لذا نراه يقول[1]:

لئن مرَّ بالفسطاط عيشي لقد حلا ... بعبد العزيز الماجد الطرفينِ

فتًى زانَ قيسًا بل معدًّا جميعها ... .

تناول ودِّي من بعيدٍ فناله ... .

إذًا فالعلاقة التي قامت بينهما عند لقاء المتنبي بالخزاعي أثناء مرور الأول بالثاني في بِلْبِيس، وتوطدت فيما بعد، هي التي تناولت ودَّ أبي الطيب، وفي الوقت نفسه أثارت نخوة الخزاعي لينقذ المتنبي من براثن كافور وسجنه عندما اشتدت حاجة الشاعر إليه وضاقت به السبل بعد طول الإقامة عند كافور.

(١) عزام، ذكرى أبي الطيب ١٨٩.

ثم إن ترتيب حلاوة العيش مع "الخزاعي" بعد مرارة العيش في الفسطاط، في هذه الأبيات، له دلالته التاريخية على مروره ببلبيس ثانية بعد هروبه من الفسطاط.

ولا أدري كيف غفل رواة خبر هروب أبي الطيب عن ربطه بأبياته الأخرى التي يذكر فيها "الخزاعي" ليتضح عدم وجود إعجاز في هروب الشاعر لنستمع إليه يقول[1]:

جَزَى عربًا أمسَتْ بِبلبِيْس ربُّها ... بِمَسعاتها تَقْرَرْ بِذاك عُيونُها

كراكرَ من قيس بن عيلانَ ساهرًا ... جفونُ ظُباها للعُلى وجفونُها

وخصَّ بها عبدَ العزيز بنَ يوسفٍ ... فما هو إلا غِبْتُها ومَغِبْنُها

فتًى زان في عينيَّ أقصى قبيلةٍ ... وكم سيِّدٍ في حلَّةٍ لا يزينها

فهذا الشعر ليس مجردَ مديحٍ على عطاء، ولكنه كما يتضح ردُّ جميلٍ على معروفٍ.

وهذا المديح قسمان: لعرب بِلبِيس "لمسعاة" قدَّموها للشاعر، ثم خصَّ قائدهم عبدالعزيز الخزاعي الذي "أغاثه". والسؤال يكمن هنا: بأي شيء أعان الخزاعيُّ أبا الطيب وأغاثه؟

وما تلك "المسعاة" التي قدمتها "خزاعةُ بِلبِيْس العربية" لأبي الطيب؟

وهل مجرد إرسال "دليل" يستحق كل هذا الثناء؟

وهل مثل أبي الطيب يجود بالثناء لولا أن الجميل الذي أضفاه الخزاعي عظيم جليل؟

أو لم يمتنع أبو الطيب عن مديح عظماءَ قبله بالرغم من إغراءات العطاء المادي؟

---

(١) ديوانه ٤٨٨.

ألا يدفعنا كل هذا إلى القول بأن هذه "المسعاة" وهذا "الغوث" هو المساعدة في تدبير أمر هروب أبي الطيب من مصر إلى بِلبِيس ؛ ثم في تأمين طريقه بعد ذلك؟

بلى، ولا غير ذلك.

يوم الهروب

الذي لاشك فيه أن خروج أبي الطيب من الفسطاط أمر شبه مستحيل – كما مرَّ– بل إن أبا الطيب – كما يصفه الوحيد الأزدي، عندما قابله بمصر– كان يتمنى الهرب ومستعدًّا له، ولكنه "خاف أظافير الموت ومخالب المنية من قُرْب"[1]!!

إذًا فالهروب يحتاج إلى عونٍ خارجيٍّ أولاً، وها هو العون يأتي من أمير عرب بِلبِيس ؛ عبدالعزيز الخزاعي.

ولكن هذا العون الخارجي لايكفي وحده بل لابد له من تظافر جهود داخلية في الفسطاط نفسها لتهيِّء له تدبيرًا يخلصه من تلك الرقابة الصارمة وهذا التدبير لابد أن يأتي من شخصية نافذة لها مكانة سياسية في بلاط كافور.

هل وجد أبو الطيب هذا المعين المساعد؟

ربما.

ينبغي أولاً أن نسأل عن مصير قصيدة المتنبي الوداعية الخالدة التي هجا فيها كافورًا قبل مغادرته مصر[2]:

عيدٌ بأية حالٍ عدتَ يا عيدُ بما مضى أم بأمرٍ فيكَ تجديدُ

(١) البديعي، الصبح المنبي ١١٣.

(٢) ديوانه ٤٨٥.

إن البحث في خبر هذه القصيدة الهجائية الدالية ربما يقودنا إلى الوصول إلى الشخصية التي ركن إليها المتنبي داخل الفسطاط فكان خير عونٍ له على الهروب في صورة أكثر أمانًا واستقرارًا.

لم أجد فيما رجعت إليه من المصادر، ممن تناول حياةَ أبي الطيب في بلاط كافور، من فصَّل خبرَها سوى المقريزي الذي احتفظ لنا في تاريخه بخبرين مهمّين لا نجدهما عند غيره فيما أعلم؛ أحدهما حول دَوْر المتنبي الشعري المتواضع في البلاط، والآخر، وهو الأهم، تناول بتفصيل دقيق خبر قصيدة الهجاء الدالية التي نظمها أبو الطيب قبل رحلته.

يدل الخبر الأول على أن المتنبي كان حكمًا لشعراء بلاط كافور في الأعياد[1]: "... كان المتبني يقف بين يدي كافور وهو متكئٌ على سيفه في عشية كل عيدٍ والشعراء ينشدون مدائحهم في كافور، فكلما فرغ شاعر من إنشاده رفع كافور رأسه وقال: أيْش تقول يا أبا الطيب في هذا الشاعر؟"

يبدو أن عطايا الشعراء تقدَّر حسب تقدير أبي الطيب لمكانة كلِّ شاعر.

أما الخبر الثاني فهو أهم خبر فيما له علاقة بأمر الهروبِ وترتيبهِ، يقول الخبر[2]: "وعندما عزم {المتنبي} على الهرب من مصر أرسل إلى أبي بكر الفرغاني –أحدِ جلساء كافور– يقول له: إني أجدُ وجعًا وللأستاذ {كافور} عندي رقعةٌ فيها مُهِمٌّ فتدفَعُها، عشية العيد، عند العَتَمة، إذا خلا، فقد هنأته بالعيد، وذكرت عذري في التأخر.

فأخذ الفرغاني الرقعة، وهرب المتنبي من ساعته {في يوم عرفة} وأصبح الناس بشُغْل العيد، وجلسَ كافورٌ عشية العيد للشعراء، فسأل عن المتنبي وقال: سَلوا

---

(١) المقريزي، المقفى ١: ٣٧٥.

(٢) نفسه ١: ٣٧٥- ٣٧٦.

عنه، فتوانى من قيل له، وتوانى الفرغاني أيضًا تلك الليلة في إيصال الرقعة إلى كافور فلم يوصلها إليه إلاَّ من الغد، فجاء بها كافورًا مع العتمة وقال له والشمع بين يديه: دَفَع لي عبدك أبو الطيب رقعة، وهو ضعيفٌ من شيءٍ يجده، وعرَّفني أن فيها مهمًّا!

فاتهمه كافور أنه قد هجاه في الرقعة، فأخذها بيده وقال: أرسلوا إلى أبي الطيب، وسلوا عنه.

فمضَى مَنْ أُرسِلَ في طلبه، فانكشف الأمر أنه هرب!

فوضع كافور الرقعة في الشمعة وأحرقها بيده، وعلم أنه هجاه، وأخذ يسب من حسَّن له التقصير في أمره {ولعله يعني وزيره: ابن حنزابة} وتحسَّر عليه وقلق لذهابه!". ا.هـ.

هذا الخبر خبرٌ وحيدٌ يتيم، وراويه هو المقريزي، راويةٌ مصريٌّ، مما يزيد في صحته وإمكانية الاتكاء عليه.

يلزمنا هنا التوقفُ عند هذا الخبر والقيامُ بمناقشته مناقشة دقيقة، فالخبر يقع في دائرة "تنسيق" الهروب وفي سياقه بل في صلبه.

أولاً: من يكون هذا الفرغاني أبو بكر، جليس كافور وأحد ثقاته، الذي سلَّم له المتنبي قصيدته الهجائية ليسلمها إلى كافور وأخَذَها ليقوم بما طلب منه؟

من الواضح أن هذا الفرغاني ينسب إلى "فرغانة" وهي –كما يقول ياقوت[1]– "كورة متاخمة لبلاد تركستان بينها وبين سمرقند خمسون فرسخًا".

ماذا يعني هذا؟

---

(١) ياقوت، معجم البلدان ٤: ٢٥٣.

قلتُ: ومازالت مدينة معروفة في دولة أوزبكستان.

يقول ابن خلكان في ترجمته لأبي بكر ابن طغج[1]: "هو محمد بن طغج، الفرغاني الأصل، المنعوت بالإخشيد {أي: ملك الملوك} أصله من أولاد ملوك فرغانة، وأبو بكر {بن طغج} هذا هو مؤسس الدولة الإخشيدية في مصر والشام. ولما توفي أبو بكر سنة ٣٣٠هـ، تولى ابنه القاسمُ أنوجور {الإخشيديُّ} الحكمَ بعده وكان كافور مولاه هو الذي يقوم بتدبير مملكته إلى وفاته سنة ٤٤٩هـ" ا.هـ.

من هذا النص يتضح أن أبا بكر الفرغاني، حاملَ قصيدة المتنبي إلى كافور هو –كما يغلب على الظن إخشيدي– من أسرة أنوجور الصبي الفرغاني الإخشيدي، سيد كافور.

من خلال كل ذلك يخرج الباحث بأن خروج المتنبي من الفسطاط إلى بِلبِيس لم يكن ليتم لولا تدبير دُبِّرَ وتنسيق محكم حِيكَ من داخل بلاط كافور، بطله –دون ريب– أبوبكر الفرغاني نفسه.

ولعلي أطرح هنا بعض التساؤلات التي قد تشي بصحة دور هذا الفرغاني في تيسير هروب أبي الطيب يوم عيد الأضحى:

هل من المعقول أن يقول أبو الطيب قصيدة هجاء ينطق كل حرف منها بسيل من المفردات المقذعة ويرسلها مع أي شخص، وهو الذي كان يتمنى الهروب لولا أنه يخاف "أظافير المنية" كما يقول الوحيد؟!

هل يمكن أن يكون المتنبي بهذه الغفلة حتى يرسل هذه القصيدة لكافور مع شخص يعمل في بلاطه وأحدِ رجاله وجلسائه؟

(١) ابن خلكان، وفيات ٥: ٥٦- ٥٨، ٤: ٩٩.

هل من المعقول أن يكون المتنبي بهذه الغفلة بحيث يسلم القصيدة لشخصية محسوبة على الأسرة الحاكمة الفرغانية الإخشيدية ليسلمها إلى وصي عرشهم كافور؟

لو فعل أبو الطيب هذا لكان حقًّا مجازفًا بنفسه وروحه حاكمًا عليها بالنهاية الحتمية.

إننا لو أعدنا قراءة الخبر لربما خرجنا بالحقائق الآتية:

١. أن أبا الطيب لم يرسل القصيدة مع رسول حتى لا يتسرَّب الخبر.

٢. أن أبا الطيب "يرسل" إلى أبي بكر "الفرغاني"، ليجيئه مما يدل على مكانةٍ عليَّةٍ للأول عند الثاني، جعلته يلبي الطلب ويذهب إليه، ويأخذ القصيدة.

٣. أن المتنبي يحتج بالمرض ويزعمه فكيف يصدق الفرغاني هذا العذر على وجهه دون مساءلة والمتنبي أمامه، لو كان مخلصًا لكافور، لولا علم الثاني بأنه عذر مصنوع مصطنع.

٤. ثم هذا المتنبي يملي على الفرغاني وقت تسليم الرسالة "الرقعة" ويحذره ليكونا حَذِرَينِ فيشترط عليه أن يسلمها:

- عشية العيد.
- عند العَتَمة.
- إذا خلا.

وهل يستطيع المتنبي وضع شروط ومواقيت لتسليم القصيدة "الرسالة" لولا ثقته الثقة التامة في ولاء ذلك الفرغاني له؟

واختيار المتنبي لفترة المساء، وعند خلو كافور بنفسه وحيدًا له دلالته، إذ لايمكنه، في هذا الوقت، الإعداد والاستعداد للبحث عن المتنبي واللحاق به والقبض عليه.

والانتظار إلى الصباح يعطي أبا الطيب الفرصة للوصول إلى مأمنه.

٥. العجيب الغريب أن أبا بكر الفرغاني لم يسلم الرقعة لكافور في الوقت الذي حدده المتنبي "عشية العيد، بعد العتمة إذا خلا" بل "**توانى**" فلم يوصلها إلا مساء اليوم التالي!

ألا يدل هذا دلالة واضحة على تواطئ بَيِّن بين المتنبي والفرغاني؟ وأن الأخير –دون شك– كان يحطِبُ في حبل الأول ويعطيه الفرصة حتى يصل مأمنه عند الخزاعي؟

٦. ليس هذا فحسب، فهذا كافور عندما جلس للشعراء في يوم العيد ولم يجد المتنبي، ليلقي قصيدته كما يفعل في أغلب الأعياد، وليحكِّم قصائد الشعراء، طلب أن يسألوا عنه، لكن من كُلِّف بالمهمة "توانى" –هو الآخر– ولم يحرص على تنفيذ ما طُلِبَ منه مما يدل على أنه هو الآخر – أيضًا– كان يحطِبُ في حبل المتنبي.

ألا يدل كل هذا على وجود تنسيقٍ مسبقٍ من أبي بكر الفرغاني مع مسؤولي البلاط لتأمين مسألة هروب أبي الطيب؟

٧. يقول أبو بكر الفرغاني إن أبا الطيب عندما قابله "كان ضعيفًا من شيء يجده".

ألم يظهر للفرغاني عندما تقابلا عدم صحة دعوى المتنبي، الذي هرب فور تسليم القصيدة؟

وهل يهرب المريض؟

وبعد:

إذا كان خبر المقريزي موثقًا صحيحًا، وما أظنه إلا كذلك، وإذا كانت هذه القراءة له موفقة فما الذي دفع أبا بكر الفرغاني إلى أن يدبر كل هذا العون لأبي الطيب، ويحيك كل هذه الخطط ويهيئها تمهيدًا لهروب المتنبي؟

أقترح عدة أسباب:

١- أن هذا الفرغاني يحس في داخله بأحقيته أو أحد أفراد أسرته المؤهلين في إدارة دولتهم الإخشيدية بدلاً من أن يديرها كافور، وصيًّا على عرش ذلك الأمير الصغير "أنوجور" الفرغاني الإخشيدي، ومن هذا المنطلق فربما كانت ميوله ومواقفه متفقة مع توجُّه فاتك المجنون الذي كان على خلاف بيِّن مع كافور للسبب نفسه؛ ولهذا انتقل إلى الصعيد مغاضبًا وترك الفسطاط.

٢- كيف يستطيع أبو الطيب كسر ذلك الحصار الأمني عليه، ويخترق كل تلك العيون المراقبة له لولا عون أبي بكر الفرغاني له يوم سفره؟ وهذا بطبيعة الحال مدعوم بما لذلك الفرغاني من مكانة هامة في بلاط كافور ومع رجاله وكبار عيونه.

٣- يلزمنا أن نضع في الاعتبار ميول المتنبي مع الإخشيديين:

فابن طغج الإخشيدي في الرملة هو من حمل له الهدايا والخلع، وفاتك الإخشيدي هو من كان الصديق الوفي له في مصر، ولذا نجد أجمل مدحة له في مصر كانت في فاتك[1]:

لا خيلَ عندكَ تهديها ولا مالُ فليسعد النطق إن لم يسعد الحالُ

(١) ديوانه ٥٠٢.

ثم انضم إليهما أبو بكر الفرغاني، فكان الثلاثة يجمعهم هدفٌ واحدٌ معروف: الولاء للحكم الإخشيدي في مصر، حصيلته موقف معادٍ لكافور.

لقد توفي فاتك المجنون فأثار موته –وما سببه من عزلة أبي الطيب– عاطفة الفرغاني ليقف بجانبه ويخلصه من سجنه الكبير بعد أن ضاقت به الأرض بما رحبت إن لم يكن ودًّا له فانتقامًا من كافور.

وقد فعل فيما أظن.

وهكذا خرج المتنبي من مصر بعونٍ داخليٍّ من الفرغاني وخارجيٍّ من الخزاعي سعيدًا غيرَ آسفٍ على الفراق.

ثَبَتُ المصادر والمراجع

- ابن الأثير الجزري، المبارك بن محمد (ت ٦٠٦هـ)، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، من منشورات مكتبة الحلواني.
- الأصفهاني، أبو القاسم، عبدالله بن عبدالرحمن (ت ٣٨٠هـ)، الواضح في مشكلات شعر المتنبي، تحقيق: محمد الطاهر ابن عاشور، من منشورات الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٦م.
- البديعي، يوسف (ت ١٠٧٣هـ)، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، من منشورات دار المعارف، مصر.
- الترمذي، محمد بن عيسى (ت ٢٧٩هـ)، الجامع الكبير، تحقيق: بشار عواد معروف، من منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.
- ابن خلكان، أبو العباس، أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، من منشورات دار صادر، بيروت.
- الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل القرآن، من منشورات دار مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- عزام، عبدالوهاب (ت ١٩٥٩م)، ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، من منشورات مطبعة الجزيرة، بغداد، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.
- القرطبي، أبو عبدالله، محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، من منشورات دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي محمد السلامة، من منشورات دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- المانع، عبدالعزيز بن ناصر، على خطى المتنبي، من منشورات كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٧م.
- المتنبي، أبو الطيب، أحمد بن الحسين (ت ٣٥٤هـ)، ديوانه، جمع وتصحيح:

عبدالوهاب عزام، من منشورات مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م.

- المقريزي، تقي الدين، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)، المقفى الكبير، من منشورات دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١م.
- ابن هشام، عبد الملك بن هشام الحميري المعافري (ت ٢١٣هـ)، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، من منشورات مطبعة البابي الحلبي، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.
- الواحدي، أبو الحسن، علي بن أحمد (ت ٤٦٨هـ)، التفسير البسيط، تحقيق: مجموعة من الأساتذة، من منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ١٤٣٠هـ.
- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، من منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

التراث الممتوح في شعر سعد مصلوح
قصيدة (سبعون) أنموذجًا

❖ أ. د. أبوأوس إبراهيم الشمسان

إن أكثر ما يروعك وأنت تقرأ نتاج علامة العربية الأستاذ الدكتور سعد عبدالعزيز مصلوح امتلاكه ناصية اللغة، وحضور التراث فيها، ما روي منه أو ما تتيحه أنظمة اللغة من اشتقاقات لم يسبق إليها، وتراه يحيي من الألفاظ ما أماته المعاصرون إما لجهلهم إياه وإما لاكتفائهم بأقله، حتى ترى أن ما يستعملونه من ألفاظ اللغة أقلها، يتداولون عددًا ضئيلًا إلى جنب معجم زاخر بالألفاظ المعبرة الموحية، واختفت المعبرات عن الفروق الدقيقة الموحية بجوانب من البيان لا يكون إلا بها، تقرأ لسعد مصلوح فتجد رجلًا زويت له معرفة المعاصرين في أعلى درجاتها ولغة القدماء ببيانها وجزالة ألفاظها، تجد بعض القصائد أو بعض بيوتها كأنّ مبدعها العجاج أو رؤبة، فلست تدرك المعاني من غير مؤونة ولا تجد ذلك على طرف الثمام.

خير مثال لامتياح التراث في لغة أستاذنا ديوانه (خطوات على الأعراف) وهو عنوان قصيدة من أهم قصائد الديوان، وكما هو ظاهر في هذا العنوان تبرز كلمة (الأعراف) وهي كلمة وردت في القرآن الكريم في آيتين من سورة الأعراف: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾الأعراف: ٤٦]، ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ الأعراف: ٤٨]، والأعراف جمع عُرف، قال ابن سيده

"وعُرْفُ الرمل والجبل وكل عَالٍ: ظَهره وأعاليه وَالْجمع أعراف وعِرَفَةٌ ... قَالَ الزّجاج: الْأَعْرَاف أعالي السُّور"[1] ومن هذا الموقع أدرك حقيقة الحياة:

تِلْـكَ الحَيَـاةُ؛ سُـرُورُهَا خُلَـسٌ تَمْضِـي، وَجَـزْلُ عَطَائِهَـا نُتَـفُ
كَـمْ ذَا أَسِـفْتَ، وَكَـمْ نَـدِمْتَ لَهَـا الآنَ لا نَـدَمٌ وَلَا أَسَـفُ
فَلَقَـدْ عَرَفْـتَ قَـدِيْمَ عَادَتِهَـا وَجَهِلْتَ أَنَّى تُؤْكَلُ الكَتِفُ

يتألف هذا الديوان من ثلاث مجموعات الأولى الديوان والثانية أشعار للأطفال والثالثة ضمائم الديوان، معارضات ومساجلات. صدر الديوان في ٢٢٠ صفحة من القطع الصغير عن دار البشير للثقافة والعلوم في مصر عام ١٤٣٨ه الموافقه ٢٠١٧م.

أول قصائد الديوان (سبعون) قصيدة يؤثرها أستاذنا كما قال لي وتشرفت بسماعها منه، مطلعها:

سَـبْعُونَ مَـرَّتْ، وَعُمْـرٌ مِـنَ اللُّهَـاثِ تَقَضَّـى

ويصادف القارئ في البيت الثاني اللفظ (جهامًا)، قال:

سَـبْعُونَ مَـرَّتْ، جَهَامًـا يَـذْرَعْنَ أُفْقَـكَ رَكْضًـا

و"الْجَهَامُ: السَّحَابُ الَّذِي أَرَاقَ مَاءَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ خَيْرَهُ يَقِلُّ فَلَا يُسْتَشْرَفُ لَهُ"[2]، و"الرِّيحُ يحفِلُ السَّحابَ الْخَفِيف من الْجَهام، أَي تَسْتَخفُّه فَتَمْضي بِهِ"[3]، هكذا رأى الشاعر سنوات عمره السبعين ركضت أفقه ومرّت مرّ السحاب الخفيف الذي تلوي به الريح فكأنها ركضت ركضًا، وهو ركض سحب يذكرنا بما قال إيليا أبو ماضي:

(١) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ٢: ١١٢.

(٢) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ١: ٤٩٠.

(٣) الأزهري، تهذيب اللغة، ١١: ٦٢.

السحـــب تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين[1]

وأمّا (صلِيبًا) في البيت الثالث فليست كما يبدهك معناها المتداول الذي هو رمز من رموز المسيحية ؛ بل هي لفظ تراثي يزرعه مصلوح في قصيدته لينشر بعد فوت، قال:

أَحْنَـــــتْ صَـــــلِيبًا، وَأَدْوَتْ مَـــا كَـــانَ بِـالْأَمْسِ غَضَّـــا

والحق أن كلمات هذا البيت كلها منتزعة من التراث لا تكاد تجدها في لغة الناس اليوم، فكلمة (أحنت) بالهمزة ليست من الشائع في لغة القدماء فحنى يتعدى مجردًا، وكأن في زيادة هذه الهمزة مزيد فعْلٍ، على أن صاحب متن اللغة أثبتها، قال "أحنى القوس: حناها"[2]. وأما (الصليب) فصفة مشبهة باسم الفاعل مثل (صُلْب)، وهو أيضًا بمعنى مفعول مثل (مصلوب) وهو بهذا مشترك لفظي، قال الزمخشري "شَيْءٌ صُلْبٌ وَصَلِيبٌ وَصُلَّبٌ، وَقَدْ صَلُبَ صَلَابَةً ... وَصُلِبَ اللِّصُّ، وَهُوَ مَصْلُوبٌ وَصَلِيبٌ"[3]، والمعنى الذي استعمله أستاذنا هو الصَّليب بمعنى الصُّلْب. وليست (أذوى) من لغة المحدثين، ولكن المعجم حفظها لنا وأستاذنا يعيد زراعتها في شعره، "أَذْوى الحَرُّ البقلَ، فَذَوى"[4]. و"ذَوَى يَذوي ذَيًّا، وهو أن لا يُصيبَ النباتَ والحشيشَ رِيُّه، أو يضربُه الحَرُّ فيذبُلُ ويضعُفُ"[5].

ونجد في البيت السابع ثلاثة ألفاظ غريبات، قال:

وَجَلَّحَـــــتْ بِـــــدَعِيٍّ يَفْـــرِي الحُشَاشَـــةَ بُغْضًـــا

(١) إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي، ٧٦٤.

(٢) أحمد رضا، معجم متن اللغة، ٢: ١٨٥.

(٣) الزمخشري، أساس البلاغة، ١: ٥٥٣.

(٤) الفارابي، معجم ديوان الأدب، ٤: ١٠٩.

(٥) الخليل، العين، ٨: ٢٠٦.

قال ابن دريد "وَجَلَّحَ الذِّئْبُ يُجَلِّحُ تَجْلِيحًا إِذا أَقْدَمَ وَصَمَّمَ وَلَمْ يَرْجِعْ. وَكُلُّ مُقْدِمٍ على شَيْءٍ فَقَدْ جَلَّحَ عَلَيْهِ فَهُوَ مُجَلِّحٌ"[1]. والباء للتعدية كهمزة النقل كما في (ذهب به) و(أذهبه)، فهي أقدمت الدعيّ الذي من شأنه أنه مبغض شانئ يفري أو يبقر أو يبعج، كل ذلك معبّر عن الشقّ المؤلم للحُشاشة، "والحُشاشةُ: روحُ القلب. والحُشاشةُ: رَمَقٌ بَقيَّة من حياة النفس"[2]. ومن تجري على لسانه أو يخط قلمة (الحشاشة)، ويقفز إلى الذهن مع جملة هذه الأفعال نصّ الجاحظ عن بشّار بن برد الذي هجى واصلًا: "قال واصل بن عطاء عند ذلك: "أَمَا لِهَذَا الْأَعْمَى الـمُلْحِدِ الـمُشَنَّفِ الـمُكَنّى بِأَبي مُعاذٍ مَن يقْتُلُه. أَما وَاللهِ لَوْلا أَنَّ الغِيلَةَ سَجِيَّةً مِن سَجايا الغالِيَة، لَبَعَثْتُ إِلَيْهِ مَن يَبْعَجُ بَطْنَهُ عَلى مَضْجَعِهِ ... إلخ."[3]. والجاحظ أورد النص مثالًا للبليغ يتجنب لثغته من غير تكلف، فواصل استعمل (يبعج) ليتجنب (يبقر) أو (يفري).

وأعقب هذا ببيت قال فيه:

وَقَرَّطَـــــــتْ بِالْعَطَايـــــــا فَحَـــــالَ فَيْضُـــــكَ غَيْضَـــــا

ومن المفارقة العجيبة أن يكون الفعل (قرّط) من مهملات لغة المعاصرين الفصيحة؛ ولكنه على ألسنة العامة، وأستاذنا يعيده إلى سياقه الفصيح، ويعبر به عامة جزيرة العرب عن شدّة إطباق الأسنان على الشيء، يقولون: قَرَّطَ عليه، ومجازًا عن شدّة البخل، وهذا ما متحه الأستاذ من التراث، قال ابن سيده: "وَقَرَطَ الكُرّاثَ، وَقَرّطَهُ: قَطَّعَهُ فِي الْقِدْرِ... وَقَرَّطَ عَلَيْهِ: أعطَاهُ عَطاء قَلِيلا"[4]. وكان من شأن هذا البخل بالتقريط أن صير الفيض غيضًا، وهما لفظان من مثل

(١) ابن دريد، جمهرة اللغة، ١: ٤٤٠.

(٢) الخليل، العين، ٣: ١١.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ١: ١٦.

(٤) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ٦: ٢٦٨.

تراثي سائر لا تجدهما في لغة المحدثين إن وجدتهما إلا في إسار هذا المثل، قال الميداني "غَيْضٌ مِنْ فَيْضٍ: أي قليل من كثير. الغيض: النقصان، والفيض: الزيادة، يُقَال: غاضَ يغِيْضُ غَيْضًا، ومثله فاضَ"[1]. واستعمال أستاذنا الفعل (حال) فعلًا ناسخًا غير مسبوق إليه، ومعنى الفعل يسوّغ هذا الاستعمال، إذ "حَال الشَّيْءُ حَوْلًا وحُؤُولًا، وتَحَوَّلَ تَغَيّرَ، والحائلُ الْمُتَغَيّرُ اللَّوْنِ"[2].

وقال بعده:

وَأَنْهَـــــرَتْ مِـــــنْ جِـــــراحٍ خَـــــزَّتْ وَتِيْنَـــــكَ نَفْضَـــــا

لا نكاد نسمع أو نقرأ في لغة المحدثين عن الفعل (أنهر) إلّا في خطبة عيد الأضحى التي تصف ذبح الأُضحيّة ذبحًا شرعيًّا وهو نصّ تراثي يتردد ولا يستعمل في لهجة أو لغة فصيحة حديثة؛ ولكن أستاذنا يحييه هنا، جاء في المصباح "وَنَهَرَ الدَّمُ يَنْهَرُ بِفَتْحَتَيْنِ سَالَ بِقُوَّةٍ وَيَتَعَدَّى بِالْهَمْزَةِ فَيُقَالُ أَنْهَرْتُهُ وَفِي الْحَدِيثِ أَنْهِرْ الدَّمَ بِمَا شِئْتَ إلَّا مَا كَانَ مِنْ سِنٍّ أَوْ ظُفْرٍ"[3]. ومثله الفعل (خزّ)، جاء في أساس البلاغة "وخززته بسهم واختزرته: أصبته وأنفذته، وطعنته فاختزرته"[4].

وأما (الوتين) فلا نكاد نصادفه إلّا في تلاوة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ الحاقة: ٤٦]، و"الوَتين نِياط الْقلب، وَإِذا انْقَطع الوتينُ لم يكن بعده حَيَاة. وَقَالَ أَبُو زيد: الوَتِينُ عِرْقٌ يَسْتَبْطِنُ الصُّلْبَ يجتمعُ إِلَيْهِ البطنُ أجمع، وَإِلَيْهِ تَضْرِبُ العُرُوق"[5]، و(النفض) الهزّ والتحريك الذي قد يبعثر محتوى، ويطلق العامة في الجزيرة لفظ (النفيض) على السحاب الخفيف الذي نفض أي فقد كثيرًا من مائه،

(١) الميداني، مجمع الأمثال، ٢: ٦٠.

(٢) ابن سيده، المخصص، ٣: ٣٠١.

(٣) الفيومي، المصباح المنير، ٢: ٦٢٧.

(٤) الزمخشري، أساس البلاغة، ١: ٢٤٣.

(٥) الأزهري، تهذيب اللغة، ١٤: ٢٣١.

فهو يمر سريعًا ولا يتحرى أن يمطر، والمعنى أن هذه السنين خزّت الوتين فأنهرت منه الدم حتى نفضته أي أفرغته.

وقال في البيت العاشر:

وَسَـــــــاوَرَتْكَ ضِـــــــئَالٌ نَهْسًـــا، وَنَهْشًـــا، وَعَضّـــا

وقد يرد على الذهن حديث عمر بن الخطاب الذي جاء فيه (فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلاَةِ)[1]. على أن بيت النابغة هو المعين:

فَبِـتُّ كَـأَنِّي سَـاوَرَتْنِي ضَـئِيلَةٌ مِـنَ الـرُّقْشِ فِـي أَنْيَابِهَـا السُّـمُّ نـاقِعُ[2]

جاء في (العين): "والضَّئيلةُ: حَيَّةٌ كأَنَّها أَفْعَى"[3]، ونجد بعد ما قد تهمله لغة المعاصرين من عناية بالفروق الدقيقة بين الألفاظ المتقاربة المعاني، فهو يذكر (النهس، والنهش، والعضّ)، جاء في التهذيب "قَالَ اللَّيْث: النَّهْش: دون النَّهْس: وَهُوَ تناولٌ بالفَمِ إِلَّا أَن النَّهْسَ تناولٌ من بَعِيد كنَهْش الحيّة والنَّهْشُ: القَبْضُ على اللَّحْم ونَتْفُه. أَبُو عبيد عَن الْأَصْمَعِي: نهشَتْه الحيَّةُ ونَهَسَتْه إِذا عَضّته"[4].

وقال في البيت الثاني عشر:

وَلَا تُعَـــــــالِجُ حَزْنًـــــــا حَتَّـــــى تُـــــزَالِجَ دَحْضَـــــا

وارتبطت المعالجة في عصرنا في أكثر استعمالاتها بالأدواء والأمراض أو بمعنى مجازي للدلالة على الإجراء؛ ولكنها في التراث كما يستدعيها أستاذنا في هذا البيت لها دلالة حقيقية حسيّة، قال ابن سيده "وأصل المعالجة والعِلاج المِراس

(١) البخاري، الجامع الصحيح، ٦: ١٨٥.

(٢) النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، ص٣٣.

(٣) الخليل، العين، ٧: ٥٧.

(٤) الأزهري، تهذيب اللغة، ٦: ٥٤.

والدِفاع"[1]. ومعالجة الحَزْن مكابدة صعوده، والحَزْن والحَزْم من الألفاظ التي لا تكاد تقع عليها في لغة المحدثين، قال ابن دريد "الحَزْنُ: الغِلَظُ منَ الأَرْض مثل الحَزْم سَوَاء"[2]. وأما الفعل (تُزالج) فمضارع (زالج) وهو من استثماره ما تتيحه اللغة من إمكانات التصريف، لا تجد الفعل (زلج) بمعنى (زلق) مزيدًا بالألف للدلالة على المشاركة في المعجم؛ ولكنَّك تجده في استعماله هنا، وهذا من إثرائه اللغة، و"الدَّحْضُ: الزَلَقُ، يقال: مَزْلَقَةٌ مِدحاضٌ. والدَّحْضُ: الماءُ الذي تكون منه المزْلَقَةُ"[3]. والشاعر يبين معاناته في حياته بين مكابدة صعود مرهق ومقاومة دحض مزلق، فهو يُزالج الدحض أي يقاومه ويدافعه، صورتان متناقضتان معنًى مشتركتان في الإرهاق.

وقال في البيت الثالث عشر:

يَـــا وَاهِـــنَ الْخَطْـــوِ! هَوْنًـــا أَيْنًـــا تَخُـــوضُ وَرَحْضَـــا

وفي هذا البيت التفاتة إلى النفس بعد أن بيّن رهقها صعودًا وانزلاقًا فوهْن خطوه أن يعتمد الهون؛ لأنه بلغ منه الأمر أن صار التعب والعرق كلجة؛ إذ يخوض أيْنًا وهو شدة التعب والنصب، ورحضًا أي عرقًا، قال ابن سيده "ورُحِضَ الرجل رَحْضًا، عرق حَتَّى كَأَنَّهُ غسل جسده"[4].

وقال في البيت الرابع عشر:

رَاوَدتَّ أَيْسًـــا ولَيْسًـــا وَجُبْـــتَ طُـــولًا وَعَرْضَـــا

(١) ابن سيده، المخصص، ٣: ٣٥١.

(٢) ابن دريد، جمهرة اللغة، ١: ٥٢٩.

(٣) الخليل، العين، ٣: ١٠١.

(٤) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ٣: ١٢٦.

ويقفز إلى الذهن استعمال القرآن للفعل (راود)، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣]، وهي مراودة للأيس والليس أي للممكن وغير الممكن أو الموجود وغير الموجود، وفي هذا البيت تستحيي مماتًا، إذ لا تكاد تجد الأيس والليس في استعمال القدماء بله المحدثين، قال أحمد بن فارس "الْهَمْزَةُ وَالْيَاءُ وَالسِّينُ لَيْسَ أَصْلًا يُقَاسُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِ فِيهِ إِلَّا كَلِمَتَانِ مَا أحسبُهُمَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُمَا لِذِكْرِ الْخَلِيلِ إِيَّاهُمَا. قَالَ الْخَلِيلُ: أَيْسَ كَلِمَةٌ قَدْ أُمِيتَتْ، غَيْرَ أَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ: (ائْتِ بِهِ مِنْ حَيْثُ أَيْسَ وَلَيْسَ) لَمْ يُسْتَعْمَلْ أَيْسَ إِلَّا فِي هَذِهِ فَقَطْ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهَا كَمَعْنَى [حَيْثُ] هُوَ فِي حَالِ الْكَيْنُونَةِ وَالْوُجْدِ وَالْوِجدَةِ. وَقَالَ: إِنَّ " لَيْسَ " مَعْنَاهَا لَا أَيْسَ، أَيْ: لَا وُجْدَ. وَالْكَلِمَةُ الْأُخْرَى قَوْلُ الْخَلِيلِ إِنَّ التَّأْييسَ الِاسْتِقْلَالُ؛ يُقَالُ: مَا أَيَّسْنَا فُلَانًا، أَيْ: مَا اسْتَقْلَلْنَا مِنْهُ خَيْرًا"[1].

وقال في البيت السادس عشر:

أَهْزَلْـــــتَ ظَهْـــــرَكَ مِمَّـــــا تَـــــأْلُوهُ حَثًّـــــا وَحَضًّـــــا

ومعنى (أهزله) أي أذهب شحمه ولحمه من التعب والسفر، ويكنّى بالظهر عن الدوابّ، وبهذا استعمله في هذا البيت، قال الخليل "والظَّهْرُ: الرِّكاب تَحْمِل الأثقالَ في السَّفَر"[2]. وهذا معنى الظهر الوارد في الحديث "وَفِيهِ «فَإِنَّ الـمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى» يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا انْقُطِع بِهِ فِي سَفَرِهِ وعَطِبتْ راحلتُه: قَدِ انْبَتَّ، مِنَ البَتِّ: القَطْع"[3]. وأما (يألوه) أي يستطيعه ويطيقه فلا تجده في لغة المحدثين، وهو من النادر في القديم، و(الحثّ) و(الحضّ) بينهما

(١) أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ١: ١٦٤.

(٢) الخليل، العين، ٤: ٣٧.

(٣) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ١: ٩٢.

خصوص وعموم وإن كانا بمعنًى، قال ابن سيده "الحَضُّ: ضَربٌ من الحَثّ فِي السَّيْرِ والسَّوْقِ، وكلِّ شيءٍ. والحَضُّ أَيْضا: أنْ تَحُثَّهُ على شيءٍ لَا سَيْرَ فِيهِ وَلَا سَوْقَ"[1].

وزاد من أسباب إهزال الركاب ما يستطيعه من تقلب ألوان الشراب من عذب وملح ومن تلون الطعام من رطب وحمض، قال في البيت السابع عشر:

والشِّـــرْبَ، عَـــذْبًا وَمِلْحًـــا وَالـــزَّادَ؛ رَطْبًـــا وَحَمْضَـــا

"وَ(الشِّرْبُ) بِالْكَسْرِ الْحَظُّ مِنَ الْمَاءِ"[2]. وبهذا جاء التنزيل، قال تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الشعراء: ١٥٥]، ولست تجد هذا الاستعمال اليوم.

وقال في البيت التاسع عشر:

كَـــرُّ العَشِـــيَّاتِ أَنْضَـــى طِرْفًـــا، وَطَرْفًـــا أَقَضَّـــا

ومن ذا يستعمل اليوم (كرّ) أو (العشيّات)، أو (أنضى) بمعنى أهزل، و"(الطِّرْفُ) بِالْكَسْرِ الْكَرِيمُ مِنَ الْخَيْلِ"[3]. وتراه استعمل الجناس بين (الطِّرف) و(الطَّرف) وإن كان القضّ إنما يكون للمضجع أو الفراش؛ ولكنا نجد استعمالًا جديدًا؛ إذ يستعير الطرف الذي لا يعرف الغمض لكر العشيات، فكأنه يقُضّ كما يقضّ المضجع، فقضّ المضجع مجيء إلى فتح الطرف، فهو محروم من الغض أو الإغماض، وهذا قضّ له.

وقال في البيت الثاني والعشرين:

وَالعُمْـــرُ وَهْـــيُ جِـــدَارٍ يُرِيْـــدُ أَن يّنَقَضَّـــا

(١) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ٢: ٤٩٠.

(٢) الرازي، مختار الصحاح، ص ١٦٣.

(٣) الرازي، مختار الصحاح، ص ١٨٩.

وفي هذا البيت نرى العمر الذي تقضى كالجدار الذي أتى عليه الدهر، ويستدعي الشاعر في وصف الجدار الواهي التعبير القرآني، قال تعالى ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ [الكهف: ٧٧].

وقال في البيت الخامس والعشرين:

وَقَدْكَ أَنَّ العَوَادِيَ مَا دَنَّسَتْ لَكَ عِرْضَا

يعزي الشاعر نفسه بهذا البيت وأبيات سبقت بأنّ ما أصابه على شدته وقسوته لم ينل من شرفه، ولا تجد اليوم من يستعمل (قدْك) ولكنّا نراه يحييها في هذا البيت، قال ابن يعيش "وكذلك (قَدْكَ)، و(قَطْكَ) كلّه بمعنَى (حسبُ). وقولهم: (حسبُك ينمِ الناسُ) كأنّ إنسانًا قد كان يُكْثِر الكلام ليلًا، ويَصيح بحيث يُقْلِق من يسمعه، فقيل له ذلك، أي: اكتفِ واقطعْ من هذا الحديث، فإن تفعلْ ينمِ الناس، ولا يَسْهَروا"[1]. وحرَص الشاعر على كسر فاء (العِرض) لخبرته خلط الناس في هذه الكلمة المثلثة (عِرْض وعَرْض، وعُرْض) فيعمّمون ما فتحت الفاء منه، وهذا خطأ شائع، والعِرْض بالكسر من دلالاته ما يراد به الآباء والأجداد وما يفتخر به الإنسان من حسب وشرف، ومن دلالات العَرْض بالفتح خلاف الطول ومصدر عَرَض، ومن دلالات العُرض بالضم الناحية[2].

وقال في البيت السادس والعشرين:

مَن رَّامَ خَفْضًا لِعَيْشٍ بِذِلَّةٍ سِيمَ خَفْضَا

وخفض العيش استعمال تراثي لا تجده مستعملًا في لغة المحدثين، وهو سَعَتُه ورَغَدُه[3]، ونجد الشاعر ينزع إلى الجناس مرة أخرى حتى يغير ما عرف في

(١) ابن يعيش، شرح المفصل، ٤: ٢٧٦.

(٢) يُنظر: ابن السيد البطليوسي، المثلث، ص٢٧٧.

(٣) مرتضى الزَّبيدي، تاج العروس، ١٨: ٣١٨.

التراث؛ فسيم الخسف يستبدل بها سيم الخفض؛ لأن الخفض الملتبس بالذلة في حقيقته خسف لا خفض، وبهذا يخلق لنا مركبًا جديدًا هو سيم الخفض، فالعيش بذلة هو خسف للعيش. و(سِيم) نفسه ليس من استعمالات المحدثين اليوم. قال ابن الأثير "وَفِي حَدِيثِ عَلِيٍّ «مَنْ تَرَكَ الجِهاد أَلْبَسَه اللهُ الذَّلَّة وسِيمَ الْخَسْفَ» الْخَسْفُ: النُّقْصَانُ والهَوانُ. وَأَصْلُهُ أَنْ تُحْبَس الدَّابَّةُ عَلَى غَيْرِ عَلَفٍ، ثُمَّ استُعِير فوُضِع مَوْضِعَ الهَوَان. وسِيمَ: كُلِّفَ وأُلْزم"[1].

وقال في البيت السابع والعشرين:

لَا تَسْـــــــتَطِيلَنَّ عَهْـــــــدًا فَـــــالنَّظْمُ قَـــــارَبَ فَضَّـــــا

وفيه دعوة لاستثمار ما بقي من العمر وهو قليل وأيامه كحبات منظومة يوشك خيطها أن ينبت فتتفرق، ونجد (الفضّ) وهو معنى قديم، وفي البيت طباق بين النظم والفضّ، قال الزمخشري "وخرز فض: منتشر. قال ذو الرمة:

كـــأن أدمانهـــا والشـــمس جانحـــة ودعٌ بأرجائهـــا فـــضّ ومنظـــوم"[2]

وقال في البيت الثامن والعشرين:

وَانْشُـــــرْ شِـــــرَعَكَ وَانْقُـــــضْ غَـــــزْلَ المَعَـــــابِثِ نَقْضَـــــا

وهذا النقض مستفاد من قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ [النحل: ٩٢]، وأما (المعابث) فلا تجدها في لغة القدماء ولا المتأخرين إلا نادرًا[3]، نادرًا[3]، ولكنها مما يتيحه نظام التصريف العربي، فمن العبث يمكن صياغة المصدر الميمي معبث واسم المرة معبثة وجمعها معابث.

---

(١) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢: ٣١.

(٢) الزمخشري، أساس البلاغة، ٢: ٢٦.

(٣) ينظر: الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ١٦: ١٧٠٨، أبو زهرة، زهرة التفاسير، ١: ٣٠، ٤: ١٩٩٤، ٥: ٢٢٤٩، ٢٤٧٧.

وفي البيت التاسع والعشرين يستعمل (الوَدادة)، قال:

وَدَعْ عِتَـــــــابَ خَلِيـــــــلٍ عَـــــنِ الـــــوَدَادَةِ أَغْضَـــــى

"والوَدادة، والوِدادة بالكسر والفتح أيضًا وأنشد:

ودِدتُّ وَدَادَةً لَـــــوْ أنَّ حَظِّـــــي مِـــــنَ الخُـلَّان أن لّا تَصْـــــرِمِيني"[1]

ولست تجد هذا الاستعمال في لغة المحدثين.

وقال في البيت العشرين عن هذا الذي أغضى عن الودادة:

مَرْحَبْتَـــــــــهُ فَتَـــــــــأَبَّى وَأَنْغَـــــضَ الـــــرَّأْسَ نَغْضَـــــا

ولا نجد في التراث الفعل (مَرْحَبَ)، غير أن المعجم الوسيط أثبته ولا أعلم مصدره في ذلك "مَرْحَبَ فلَانًا قَالَ لَهُ مرْحَبًا أتيت سَعَة، وَيُقَال مرحبَه اللهُ أنزلهُ فِي سَعَة"[2]. وأما الإنغاض فمستفاد من استعمال القرآن، قال تعالى: ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾ [الإسراء: ٥١]، وتجده استعمل المصدر (نغضًا) لتأكيد الفعل المزيد (أنغض) والقياس (إنغاضًا)؛ ولكن صنيعه طريقة عربية صحيحة متبعة، ومثاله من القرآن قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ [نوح: ١٧]، فلم يقل إنباتًا.

وقال في البيت الحادي والعشرين:

وَرِدْ ظَمِيئًـــــــا فَتَـــــــرْوَى مِـــــنْ كَـــــوْثَرِ العِشْـــــقِ حَوْضَـــــا

وأكثر ما يستعمل الماضي (ورد) والمضارع (يرد)؛ ولكنه يستعمل أيضًا الأمر منه (ردْ)، والوصف الشائع من الظمأ هو (ظمآن)، وهو يأتي بالوصف على بناء (فَعِيل) للمبالغة، ولعله استمده من "فَأَرْوَى الظَّمِيئَةَ وَضَرَبَ النَّاسُ

(١) اللَّبْلِيُّ، تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح، ص ١٩٩.

(٢) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ٢: ٨٦١.

بِعَطَنٍ"[1]. وأما (كوثر) فجاء في القرآن الكريم، قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ [الكوثر: ١]، "وَقد روى ابْن عمر وَأنس بن مَالك عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أَنه قَالَ: (الكَوْثرُ: نهرٌ فِي الجنةِ أَشدُّ بَيَاضًا من اللبَن وأَحْلَى من العسلِ على حافتيْهِ قِبابُ الدُّرِّ المجوَّفِ) والكوثرُ فوعلٌ من الكثرةِ، ومعناهُ الخَيرُ الكثير"[2].

وقال في البيتين الثاني والعشرين والثالث والعشرين:

هَـــذَا العَـــرَارُ وَنَجْـــدٌ أَنْعِـــمْ بِنَجْـــدِكَ رَوْضَـــا
لَـــكَ الشَّمِيْمُ، وَلَـــكِنْ حُكْـــمُ الصَّرِيـــمَةِ أَمْضَـــى

وهو بهذا يستدعي البيت المشهور:

تمتّـع مـن شمـيم عـرار نجـد فَمَـا بعـد العشـية مـن عـرار[3]

وأما الصريمة فمن دلالاتها "الْأَرْضُ الْمَحْصُودُ زَرْعُهَا"[4]، ولكن ما يفهم من سياق البيت أن العرار وإن أمتع بعرفه سيتصوح ويصرمه ما يصرم النبات، وهذه أيام العمر كالعرار الفواح الذي يأتي عليه يوم فيُصرم، هو يستحيي لنا من دلالاتها ما جاء في مقاييس اللغة وهو الأمر الذي لا رادّ له فهو مبرم مقطوع مصروم؛ "لِأَنَّهُ يَصْرِمُهُ صَرِيمَةً وَيَعْزِمُهُ عَزِيمَةً. وَمِنْ هَذَا قَوْلُكَ: أَجِدَّكَ تَفْعَلُ كَذَا؟ أَيْ أَجَدًّا مِنْكَ، أَصَرِيمَةً مِنْكَ، أَعَزِيمَةً مِنْكَ"[5].

وقال في البيت الرابع والعشرين:

---

(1) البيهقي، معرفة السنن والآثار، ١: ١٩٥.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، ١٠: ١٠٢.

(3) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ١٢٤٠.

(4) أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ٣: ٣٤٥.

(5) أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ١: ٤٠٧.

آنَسْتَ فِي الطُّورِ نَارًا وَسَارِيَ البَرْقِ وَمْضَا

وبهذا تذكير برحيل موسى من مدين بأهله بعد انقضاء الأجل حين آنس من جانب الطور نارًا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، "والطُّور: جبل مَعْرُوف، قَالَ قوم: هُوَ اسْم لجبل بِعَيْنِه، وَقَالَ آخَرُونَ: بل كل جبل طُور بالسُّرْيَانيَّة كَذَلِك"[1].

وقال في البيت السادس والعشرين:

أَذِنْتُ حِينَ التَّنَادِي رَضَّا وُقِيتَ وَرَمْضَا

والإذن في لغة المحدثين السماح، ولكن من معانيها التراثية التي يجتلبها الشاعر الاستماع، قال الأزهري "يُقَال: أَذِنْتُ للشّيء آذَنُ لَهُ، إِذا اسْتَمَعْتَ لَه"[2]، وقد يكون العلم "يُقال: قد آذَنْتُه بِكَذَا وَكَذَا، أُوذِنه إِيذَانًا، إِذا أَعْلَمْته؛ وَقد أَذِنَ بِهِ يَأْذَن، إِذا عَلِم"[3]. وأما (التنادي) فيستدعي للذهن قوله تعالى ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر: ٣]، "«ويوم التنادي» معناه: يَوْمَ يُنَادِي قَومٌ قَوْمًا، ويناديهمُ الآخرُونَ"[4]. وفي الدعاء وردت كلمتا (رضّ) و(رمض)، و"الرَّضُّ دَقُّكَ الشيءَ"[5]. و"الرَّمَضُ: حَرُّ الحِجارة من شِدَّةِ حَرِّ الشمس"[6]. وأما المسموع من التنادي فجاء في قوله في البيت السابع والعشرين:

---

(١) ابن دريد، جمهرة اللغة، ٢: ٧٦١.

(٢) الأزهري، تهذيب اللغة، ١٥: ١٥.

(٣) الأزهري، تهذيب اللغة، ١٥: ١٥.

(٤) الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ٥: ١١٤.

(٥) الخليل، العين، ٧: ٨.

(٦) الخليل، العين، ٧: ٣٩.

أَسْـــلِمْ، وَسَـــالِمْ وسَـــلِّمْ وَاهْتِـــكْ حِجَابَـــكَ أَيْضَـــا

والفعل سلم يأتي بكل إمكانات زيادته بحرف استغراقًا لطلب السلامة بل اقتضى الأمر هتك الحجاب. ولكن الشاعر لا يستجيب لما سمع بل يحافظ على عهده، فيقول في البيت الثامن والعشرين:

فَيَـا قَـدِيـمَ عُـهُـودِي لَا أَنْقُضَـــنَّكِ عَوْضَـــا

وفي هذا البيت نجد (عوض) التي لا تكاد تجدها سوى في كتب النحو، جاء في (الكافية في علم النحو) "و(قط) للماضي المنفيّ، و(عوض) للمستقبل المنفيّ"[1]. قال الجوهري "وعَوْضُ معناه الأبدُ، يضم ويفتح بغير تنوين، وهو للمستقبل من الزمان، كما أنَّ قَطُّ للماضي من الزمان، لأنك تقول عَوْضُ لا أفارقك تريد لا أفارقك أبدًا، كما تقول في الماضي: قَطُّ ما فارقتك. ولا يجوز أن تقول عَوْضُ ما فارقتك كما لا يجوز أن تقول قط ما أفارقك"[2]. وأما فتح الضاد فهو أفصح، قال شيخ زاده "عَوْض بفتح أوّله، وقد يروى بالضمّ وتثليث آخره بالحركات الثلاث، لكن الفتح أفصح لأنّه في الأصل منصوب على الظرفية، فيبقى بعد ذهاب الإعراب على صورة ما كان عليه، وأمّا الكسر فَلِجَرْيِهِ على أصل التقاء الساكنين، ووجه الضمِّ أنّه محمول على (قبلُ). وهو ظرفٌ لاستغراق ما يستقبل من الزمان"[3].

وأما غيره فقال عنهم في البيت التاسع والعشرين:

وَيَـا كُـــؤُوسَ شُـهُـــودِي بُورِكْـــتِ مَحْضًـــا وَمَخْضَـــا

(١) ابن الحاجب، الكافية في علم النحو، ص ٣٧.

(٢) الجوهري، الصحاح، ٣: ١٠٩٣.

(٣) شيخ زاده، شرح قواعد الإعراب، ١: ٨٣.

و"الـمَحْضُ: اللَّبَنُ الخالصُ بلا رَغوة. وكلُّ شيءٍ خَلَصَ حتّى لا يشُوبُه شَيءٌ فهو مَحْضٌ"[1]. و"الـمَخِيضُ: ما قد أخذ زبده، والـمَخْضُ: تحريكك المِخْضَ"[2].

وفي البيت الثلاثين والحادي والثلاثين يبين أنه ترك كل المغريات المخلة بالمروءة المدنسة للعِرض فأمكنه أن يقول بكل وضوح وأن يكشف المستور بأن الوارد لها سيعطى الهبات فيرضى بها:

خَلَّـــــى، فَلَمَّـــــا تَجَلَّـــــى فَـــــضَّ الخِتَـــــامَ وَأَفْضَـــــى
يَا وَارِدًا! سَوْفَ تُعْطَى مِـــــنَ الْهِبَـــــاتِ فَتَرْضَـــــى

هكذا رأينا حضور التراث في هذه القصيدة الرائعة، والتراث حاضر في كل أعمال أستاذنا فهو قد زويت له على نحو مدهش ثقافة التراث ومعارف العصر فصدر عنهما من غير تدافع بل بانسجام معجز.

❖❖❖

المصادر والمراجع:

ابن الأثير؛ مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري:

النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي المكتبة العلمية - بيروت، ١٩٧٩م)

أحمد بن فارس؛ أحمد بن فارس أبو الحسين بن زكرياء القزويني الرازي:

معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

(١) الخليل، العين، ٣: ١١١.

(٢) الخليل، العين، ٤: ١٨٠.

الأزهري ؛ أبو منصور محمد بن أحمد بن الهروي :
تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.
البخاري ؛ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي :
الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
البطليوسي ؛ ابن السيد :
المثلث، تحقيق: صلاح مهدي الفرطوسي دار الرشيد- بغداد، ١٩٨١م)
البيهقي ؛ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني :
معرفة السنن والآثار، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي الطبعة: الأولى، جامعة الدراسات الإسلامية (كراتشي - باكستان)، دار قتيبة (دمشق - بيروت)، دار الوعي (حلب - دمشق)، دار الوفاء (المنصورة - القاهرة)، ١٩٩١م.
الثعالبي ؛ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف :
الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.
الجاحظ ؛ أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي :
البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.
الجوهري ؛ أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي :

الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٩٨٧م

ابن الحاجب؛ جمال الدين بن عثمان بن عمر بن أبي بكر المصري الإسنوي المالكي:

الكافية في علم النحو، تحقيق: الدكتور صالح عبد العظيم الشاعر، مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م.

الخطيب؛ عبد الكريم يونس:

التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي – القاهرة. الطبعة: الأولى، ١٩٧٠م.

الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري:

كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢م.

ابن دريد؛ أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي:

جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

الرازي؛ زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي:

مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٩م.

رضا؛ أحمد:

معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة – بيروت، ١٩٥٨م.- ١٩٦٠م.،

الزمخشري؛ أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد:

أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨م.

أبو زهرة؛ محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد:

زهرة التفاسير، دار الفكر العربي- القاهرة، ١٩٨٧م.

ابن سيده؛ أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي:

المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م.

ابن سيده؛ أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي،

المخصص، تحقيق: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦م.

شيخ زاده؛ محمد بن مصطفى القُوجَوي:

شرح قواعد الإعراب، دراسة وتحقيق: إسماعيل إسماعيل مروة، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية)، الطبعة: الأولى، ١٩٩٥م، ١: ٨٣.

الفارابي؛ أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين:

معجم ديوان الأدب، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م.

الفيومي؛ أبو العباس أحمد بن محمد بن علي:

المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية – بيروت.

اللَّبْلِيُّ؛ أَبُو جَعْفَر شهاب الدين أحْمَد بن يُوسُف بن على بن يُوسُف الفهرى المقرى اللغوى المالكى:

تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح، تحقيق: عبد الملك بن عيضة الثبيتي، رسالة دكتوراه، أم القرى- مكة المكرمة، ١٩٩٧م.

أبو ماضي؛ إيليا:

ديوان إيليا أبو ماضي، دار العودة- بيروت.

مرتضى الزَّبيدي؛ أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني:

تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار):

المعجم الوسيط، دار الدعوة.

المرزوقي؛ أبو على أحمد بن محمد بن الحسن:

شرح ديوان الحماسة، نشره: أحمد أمين، وعبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

الميداني؛ أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري:

مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، لبنان.

النابغة الذبياني:

ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر- القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

ابن يعيش؛ أبو البقاء موفق الدين يعيش بن علي:

شرح المفصل، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

الأستاذ الدكتور محمَّد بن عبدالرحمن الهَدْلَق
(ذكريات ومواقف)

❖أ. د. عبدالله بن أحمد الفَيفي

- أ -

لقد كان (**الأستاذ الدكتور محمَّد بن عبدالرحمن الهَدْلَق**)، رحمه الله –كما ذكرتُ في ملفٍّ احتفى به في (صحيفة "**الجزيرة**")[1]– أحد من أسهموا في تشكيلي المعرفيِّ والأكاديمي. وظلَّ كذلك إلى أن فُجعنا جميعًا بنبأ انتقاله إلى جوار ربِّه، يوم الأحد ٢٥ جمادى الآخِرة ١٤٤٥هـ.

تلقينا على يديه علوم العَرَبيَّة، البلاغيَّة والنقديَّة، في مراحل التعليم الجامعي. وكان عالمًا فذًّا، وإداريًّا محنَّكًا، رأسَ قسم اللُّغة العَرَبيَّة وآدابها، وعمادة كليَّة الآداب، وعمادة الدراسات العليا والبحث العِلمي، بجامعة الملك سعود، كما رأسَ مجلس أمناء (مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللُّغةالعَرَبيَّة)، في دورته الأُولى. وشرفتُ في السنوات الأخيرة بمشاركته –مقرِّرًا أو عضوًا– في مناقشة عدد من الرسائل العِليمَّة.

وممَّا زاد فاجعة رحيل أستاذنا وقعًا على النفوس أنَّه كان يَنعم بصحَّة جيِّدة، وظلَّ على تفاعلٍ مستمرٍّ مع أصدقائه ومحبِّيه عبر وسائل التواصل الاجتماعيَّة إلى وقتٍ قريبٍ جِدًّا من يوم وفاته. ولكن:

هِيَ الحياةُ ؛ فلا مُسْتَقْبَلٌ بِغَدٍ ... إلَّا سَيُدْبِرُ عَنَّا مِنْ مآتِيْهِ
والرُّوْحُ تَبْقَى وتَرْقَى والبِلَى قَدَرٌ ... فلا تُبَالِ بِجِسْمٍ لَسْتَ تُبْقِيْهِ
كُلُّ الأُلَى رَحَلُوا لم يَرْحَلُوا أَبدًا ... ما عاشَ بَرْقُهُمُ في الرُّوْحِ يُشْجِيْهِ![2]

جاءنا، طلَّابًا في (**جامعة الرياض**)، أيّام كانت الجامعة وكليَّة الآداب في (**حيِّ المَلَز**)، في ثمانينيَّات القرن الماضي الميلادي، ففزعنا من هذا العالم التراثي القادم علينا من (**الحجاز**)، بنظَّارته الصارمة، وعِلمه الواسع، ومتطلَّباته الغزيرة والجادَّة جِدًّا، التي تذكِّرنا بالسَّلَف الصالح من العلماء. فلمَّا أَنِسْنا به بعدئذٍ عرفنا ما وراء التراثيَّة والصَّرامة والجِدِّيَّة من إنسانٍ بالغ الدماثة والتواضع والمودَّة. غير أنَّه ذلك الرجل الذي لا تأخذه في الحقِّ لائمة ولا في العِلم مجاملة. وتلك أخلاق العلماء، حقًّا.

لقد كان أستاذي لنا مربِّيًا فاضلًا وأمينًا، إلى جانب شخصيَّته العِلميَّة المتفرِّدة بين كوكبة من الأساتيذ إذ ذاك. كان –من قِلَّةٍ– لا يُلقون دروسهم إلقاءً، ولا يجلسون مستريحينعلى كراسيِّهم في أثناء محاضراتهم، وإنَّما كانت محاضراته حلقات نقاشٍ وحِوار. لا يستنكف أن يناقشه طالبٌ، أو أن يعترض على ما قاله معترض. وكنتُ على مذهب (**أرسطو**)، وهو على مذهب (**أفلاطون**)، فقد قيل: إنَّ الأوَّل لَّما خالف أستاذه، سُئل: كيف خالفت الأستاذ؟ قال: الأستاذ صديقي، والحقُّ أيضًا صديقي، لكنَّ الحقَّ –كما يتبدَّى لي– أحبُّ إليَّ، وأحقُّ أن يُتَّبع![٣] وذاك خُلقٌ عِلميٌّ قلَّما تحلَّى به الطلبة والأساتذة. أذكر مرَّةً أنَّني اعترضتُ على ما ذَكَر في مسألةٍ تتعلَّق بـ(**أبي الطيِّب المتنبِّي**)، لا تحضرني الساعةَ، ففوجئتُ به في مستهلِّ المحاضرة التالية يُحضر إليَّ"**ديوان أبي الطيِّب**"ويطلب إليَّ القراءة؛ لأقف وزملائي على حقيقة ما وَقَع حوله الجدال. وكنتُ قد نسيتُ تلك المسألة العابرة، غير أنَّه لم ينسها، وقد أراد بذلك أن نتعلَّم البحث والتثبُّت.

ثمَّ كادت تعصف بي اتجاهات السُّبل بعد تعييني معيدًا في قسم اللُّغة العَرَبيَّة وآدابها، إذ رُشِّحتُ لبعثةٍ إلى (**فرنسا**)، في مجال الترجمة الفوريَّة. وكنتُ،

برؤية الفتى الغِرِّ المتحمِّس، قليل المعرفة والخبرة، المتطلِّع إلى الدراسة في الخارج، وبأيِّ ثمن، قد فرحتُ بذلك الترشيح أيَّما فرح، وذهبتُ أحتثُّ نحو هذا الهدف الخطوات، خلال رئاسة (**الأستاذ الدكتور محمَّد بن سليمان السديس**، رحمه الله) للقسم. لأُفاجأ بأستاذنا (**الهَدْلَق**) –وقد أصبح إذ ذاك رئيس القسم– يتَّصل بي هاتفيًّا، وأنا في (**مدينة عَرْعَر**)، ليسألني:

- أهذا مبلغ طموحك؟!
- قلتُ: لا أدري، لكنَّها فرصة لتعلُّم الفرنسيَّة، واكتساب مهارة الترجمة الفوريَّة. ومن بعدها يمكنني أن أُكمل دراساتي العليا في الأدب والنقد.
- قال: أنصحك بالتركيز في مشروعك للدراسات العليا، ودَعْ عنك ما يمكن أن يغني عنك فيه غيرك... لا تضيّع وقتك في أمرٍ آخر!

وقد كان.. ولولاه لذهبتُ أدراج الترجمة الفوريَّة!

وكان (**الأستاذ الدكتور الهَدْلَق**)، بعد ذلك، أحد مناقشي أطروحتي للدكتوراه، حول "**الصُّورة البَصَريَّة في شِعر العُميان: دراسة نقديّة في الخيال والإبداع**"، بإشراف (**الأستاذ الدكتور عبدالرحمن عبدالرؤوف الخانجي**)، متَّعه الله بالصحة وطول العمر، وذلك بعضويَّة (**الأستاذ الدكتور حسين نصَّار**، رحمه الله)، مناقشًا خارجيًّا، صباح يوم السبت ٢٩ شعبان ١٤١٣هـ الموافق ٢١ فبراير ١٩٩٣م، بكليَّة الآداب، جامعة الملك سعود بالرِّياض. ولكَم أفادني، وأغاظني، واستفزَّني، وبلا هوادةٍ ولا رحمة! لأتفاجأ به بعد حملته الشعواء أوَّل المهنِّئين والمعانقين.

الجانب الذي قد لا يعرفه كثيرون عن أستاذنا؛ ربما لأنه كان يتوارَى وراء جلباب العالِم الوقور، أنه كان شخصيَّةً اجتماعيَّة، غايةً في اللُّطف، وخفَّة الظلِّ، والتبحُّر في ضروب معرفيَّة وقراءات ثقافيَّة، يظنُّ الظانُّ أنها

بعيدة عن اهتماماته. هذا على الرغم من زهده في الأضواء بصورها كافَّة.

إنَّ الذكريات أكثر من أن يُكتَب عنها في هذا المقام؛ فهي رحلة عُمر، امتدَّت إلى ما يربو على أربعين سنة. سائلين الله أن يرحمه رحمةً واسعة، وأن ينفع بعِلمه الوارف، الذي ورَّثه أجيالًا من الطلبة، فضلًا عن مؤلَّفاته العِلميَّة وبحوثه الرصينة!

- ب-

وحفظًا لتراث أستاذنا كنتُ كتبتُ مراجعةً نقديَّةً، تحت عنوان "**عن أيِّ قِيَم نتحدَّث ؟! (حينما يصبح اللصُّ أستاذًا!)**"، نُشِرت في (صحيفة "**الجزيرة**"، الاثنين ٤ صفر ١٤٢٦هـ)[٤]، حول سرقةٍ عِلميَّةٍ تعرَّض لها بحثٌ كتبه، عنوانه "**النقد الأدبي في مقامات الحريري**"، منشورٌ في (مجلَّة البحث العِلمي والتراث الإسلامي– جامعة أُمِّ القُرَى، العدد الخامس، عام ١٤٠٢هـ، ص ص ٢٦١- ٢٨٠)، من أستاذٍ جامعيٍّ نشر بحثه نفسه بعنوان "**مقامات الحريري والنقد الأدبي**"، في (مجلَّة كليَّة البنات الإسلاميَّة، بأسيوط، جامعة الأزهر، العدد السادس، عام ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، ص ص ١٨٨- ٢١٨). (ومن البحثَين الصُّوَر المرفقة بما نشرناه، إلَّا أننا لو أردنا إظهار التطابق لوجب أن نصوِّر نسختي البحث كاملتين)[٥].

- ١ -

ومِمَّا جاء في تلك المراجعة:

في هذا المقال سأقف عن مواصلة حلقات الدراسة التي أنشرها هنا عن "**نقد القِيَم**"، لأُقدِّم صورةً صارخةً عن قِيَمنا الواقعيَّة في المحيط العَرَبي، لا عن قِيَم الكُتب والخُطب والمُثُل العُليا. إذْ ما جدوى الحديث عن القِيَم ونقدها، وما

فائدة التنظير لمكارم الأخلاق وأصولها، وما معنى الخوض في "الخصوصيَّة" العَرَبيَّة و"الثوابت" الإسلاميَّة، وأنت ترى من يُسمَّون بالنخبة من المتعلِّمين، أو من يُعَدُّون من طبقة العلماء وعِلْيَة المثقَّفين –أو قل: هم أنفسهم يَدَّعون أنهم من صفوة النابهين– لا يختلفون في شيءٍ عن الراتعين الآخَرين في غيِّهم، إنْ في قِيَمهم العُليا أو الدُّنيا، حقِّها وباطلها، خيرها وشرها، جميلها وقبيحها، بل هم إلى ذلك قد وظَّفوا معارفهم العِلميَّة، وسخَّروا أدواتهم الثقافيَّة لخوض الممارسات نفسها التي تَسُود قاع المجتمع أو شارعه الخلفي، ولكن بأدواتهم الأخطر والأفتك؟! كأنهم إنَّما طلبوا العِلم ليزدادوا جهلًا، وسَعوا في سبيل المعرفة كي يتسلَّحوا بها على الظُّلم والعدوان!

وما فائدة الكلام والتنظير حين ذاك؟!

حينما تُبنى الجامعات العَرَبيَّة، بعرض البلاد وطولها، ثمَّ إذا أنت تجدها تُخرِّج فيمَن تُخرِّج، مَن لم يزده النُّورُ إلَّا ظلامًا، ولا التربيةُ إلا انحطاطًا، ولا المنهاجُ إلَّا ضلالًا. بل حين تُلفي هؤلاء أنفسهم –الذين تُناط بهم العِمليَّة التعليميَّة والتربويَّة في جامعاتنا، وتُقام باسمهم المؤتمرات العِلميَّة هنا وهناك، وتُعقد لهم اللقاءات الفِكريَّة– فيهم: اللِّصُّ، والمرتشي، وقاطع الطريق؟!

- ٢ -

تلك أسئلةٌ أسوقها هنا بين يدي "حالة" عجيبة.. لستُ أدري كيف أسمِّيها.. أهي "سرقة عِلميَّة"؟...

إنَّ كلمة "السرقة" لتعفُّ عن أن تنطبق على هذه الحالة. فالسارق حريٌّ بأن يكون ذكيًّا، أو أن يتذاكى شيئًا ما، كي يُخفي فعلته، ويعفِّي على آثار جريمته. غير أنَّ من السُّرَّاق أغبياء، كما في سائر الناس، وهذا أمر طبيعي. لكن

أ من الطبيعي أن تكون الكُليَّات، والجامعات، والمجلَّات العِلميَّة المحكَّمة في الوطن العَرَبي، سادرة في غيابةٍ عمياء عمّا يجري فيها ومن حواليها؟!

وما الغريب، ورسائل عِلميَّة تُنجَز في المشرق لتُنشَر كُتبًا أو كُتيِّبات مختلَسة في المغرب؟! حتى لقد تصل الوقاحة بالسارق أن يهدي سرقته إلى المسروق منه، في نوعٍ من التحدِّي، أو من إظهارٍ للسبق بالتفضُّل، ومن ثمَّ إلجام المجني عليه بدَمِهِ عن أنْ ينبس ببنت شفة!

وما الغريب، وقد بات ضربًا من السذاجة في العالم العَرَبيِّ أن يجازف باحثٌ بتقديم بحثه إلى مؤتمرٍ عِلميٍّ أو ملتقى أدبي، لئلَّا يكتشف أن أحد المؤتمرين أو المنتدين قد قدَّم بحثه نفسه مختلَسًا، أو على الأقل نشره في أعمال المؤتمر ملخَّصًا؟!

والخواطر العَرَبيَّة دائمًا تتوارد، والحوافر العَرَبيَّة أكثر من غيرها في التوارد، لا في الإبداع الأدبيِّ وحده، بل في البحث العِلمي كذلك!

كيف تُؤتمن، إذن، تلك المؤسَّسات العِلميَّة على تخريج الأجيال، وكيف يحقُّ لها منح الشهادات؟ أم كيف تحمل راية الفكر والثقافة، وسادتها وسدنتها تتكشَّف رايتهم يوميًّا عن مستويات مخزية من الخُلُق القبيح والأمانة التي تُباع وتُشترى؟.. دع عنك هاهنا العِلم وشأنه جانبًا!

لا أودُّ التعميم إزاء ما قد يوصف —اعتراضًا— بأنه حالة فرديّة، أو ممارسة شاذَّة. فالأيَّام ما انفكَّت حُبلى بمفاجآتٍ غير سارَّة، تتولَّد في واقعنا عن حالاتٍ لا حالة، وسقطاتٍ لا سقطة، وعن تيارٍ حديثٍ من العبث العِلمي، وفي أجواء آمنة من الغفلة، أو من عدم المسؤولية، بل منهما معًا. ومن ثمَّ لم تعد القضيَّة فرديّة أو شاذَّة بعد تواترها وتكرُّرها عبر السنين، مع أنَّ ما يقف عليه المرء

منها لا يفتِّش عنه تفتيشًا، ولا ينقِّب عنه تنقيبًا، لكنه ما يلبث أن ينبثق في وجهه في أيِّ مكان وبمحض المصادفة.

لقد أصبحت القضيَّة، إذن، مؤذنةً بانهيارٍ عامٍّ لمصداقيَّة المؤسَّسة التعليميَّة والعِلميَّة والأخلاقيَّة.

وهذا يدعونا إلى التساؤل: أكانت تلك الحالات المتناسلة في مشهدنا العَرَبي، ستظهر بوجهها الكالح، لولا التشرذم العَرَبي، على كلِّالصُّعُد؟ حيث لا يعرف أهل كل قُطرٍ عربيٍّ ما يتمُّ إنجازه في القُطر الآخَر، بل لا تعرف الجامعة في بلدٍ عَرَبيٍّ ما يجري في جامعةٍ أخرى في البلد نفسه، والمدينة نفسها. فإذا ركامٌ مركومٌ من الأعمال المكرَّرة، أو المستنسخة، وإذا (أَرَضَةٌ آدميَّة) تلتهم البحوث والكتب؛ إذ تجد ملاذاتها الآمنة في مُناخ رديءٍ وبيئةٍ أردأ، تختلس، وتسرق، وتسطو، وتغتصب.. تظنُّ أنْ لن يأتي يومٌ تكشف فيه الأوراق، وتُعرض فيه الحقائق عارية.

ما ضرَّ،على ذلك، باحثًا من (**مِصْر**) لو أخذ جهد أخيه من (**السُّعوديَّة**)، أو باحثًا من **السُّعوديَّة** لو أخذ جهد أخيه من **مِصْر**؛ فنحن في النهاية أشقَّاء في العُروبة، وأبناء وطنٍ واحدٍ، مترامي الأطراف! فليكتب على عمل أخيه اسمه البهيَّثمَّ ينشره! ذلك أنه مهما قيل عن العُروبة أو الوطن الواحد، ستظلُّ تلكم **مِصْر** في كوكبٍ و**السُّعوديَّة** في كوكبٍ آخَر، لن يلتقيا أبدًا، ولن يخطر في البال حتى يوم القيامة أن تتواصل بينهما شبكات المعلومات؛ فمن العجز أو الجبن –والحالة هذه– أن يخشى لصٌّ يومًا يَتَكَشَّفُ فيه أمرُه، فضلًا عن أن يَتوقَّى تبعات ذلك اليوم.

وإذا كان هذا يحدث بين بلدين جارين، بينهما من الاتصال الزماني والمكاني والثقافي ما بينهما –**كمِصْر** و**السُّعوديَّة**– فلك أن تتوقَّع ما يحدث بين ما يُنجَز في أقطار أخرى متنائية أو متنابذة.

إنَّ ما أعرضه على القارئ الفاضل أبلغ من أيِّ عبارة، وأغنى عن أساليب التقديم والتأخير، لكنها العِبْرَة التي وددتُ استخلاصها من خلال الإسهام في كشف الغطاء عن سفينتنا المخروقة، التي أنّى وجَّهناها وجدناها تجري بما لا تشتهي أو نشتهي. فوقفنا حائرين محسورين، نتساءل عن أسباب الخيبة والخذلان، والفشل العام الذي يلفُّنا في قماطه دون سائر البشر؟! مع أنَّ الأمر أوضح من أن يوضح، وأشهر من أن يستدلَّ عليه.

إنَّه كشف الغطاء من خلال هذا النموذج عن وجهٍ للثقافة العَرَبيَّة، وحالٍ للتعليم العَرَبي، وواقعٍ للجامعات العَرَبيَّة، وسيرورةٍ للبحث العِلمي العَرَبي، ونتيجةٍ من نتائج انبتات العلاقات العَرَبيَّة، ثقافيَّة وغير ثقافيَّة، ومن قبلُ ومن بَعد حصيلة عن تلك القِيَم التي نتشدَّق بها كثيرًا، لنكتشف أنَّ كثيرًا من المتشدِّقين ما هم إلَّا صعاليك جاهليُّون!

أ قلت: صعاليك؟!

معذرة، إذن، إلى أسلافنا الأعزاء: (**تأبَّط شرًّا**)، و(**الشنفرَى**)، و(**السليك بن السلكة**)، و(**عروة بن الورد**)، وغيرهم من أشراف العَرَب وثُوَّارهم ولُصوصهم الكرام؛ فما ينبغي أن تلوَّث سمعتهم بمثل ذلك التشبيه، لكنها كلمة درج الناس على اجتلابها في مثل هذا المقام.

المفجع حقًّا أن يصل الاستخفاف بالقِيَم العِلميَّة –وقبل هذا بالقِيَم الأخلاقيَّة– إلى درجة استنساخ البحث الآخَر استنساخًا من البحث الأوَّل، لأخذ صورة طبق الأصل منه، ثمَّ نشره بعد أربع سنوات، بتغيير اسم الباحث، فقط لا غير.

لا، أستغفر الله!

لقد كلَّف الباحث نفسه مشقَّة الصبر على الإتيان ببعض الإضافات الجوهريَّة. كان أوَّلها –بطبيعة الحال– تغيير الاسم من محمَّد بن عبدالرحمن الهَدْلَق... إلى: اسمه الكريم.

ثمَّ إضافة أخرى مهمَّة، وهي البسملة، كيف لا والباحث ينتمي إلى جامعة إسلامية؟! البسملة مهمَّة، وهي غير موجودة في بحث الهَدْلَق، وعليه أن يعترف بذلك!.. والبسملة ضروريَّة جدًّا في كلِّ أمر، وإلَّا كان أبتر.. هكذا علَّمنا آباؤنا وهكذا نُعلِّم أولادنا، لا بدَّ أن نسمِّي قبل كلِّ أمر، حتى لو كان ذلك الأمر هو الإقدام على اقتراف سرقة أو قتل! فما يليق بالمشاريع الكبرى أن تظهر بتراء! لقد حذق الباحث المنتحِل هذه المسألة منذ نعومة أظفاره، وفطن إلى حيويَّة البسملة، كما فطن إلى إمكانيَّة تسمية بحوث الناس باسمه! فليُسَمِّ الله تعالى بعد ذاك ويتوكَّل عليه، ويأكل بيمينه ويساره، ممَّا يليه وما لا يليه!

الطريف –وكلُّ ما في هذا العمل طريف ظريف– أن بحث د. الهَدْلَق كان يتحدَّث في بعضه عن قضيَّة "**السرقات الشِّعريَّة**". ويخلص إلى القول (ص ٢٦٧-٢٦٨): "**يتبيّن لنا من هذا الذي أوردناه من كلام الحريري أنه يرى أن الناقد ينبغي له أن لا يتسرع في اتهام أحد الشعراء في الأخذ من الآخر حتى ولو كان التشابه كبيرًا بين أبياتهما؛ إذ قد تكون أبيات الشاعر الأوَّل لم تقرع أسماع**

الشاعر الآخر، وإنما ذاك من باب وقوع الحافر على الحافر، كما يُقال." وكأننا بالدكتور المنتحِل قد جاء يحاجج عن فعلته التي فعل، بأن حوافره إنَّما "وقعتْ.. ولا حدِّش سَمَّى عليها"، مستشهدًا بكلام الهَدْلَق، بعد تحريفه هكذا: "**يتبيّن لنا من هذا أن الناقد ينبغي له أن لا يتسرع في اتهام أحد الباحثين في الأخذ من الآخر حتى ولو كان التشابه كبيرًا بين بحثيهما ؛ إذ قد يكون بحث الباحث الأوَّل لم يقع عليه بصر الباحث الآخر، وإنما ذاك من باب وقوع الحافر على الحافر، كما يُقال!**"

أمَّا الحركة العبقريَّة الأخرى التي تنمَّ عن وعيٍ نقديٍّ لدَى الباحث الدكتور السارق، فهي أنَّ الرجل – "**سلمتْ براجمه من الأوخاز**"، مع الاعتذار إلى الشيخ ابن عقيل الظاهري– قد نقل حواشي بحث الدكتور الهَدْلَق إلى المتن ؛ فحينما يقول الهَدْلَق مثلًا: "**وقد سجل لنا تاريخ الأدب أقوالًا لأبي عمرو بن العلاء، والأصمعي، وابن الأعرابي...**"، ثمَّ يحيل إلى أقوال هؤلاء في الحاشية في نهاية البحث، يقف الباحث السارق –وهو الغيور على نسبة الأقوال إلى أصحابها، وفي مواطن الأقوال لا في أماكن أخرى– ليعيد الأمور إلى نصابها، ناقلًا أقوال أبي عمرو وما حُكي عن الأصمعي من حواشي بحث الهَدْلَق إلى المتن، متخفِّفًا من ذِكر ابن الأعرابي وحاشيته.

أ وليست هذه إضافة معرفيَّة مذهلة، وإنجازًا عِلميًّا فريدًا، يرفع من رصيد البحث العِلمي عند العَرَب؟! ولا يضاهي إنجازَه هذا إلَّا كونه إذا وجد لدَى الهَدْلَق توثيقًا طويلًا، قام باختصاره (كما في ص ٢٠٠ حاشية ١)، أو تعليقًا طويلًا اقتصر هو على الإشارة إلى مراجع التعليق منقولة عن الهَدْلَق، لا زهدًا في أخذ التعليق برمته، ولكن لأن حواشيه هو قد جعلها في أسفل الصفحة –كنوع من التغيير– فهي لا تستوعب له الإتيان بمثل تلك التعليقات الطويلة: (مثال:

الحاشية رقم ٥٠ ص ٢٧٢ لدَى الهَدْلَق، تقابلها الحاشية رقم ٣ ص ٢١٣؛ أوالحاشية رقم ٥٢ ص ٢٧٢ لدَى الهَدْلَق، تقابلها الحاشية رقم ١ ص ٢١٤).

أمَّا إذا طالت الفقرة من المتن –نتيجة إدراج حواشي بحث الدكتور الهَدْلَق في متن النسخة المستنسخة– فلا بُدَّ من قَسْم الفقرة إلى فقرتين، وإنْ على رغم أنف الأسلوب وبناء الجملة العَرَبيَّة، وذلك ما حدث على(ص ١٩١) من بحث الدكتور المنتحِل –أعني بحث الدكتور الهَدْلَق سابقًا– الفقرة الأولى والثانية.

وتلك كتلك، خطوةٌ رائدة لا تُنكَر للباحث (عن البحوث الجاهزة) في سبيل التقدُّم العِلمي! وستُحسَب في حسناته، بل لا بُدَّ أنها قد حُسبت فعلًا، وأنَّ صاحبها قد نال ترقية عِلميَّة ووظيفيَّة يستحقُّها، على جهوده، ومنها أبحاثه التي من جملتها بحثه هذا الرائع حقًّا، وبحوث أخرى من شكله ألوان.. نتوقَّع هذا لأنَّه قد مضى على هذه الحكاية قرابة تسع عشرة سنة.

عفوًا، أيها القارئ الكريم، فاتني التنويه قبل هذا كلِّه بالأصالة والجدَّة والابتكار في عنوان النسخة المسروقة من البحث. فقد أراده صاحبها –ككل الأكاديميين الجادِّين– أن يمتاز بالشموليَّة، وإنْ كان العنوان المحوَّر قد غدا فضفاضًا، لا يُطابق ما تضمَّنه البحث، إلَّا أنَّ الرجل قد اعتاد – فيما يبدو– أنَّ نظر الناظرين في مثل هذه الحالة لا يصل إلى أكثر من (عنوان البحث) و(اسم الباحث). لذا حوَّر العنوان من "**النقد الأدبي في مقامات الحريري**"، كما ورد في بحث الهَدْلَق، إلى "**مقامات الحريري والنقد الأدبي**"! وإن كان قد احتفظ بالعناوين الداخليَّة كما هي، حتى إنه لم ير من الحصافة العِلميَّة إهمال الخطوط التي كان يضعها الباحث الأوَّل تحت كل عنوان.

هذا، وقد حفل منشور المنتحِل لبحث د.الهَدْلَق بأغلاط متعدِّدة متنوِّعة، وما ذلك إلَّا نتيجة نقله الأعمى. ولكن إذا كان البحث قد نُشِر في مجلَّة عِلميَّة

–يُفترض أنها محكَّمة– فهل كان الأساتذة المحكَّمون عميانًا كذلك أم متعامين؟!
لقد بدا من الواضح أن العمليَّة تمَّت تصويرًا، وقصًّا ولصقًا، والدكتور المنتحِل – أعانه الله– معصوب العينين، أو أنه كان في عجلة من أمره، أو أنَّ أحدًا نسخ له البحث بالإنابة. ومهما يكن الأمر، فلا يشكُّ من يطَّلع على ما نشره أنه جاهلٌ –دع عنك أن يكون أستاذًا جامعيًّا في الأدب والنقد– أو لعلَّه لم يكلِّف نفسه حتى بقراءة النصِّ قبل نشره، إلى درجة أنه كان ينقل الأخطاء المطبعيَّة من بحث الدكتور الهَدْلَق كما هي، مضيفًا عليها أخطاء أخرى من عنده. ومن أمثلة ذلك ما يلي:

بحث د. الهَدْلَق: *(كل صفحة من عمودين)*	***أغلاط المنتحِل في نقله:***
ص٢٦٢، ع ٢، ف٢: "**مع اعترافي بأن البديع رحمه الله سياق غايات... لا يغترف إلا من نضالته**"	ص ١٩١ ف٥ : "**مع إعترافي** [كذا بهمزة قطع] **بأن البديع رحمه الله سياق غيلت... لا يغترف إلا من نضالته**" ❖ والصواب: "**سَبَّاقُ غايات... لا يغترف إلَّا من فضالته**".
ص ٢٦٣، ع١، ف ١: "**يطالعنا السروجي ينشد أبياتًا منها**".	ص ١٩٣ س ١: "**يطالعنا السروجي ينشد أبيات** [كذا] **منها**".
ص٢٦٣، ع ٢، ف١: "**والذي نتمحّله تمحلاً... في المقامة المراغية حيث يقول**"	ص١٩٣ ف٤: "**والذي نيحمله تمحلا... في المقام المراغئه حيا يقول**"
ص٢٦٤، ع ١، ف٢: "**وغمصتم جيلكم الذين فيهم لكم اللدات**"	ص١٩٥، س٣: "**وغمصتم جيلكم الذين فيهم لكم اللدات**" ❖ والصواب: "**غمضتم**" (بالضاد المنقوطة)

ص ٢٦٤، ع ٢، س١٧: "**وتكون حروف إحدى كلتيها منقوطة**"	ص ١٩٦، س٧: "**وتكون حروف إحدى كليتها منقوطة**" ❖ والصواب: "**كلمتيها**"
ص ٢٦٥، ع ١، س١: "**والمُعْوِر يخيب**"	ص ١٩٦، ف٥، س ٢: "**والمغور يخيب**" ❖ لأنه قرأ السكون على العين نقطة!
ص ٢٦٥، ع ٢، س ٣- ٤: "**فالرجل الذي طلب من السروجي...**"	ص ١٩٦، ف٥، س ٢: "**فالرجل الزي طلب من السروجي...**" = "الزي" (بالزاي).
ص ٢٦٥، ع ٢، السطر الأخير: "**رسالته الغريبة...**"	ص ١٩٨، س٤ من أسفل: "**رسالته العريبة...**" (بالعين المهملة)
ص ٢٦٦، ع ١، ف ٢: "**كان هذا الأسلوب الذي ننفر منه الآن قِبْلَة أصحاب البلاغة...**"	ص ١٩٩، ف ٢: "**كان هذا الأسلوب الذي [نتغر] منه الآن [قبله] أصحاب البلاغة...**"
ص ٢٦٦، ع ٢، ف ٣: "**وهل حين سرق سلخ، أم مسخ أم نسخ.**"	ص ٢٠٠، ف ٣: "**وهل حين سرق سلخ أم نسلخ.**" ❖ لسان حاله: إذا لم يسلخ هو، سنسلخ نحن!
ص ٢٦٧، ع ٢، ف ٣: "**أشهد بالله أنكما فرقدا سماء.**"	ص ٢٦٧، ع ٢، ف ٣: "**أشهد بالله أنكما فرق أسماء.**" ❖ خداع نظر!
ص ٢٦٨، ع ٢، ف ١: "**وثبت بالفعل أنهما كانا كفرسي رهان. ولقد قلنا إن هذين الشاعرين قد أثبتا أنهما كفرسي رهان، من باب التجوز...**"	ص ٢٠٤، ف ٣: "**وثبت بالفعل أنهما كانا كفرسي رهان، من باب التجوز...**" ❖ هنا قفزت عين الناقل من "**فرسي رهان**" الأولى إلى "**فرسي رهان**" الثانية!
ص ٢٧٠، ع ٢، ف ٣: "**فيخرجُ الحارث**	ص ٢١٠، ف ٣: "**فيخرج الحارث دينار**

دينارًا ويَعِدُ السروجي بأنه سيمنحه إياه..."	**أو بعد السروجي بأنه سيمنحه إياه..."** ❖ خداع نظر !
ص ٢٧١، ع ١، السطر الأخير: "**لقد أكثرتم يا قوم اللفظ...**"	ص ٢١١، ف ٥، س ١: "**لقد أكثرتم يا قوم اللفظ...**" ❖ الصواب: "**اللغط**"
ص ٢٧٢، ع ٢، ف٢، س٦: "**أقسم أن لا يزوجها إلا من ذي حرفة**"	ص ٢١٤، ف٢، س٤ "**أقسم أن لا يزوجها إلا من ذو حرفة**"!
ص ٢٧٣، ع٢، ف٢، س٢- ٣: "**وصلا إلى قرية قد ضلاها للبحث عن طعام**"	ص ٢١٦، ف٢، س٢: "**وصلا إلى قرية قد ضلاها للبحث عن طعام**" ❖ الصواب: "**إلى قرية فدخلاها للبحث**"
ص ٢٧٣، ع٢، ف٤، س٢: "**ولا البلح بل الملح؟**"	ص ٢١٦، ف٣، س٢- ٣: "**ولا البلح بل الملح؟**" ❖ والصواب: "**ولا البلح بالمُلَح؟**"

وغير هذا وغيره من الأغلاط النقليَّة والأخطاء الإضافيَّة في الإملاء والنحو. علاوة على السقط أحيانًا، والعبث في بناء الفقرات الواردة في بحث د.الهَدْلَق، بحيث لا يستقيم بناء الجملة الواحدة فضلًا عن بناء الفقرة: (كما في صفحة ١٩١، أو آخر فقرتين من صفحة ٢٠٤). لعل ذلك يأتي للتمويه على القارئ، وإن كان صاحبنا لا يعبأ، كما رأينا، بأن قارئًا ما سيقف على فعلته، وإلَّا لما نقل مادة البحث كما هي، من ألفها إلى يائها، مع علامات ترقيمها، إنْ صحيحة أو خاطئة.

وأخيرًا، يبدو أن الاستعجال في النقل قد بلغ مبلغه، والجهد قد أخذ من الناقل كل مأخذ، حتى إنه قد أهمل عنوانًا أخيرًا في بحث د. الهَدْلَق (ص٢٧٤، ع١)، هو: "**الأغراض الشعريَّة**"، كما أهمل فقرة بعده، ليقفز مباشرة إلى التي

تليها (البحث المنتحَل: ص٣١٧، ف ٣)، دون اتساق بين ما قبل وما بعد. ثمَّ ختم جهده المشكور (ص ٢١٨)، موقِّعًا –إمعانًا في إثبات ملكيته للبحث– بلقبه العِلمي واسمه الثلاثي، محددًا الزمان والمكان: "**إدرار في ٢٦/ ١١/ ١٩٨٦**".

أما وقد ضمَّن إحالات د. الهَدْلَق وتعليقاته حواشي صفحاته ومتنها، فقد حقَّ له أن يزهد في مسرد "**مصادر البحث ومراجعه**" الوارد في بحث الهَدْلَق. وما حاجته إلى "**مصادر البحث ومراجعه**" أصلًا، بعد أن اتخذ أقصر الطرق، فرجع إلى الأصل الوحيد لديه، وهو بحث د. الهَدْلَق، لا يزيد عليه كلمةً، وإن كان ينقص أحيانًا؟!.. فلتكن على الهَدْلَق، إذن، العهدة في شأن المصادر والمرجع والتوثيق.. "ووجع الدماغ"!

ونُحيل القارئ هنا إلى التفاصيل في المراجعة النقدية المنشورة في الصحيفة المشار إليها.

-٤-

ثمَّ جاء في ختام تلك المراجعة:

ها هي تي آيةٌ في آيات الأمانة العِلميَّة العَرَبيَّة الحديثة، وبرهان ناصع على أحوال الجامعات العَرَبيَّة العتيدة، ودليلٌ قاطعٌ على أعمال مراكز البحث العَرَبيَّة المحترمة جِدًّا!

وما كنتُ لأكتب عن ارتكاب مثل هذه الفعلة النكراء، مع الجرأة على المجاهرة بارتكابها أمام العالمين، لولا حرصي على أضعف الإيمان، والخوف من أن يُصبح المرء ليجد نفسه قد مسخه الله شيطانًا أخرس! وإلَّا فقضيَّة هذا النموذج من الجلاء كالشمس في كبد السماء لكل ذي عينين. بيد أنها **(لا تَعْمَى الأَبْصَارُ، ولَكِن تَعْمَى القُلُوبُ التي في الصُّدُور)**.

وختامًا، لعلَّ للباحثَين كلمة تكشف الأسباب وراء ظهور بحثَين متطابقَين بِاسمَين مختلفَين؟! وبما أنَّ الرجلين متخصِّصان في البلاغة العَرَبيَّة، فإننا نودُّ أن يفتياننا في الأمر: أن ما حدث يدخل في باب الجناس التام؟ أم التكرار؟ أم السرقة؟! وإذا كان من هذا النوع الأخير، أهو استلحاقٌ؟ أم انتحالٌ؟ أم سَرَقٌ؟ أم سَلْخٌ؟ أم نَسْخٌ؟ أم إغارةٌ؟ أم إصلات؟!

أم لا هذا ولا ذاك من توهُّماتنا تلك، وإنما هو محض توارد بحوث، ووقوع بحث على بحث، كما يحدث كثيرًا في العصر الحديث، ولا سيما بعدما كشفتْه نظريَّة (تداخل النصوص) من تُرَّهات القدماء حول ما أسموه (السرقات).. وقد انتقلت عدوى التداخل من الأدب إلى النقد الأدبي؟!

- ٥ -

ذاك كان (**الأستاذ الدكتور محمَّد بن عبدالرحمن الهَدْلَق**)، مالئ الحياة العِلميَّة، وشاغل الناس، بحقٍّ أو بباطل.

مَضَى طاهِرَ الأَثْوابِ لَـمْ تَبْـقَ رَوْضَةٌ غَـداةَ ثَـوَى إِلَّا اشْـتَهَتْ أَنَّهـا قَبْرُ
عَلَيْـكَ سـَلامُ اللـهِ وَقْفـًا فَـإِنَّنِي رَأَيْـتُ الكَرِيـمَ الحُـرَّ لَيْسَ لَهُ عُمْرُ

(١) المجلَّة الثقافيَّة، العدد ٢٨٦، الخميس ١١ جمادَى الآخِرة ١٤٣٠هـ= ٤ يونية ٢٠٠٩م، ص١٤، في مقال كتبتُه تحت عنوان "**ذو النظَّارة الصارمة!**".

https://www.al-jazirah.com/culture/٢٠٠٩/٠٤٠٦٢٠٠٩/almlf٣٥.htm

(٢) من قصيدة "**طائر الشِّعر**": **متاهات أُوليس/ قيامة المتنبِّي**، (الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العَرَبي | الرِّياض: النادي الأدبي، ٢٠١٥)، ١٦٩- ١٨٩.

(٣) أورده بلفظه: القزويني، زكريا بن محمَّد بن محمود (- ٦٨٢هـ= ١٢٨٣م)، (د.ت)، **آثار البلاد وأخبار العِباد**، (بيروت: دار صادر)، ٥٧٠- ٥٧١.

(٤) المجلَّة الثقافيَّة، العدد ٩٧، الاثنين ٤ صفر ١٤٢٦هـ= ١٤ مارس ٢٠٠٥م.

http://www.al-jazirah.com/culture/١٤٠٣٢٠٠٥/fadaat١٦.htm

(٥) يُنظَر: أصل المقال في العدد الورقي من (المجلَّة الثقافيَّة- صحيفة الجزيرة، العدد ٩٧، المشار إليه سابقًا في الحاشية (٤)).

بلاغة الفقد: الشاعر المكفوف بوصفه حكاءً

❖أ. د. معجب العدواني

يمثل العنوان السابق ثلاثة محاور رئيسة: الشعر، الإعاقة، الحكاية؛ إنه محاولة في تفسير العلاقة التي يتحول بها الشاعر إلى حكاء، ولا بد أن يكون الوسيط هنا الإعاقة، التي تسهم في تحويل الشعر إلى قالب سردي، ولعل هذا الدرس يجد طريقه إلى ذلك مستعينًا بما أفضت به التجارب العالمية في درس الإبداع المتصل بالإعاقة، ومستندًا إلى ثراء تجربة الشاعر الكويتي صقر الشبيب،[1] في تقديم ما يسهم في إبراز ذلك الكشف، وتوضيح بعض تفاصيله المرجوة.

ليس غريبًا أن يصدح الشاعر الشبيب بذلك، مقتديًا بتجربة أسلافه من ذوي الإعاقة، فقد كان أبو العلاء المعري من أولئك الذين صرحوا بالإعاقة غير مرة، وحولوها شعرًا ونثرًا كما في كتابه "رسالة الغفران"، ومن ذلك ما صرح به الشبيب في سخريته ممن قال: إن العميان سمان، وذلك في قصيدة (من أعمى إلى عميان):[2]

فقلت لهم: عمى العميان أسرُ وهل في الأسر يبتهج الأسير

فقالوا: العمي أكثرهم سمان وهل سمن بلا أنس يصير

---

(١) صقر الشبيب شاعر كويتي ولد في الكويت عام ١٨٩٦م، وعانى في حياته من فقد البصر، والفقر وتسلط بعض القوى الاجتماعية، توفي عام ١٩٤٦م.

(٢) صقر الشبيب، ديوان صقر الشبيب، جمعه وقدم له: يعقوب الغنيم، الكويت: مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، ط٢، ٢٠٠٨م، ص ٣٤٧.

فقلت لهم: سمان العمي ماتت مشاعرهم فليس لهم شعور
ألـم يسلـم من الـسمن المـعـري وبشـار ومثـلهمـا يسـير

ومن الثقافات المعاصرة يُلحظ أن الأمريكي Jim Ferris جيم فيريس الشاعر والباحث في مجال الإعاقة، وهو مؤلف "قصائد المستشفى" و "نحو غوانتانامو"، مع مجموعات أخرى.، له إسهام بارز في الكتابة عن الإعاقة. أما الجامايكية Ona Gritz أونا جريتز، فهي شاعرة وكاتبة ولدت مكفوفة ومصابة بالشلل الدماغي، غالبًا ما يتناول عملها الإعاقة والأمومة والهوية، ومثلهما الشاعر الجامايكي الأب البريطاني الأم Raymond Antrobus ريمون أنتروبوس الشاعر الأصم، الذي كثيرًا ما يشير عمله إلى تجربته، أما Laurie Clements Lambeth لوري كليمنتس لامبيث فهي شاعرة تعاني من ضعف بصري، ويستكشف عملها الإعاقة والحزن والخسارة، وهي مؤلفة كتاب "الحجاب والحرق" و "كلنا نكتب كتاب الموتى"، لكن الطريف قبل هذا وذاك أن الشاعر الإنجليزي John Milton جون ميلتون لم يكن من المعروف أنه يعاني من إعاقة فعلية، إلى أن بلغ سن الرابعة والأربعين، فتراجع بصره حتى عمي تمامًا،[١] ويرى بعض المنظرين أن الإعاقة هوية ثقافية إيجابية، ومن ثم تعزز هوية المعاق بما في ذلك أولئك الطلاب المعاقين، الذين يتعلمون باستقلالية في المدارس الخاصة، لأنها قد تصبح مواقع لتعزيز الإعاقة بوصفها هوية ثقافية

[١] See, Angelica Duran, The Blind Bard, According to John Milton and His Contemporaries, *Mosaic: An Interdisciplinary Critical Journal*, vol. ٤٦, no. ٣, a special issue: BLINDNESS, ٢٠١٣, pp. ١٤١ ١٥٧.

إيجابية.[١] وتستلزم هوية الإعاقة أن تتضمن إحساسًا إيجابيًا بالذات، ودعم مشاعر الارتباط أو التضامن مع مجتمع الإعاقة. ويُعتقد أن هوية الإعاقة المتماسكة تساعد الأفراد على التكيف مع الإعاقة، بما في ذلك تقبل الضغوط الاجتماعية ذات الصلة والمتاعب اليومية.[٢]

يضعنا هذا الاقتباس الأولي أمام موقع القاص والإعاقة، لكن أحداثًا تاريخية قد ربطت الشعر مع الإعاقة؛ إذ يُلحظ أن الشاعرين هوميروس وجون ميلتون John Milton يتفقان في كونهما مكفوفين، وغير بعيد منا ما حدث مع طه حسين، وعبد الله البردوني وغيرهما من الأدباء شعراء أو روائيين أو قُصاصًا، مع العلم أن هناك اتجاهًا ما إلى صوغ الشعر لدى الأعمى بصورة تبدو مغايرة لغيره.

حظي شعر الشبيب باهتمام كبير في حقلي الجمع والدرس النقدي؛ في الحقل الأول جُمع شعر الشبيب، ونُشر مصدرًا بعنوان "ديوان صقر الشبيب" في أربعمائة وتسع وخمسين صفحة، وقد جمعه وقدم له أحمد البشر الرومي،[٣] أحد أصدقاء الشاعر، وراجع الديوان عبد الستار أحمد فراج، ونشر العمل في مطالع ١٩٦٨م، عن طريق مكتبة الأمل وطباعة مطابع الرسالة بالكويت، وكانت مقدمة الرومي ثرية لاتصالها بعمق

---

[١] See, John Lawson, Disability as a Cultural Identity, *International Studies in Sociology of Education*, vol. ١١, no. ٣, ٢٠٠١, pp. ٢٠٤ ٢٢١.

[٢] See, Dunn, D. S., & Burcaw, S. Disability identity: Exploring narrative accounts of disability, *Rehabilitation Psychology*, vol. ٥٨, no. ٢, ٢٠١٣, pp. ١٤٨–١٥٧.

[٣] صقر الشبيب، ديوان صقر الشبيب، جمعه وقدم له: أحمد البشر الرومي، الكويت: مكتبة الأمل، ١٩٦٨م.

الصداقة القائمة بينهما، ولتعدد الحكايات والحوارات بينهما، إلى جانب تناوله شعر الشاعر بتحليل موضوعي، ثم قامت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بإعداد طبعة ثانية، أعدها وأضاف إليها وقدم لها د. يعقوب يوسف الغنيم تقديمًا علميًا دقيقًا، وصدرت في الكويت عام ٢٠٠٨م، وأضيفت إلى طبعة الديوان الأولى قصائد كثيرة استدركها الغنيم، وأضافها ليصل العمل إلى ما يقارب سبعمائة وست وثلاثين صفحة.

وفي حقل الدرس النقدي يُشار إلى بعض الأعمال، ومنها: كتاب "صقر الشبيب وفلسفته في الحياة لعبدالله زكريا الأنصاري، الذي صدر عام ١٩٧٥م من المطبعة العصرية بالكويت، وكانت دراسة الديوان خاضعة إلى موضوعات الشعر التي أحصاها الدارس، وحلل القصائد انطلاقًا من هذا التصور. وقام د. جاسم المالكي بدراسة التيار الوجداني في شعر الشبيب بوصفه أحد الشعراء فاقدي البصر، واختار درس الشاعر بين مجموعة من الشعراء الخليجيين مثل: فهد العسكر وأحمد خليفة وإبراهيم العريض،[1] ويؤخذ على هذه إهمال الطبعة الثانية من الديوان، واعتماده على الطبعة الأولى، مع أن الطبعة الثانية صدرت قبل نشر تلك الدراسة بست سنوات.

أما العمل الأحدث فربما كان بقلم أحمد يوسف الفرج، التي نشرت بعنوان "أفول الصحراء ومطلع النفط في شعر مكفوفي الخليج العربي: صقر الشبيب أنموذجًا"، وهي جزء من رسالة دكتوراه أعد لها الباحث، وتستند

(١) انظر: جاسم غالي رومي المالكي، تجليات الوجدان أو الذات في شعر صقر الشبيب، مجلة آداب البصرة، عدد ٧٠، ٢٠١٤م، ص ص ٧٥- ٩٤.

إلى المنهج السيميائي النفسي،[١] وتضمنت نتائجها إشارات جيدة إلى غنى خيال المكفوفين، وركزت على الصدمة الناتجة عن ثقافة النفط، التي أثرت على الشاعر الشبيب وغيره، وقد اقترح الباحث المنهج السيميائي والنفسي لمعالجة درسه، ويبدو أن منهج التحليل النفسي هو الأنسب لدرس شعر الشبيب، بعيدًا عن المراوحة أو الجمع بين مناهج متعددة.

تقوم فرضية هذا الدرس على أمرين: الأول منهما معالجة الهوية السردية، كما يراها بول إيكن، ووفقًا لدان ماك آدامز؛ فإيكن يراها البناء الأنسب لتوظيفه كي نعبر عن خطاب الهوية، أي كيف يقوم الشاعر المكفوف بتعريف نفسه وفقًا لتصوره الخاص،[٢] وكأنها الحل الشعري لممارسة التأويل، وكيف تكون بهذا المعنى مستمرة في خلق ونقض نفسها، أو كما يركز آدامز على مسألة أننا نروي أساطير شخصية معتمدة عن كيفية نظرنا إلى الحقائق والأحداث في حياتنا، وكيف يتمثل السارد الذي في رؤوسنا ليخبرنا عن أنفسنا، ويشرح العالم، وكيف يفسر كل شخص علاقات الأشخاص من حولنا؟ وكيف يقوم معظم الأشخاص بسرد سيرهم بوصفهم أبطالا، وهم ليسوا كذلك، وكيف نسرد ذواتنا اعتمادًا على تقاطعنا مع آخرين؟[٣] أما الأمر الآخر فيتمثل في أن تراسل الشكل الأدبي

---

(١) انظر: أحمد يوسف الفرج، أفول الصحراء ومطلع النفط في شعر مكفوفي الخليج العربي: صقر الشبيب أنموذجًا، تبيين، عدد ٢٨، مجلد ٧، ربيع ٢٠١٩م، ص ص ٧٣- ١٠٥.

(٢) See, Eakin, Paul John: *How Our Lives Become Stories: Making Selves*. Ithaca, New York: Cornell UP, ١٩٩٩.

(٣) See, Dan McAdams, *The Art and Science of Personality Development,* New York: Guilford Press, ٢٠١٥.

بين القص والشعر يبدو ذا علاقة محددة أكثر لدى الشعراء فاقدي البصر، وهو ما سيساعد على كشفه بدقة المنهج المستهدف، الذي ينحو إلى الإفادة من منهج دراسات الإعاقة، ولعل هناك من المفاهيم النقدية المعبرة عن هذا المنظور النقدي الحديث ما يمكن من مقاربة هذه الظاهرة.

إن المدخل النقدي الذي سنحاول الاشتغال عليه يقوم على اقتراح المصطلحات الثلاثة مرتبة كما يأتي: التأرجح ثم الاستناد ثم الوصول، وتقوم هذه المصطلحات الثلاثة على أساس افتراض حركة تمثيلية للمكفوف، عند محاولته ممارسة نشاط ما واقعيًا، حيث تبدأ حركته للقيام باهتزاز وعدم اتزان، ثم استناد إلى عصاه واستقرار جزئي، ثم الوصول إلى الغاية، وهي الحركة التي تبدو مناسبة وقريبة، إلى حد ما، من الدخول الفعلي للشاعر المكفوف إلى عالم القصيدة، فيندرج في إطار ممارسة نشاط، يمكن عدها مراجعة لتلك الانطلاقة، قبل أن تسند إليه الأدوار كلها.

وفي تفصيل ذلك يُراد بالتأرجح الحركة الاهتزازية التي تظهر على الشخص قبل الإمساك بالعصا بعد الشعور المتكرر، الذي يظهره الشاعر من اعتداد بالذات، ومن ثم التردد في استحضارها والتفاعل معها، لكنها خيار مهم لفاقد البصر أولًا وللعملية الشعرية آخرًا، ومن سماتها انتقال حالة الاهتزاز والتذبذب المحسوسة إلى أنموذج التأرجح الفعلي الذي ينقل المكفوف من الحالة الواقعية إلى الحالة الإبداعية. ومن ثم يصبح لدى المكفوف القدرة على الاستناد إلى الركن الرئيس الذي يمنحه الراحة والثقة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه الاستناد، وهو المصطلح الثاني المشار إليه، ويعني الاستناد عمليًا

الاعتماد المباشر للشخص المكفوف على استخدام عصا يتلمس بها طريقه، فالعصا من لوازم الطريق حتى لبعض المبصرين أحيانًا، وللرعاة دائمًا للاتكاء عليها والهشّ بها على الأغنام كما ورد في القرآن الكريم.

أما الوصول فربما قاد إلى السؤال الآتي: ما نوع الوصول الذي تحظى به قصيدة الشبيب؟ الوصول هنا يبدو وصولًا معتادًا، يمارسه كل الشعراء، وهو وصول مختلف يشبه في ظاهره وصول أي شاعر آخر إلى نهاية قصيدته، لكنه في باطنه وصول معبر، يتضمن الحالة الإنسانية للشاعر إلى جانب الحالة المرضية له. إن الوصول هنا، في حالة شعر الشبيب، يعني استقرار النموذج السردي لدى الشاعر، أي أنه سيتناول متى يظهر النموذج السردي كيفية تحقق البناء السردي واكتماله، ومن أجل الوصول إلى تلك المصطلحات السابقة، فقد اُقتِرحت المستويات التي تتدرج في معالجة قصائد الشبيب الواردة في ديوانه، وهي:

- التأرجح: ويوافق تغييب المكان ومحوه من مطلع القصيدة، واخترنا أن ننحاز إلى تحديد ثلاثة أبيات لتكون ملائمة للمطلع، وملائمة لحركة المكفوف عمليًا.

- الاستناد: ويتفق مع الاعتماد على ضمير المتكلم في القصيدة الذي يشير صراحة إلى الشاعر، وأحيانا يختصر الشاعر ذلك، فيشير إلى اسمه صراحة (صقر)، ويمثل هذا الضمير (العصا) أو (العكاز) التي

يستند إليها المكفوف، بوصفها الدليل المرتجى الأنسب، كما يقول الشبيب عنها:[1]

وليس لعكازي وإن طال من غنى تجاه صنيع الجدر أو أنملي العشر

وفي قصيدة أخرى:[2]

وأضرب باليمين وليس فيها سوى عكازة فيها فطور

- الوصول: ويراد به الموضوع والنتيجة، الوصول إلى حد المعاناة الذاتية أو الجمعية، وقد غلب الشاعر (ثيمة) المعاناة الذاتية، وتضمن شعره بعض القصائد ذات الهم الجمعي.

وبالعود إلى ديوان الشاعر يُلحظ أن معظم قصائده تستلهم النموذج الثلاثي السابق، وتوظفه، وأن أعدادًا قليلة جدًا من نصوص ديوان الشاعر تباعدت عن الدخول إلى هذا الإطار المنهجي، وأن تصل المستويات الثلاث السابقة في تجربة الشاعر إلى منح القصيدة روحًا سردية، وتضيف إلى الشاعر لقب الحكاء. وهي أشبه بنتيجة بحثية تأتي بعد الاشتغال على المتن، أو ملمح عام يضرب بأطنابه في كافة جوانب القصيدة.

التأرجح: تغييب المكان ومحوه من مطلع القصيدة

ومن أجل بناء معادلة مقبولة في هذا المستوى، كان الاتجاه إلى حصر الأبيات الثلاثة التي تستهل بها النصوص، والنظر في كونها قد استحضرت المكان أم غيبته، وذلك وفقًا للتجارب الشعرية المعروفة لدى أسلاف الشبيب، فالوقوف على الأطلال بوصفه مدخلًا غزليًا كان واحدًا من أبرز

---

[1] الشبيب، ص ٣٥٦.

[2] السابق، ص ٣٤٨

الملامح الشعرية في الشعر العربي القديم، ومع تطور التجربة الشعرية العربية تلاشت هذه الظاهرة جزئيًا، لكن المكان يظل ملمحًا لا يمكن اجتيازه.

وقد لوحظ أن عدد النصوص التي غيبت المكان تمامًا مائة وتسعة وسبعون نصًا، وأن النصوص التي استحضرته بلغت تسعة عشر نصًا، من مجموع النصوص التي بلغت مائة وثمانية وتسعين نصًا، وشكلت جسد ديوان الشبيب في طبعته الأخيرة الثانية، وهذا يكشف عن غياب شبه تام للمكان في هذه التجربة الشعرية، حتى ما ذكر عن الأمكنة في القصائد التي استحضرته لم يكن مؤثرًا، ولم يكن تفصيليًا، أو مهمًا، بل كان مكانًا ضعيف التأثير داخل النص، ولا يمكن الاعتداد بحضوره المادي أو الروحي. ولعل فقد البصر كان أحد الأسباب التي قادت إلى ذلك الاستبعاد بوعي أو بلا وعي، ذلك أن الشاعر قد لا يملك التفاصيل الكاملة لوصف الأشياء من حوله، أو تقديم صور تخييلية لها؛ لذلك اختار الميل إلى الاستهلال بالمجرد، وأهمل الموصوف، متوافقًا مع حالته التي لا تؤهله للوصف، كما هو غير مؤهل للدخول إلى العرضة الشعبية؛ إذ يقول:[1]

وما للعمي في العرضات أنسٌ فأمدحها بنظم أو نثير
وهل أثني على العرضات خيرًا ولذتها خصوصًا للبصير

الاستناد: الاستناد إلى ضمير المتكلم

لوحظ أن عددًا غير قليل من القصائد الشعرية يجتاز أكثر من ثلثي الديوان قد اختار هذا المدخل، أما القصائد التي اختارت الاتجاه إلى ضمائر المخاطب أو الغائب فقد كانت معبرة عن القضايا الوطنية التي تناولها

[1] السابق، ص ٣٩٦.

الشاعر، وكان موضوع قضية فلسطين أكثر الموضوعات تناولًا في هذا الجانب، مثل القصيدة في الوحدة بين مصر وسوريا. ولوحظ أن الشعر المتصل بالحكمة والشعر القومي جاء مستندًا إلى ضمير الغائب والمخاطب.

بلغ عدد النصوص الشعرية في ديوان صقر الشبيب مائة وثمانية وتسعين نصًا، كان نصيب النصوص المستندة إلى ضمير المتكلم مائة وواحدًا وخمسين نصًا، وعشرة نصوص لضمير المخاطب، واثنين وثلاثين نصًا لضمير الغائب، أما النصوص التي اشترك فيها أكثر من ضمير فثلاثة نصوص لضميري الغائب والمتكلم، ونصان اثنان لضميري المخاطب والمتكلم، ويُذكر أن النصوص التي استهل بها الشاعر بضمائر أخرى غير المتكلم، لم يلبث فيها أن استدعى سريعًا ضمير المتكلم، وكأن الشاعر لن يتمكن من خوض هذا العالم دون سند أو معين، وهو ما يدعم الفرضية التي تشير إلى أن التجربة الشعرية للشبيب كان سندها وعصاها ضمير المتكلم؛ لأن الذات تعني للشاعر كثيرًا في تجربته، وحين يكون مكفوفًا تزداد تلك الذاتية وتكبر، فهي المرجع والمعين الحاضر.

الوصول: الاشتغال على (ثيمة) المعاناة الذاتية

تظل المعاناة الذاتية من أبرز الموضوعات التي يتناولها الشعراء، وقد كان الشبيب واحدًا من أولئك الذين اهتموا بهذا الجانب، ولكن من الملحوظ أنه بالغ فيه إلى حد قد اجتاز ما اعتاد الشعراء عليه، وكانت تلك المعاناة ذات أضلاع ثلاثة الفقر وفقد البصر وتآمر المتشددين عليه، وربما كانت علاقاته مع شيوخ الكويت ووجهائها قد خففت قليلًا من ضلع الفقر،

وحول الشاعر بذكائه معاناته الذاتية مع المتشددين إلى معاناة جمعية، استثمر فيها تأثير الجهل على أولئك، ودعا فيها الأمة قاطبة إلى معالجة أحوالهم، لكن الضلع الذي لم يمكنه علاجه، وتكرر كثيرًا في قصائده هو موضوع فقد البصر، الذي تسبب في عزلته، مع أنه أحيانًا يجمع بين ضلعين من أضلاع المعاناة، مقتديًا بسلفه أبي العلاء المعري رهين المحبسين، مشيرًا إلى ما أسماه شكوى الوثاقين: العمى والوصب، والوصب الوجع الدائم في الجسد؛ إذ يقول في قصيدة (لن يراني القوم إلا مذنبا): [1]

فإن أقمت في الكويت مرغما مضطهدا من أهلها مكتئبا
وكيف يسطيع الفرار من غدا يشكو الوثاقين العمى والوصبا

لقد بلغ عدد النصوص التي تناولت الهموم والمعاناة الذاتية مائة واثنين وأربعين نصًا، يقابلها ستة وخمسون نصًا، اختارت طريق المعاناة الجمعية، ويبدو أن اتساع المحور الأخير يعود إلى أن الشاعر قد ركز في بعض قصائد ديوانه على القضايا العربية، مثل قضية فلسطين، وعلاقة العرب بالغرب وغير ذلك، ويبالغ الشاعر في عقد علاقة ما بين المعاناة الذاتية ومثيلتها الجمعية، وذلك كقوله في قصيدة (بلا وحدة ضياع)؛ حيث يتحسر على عدم قدرته المشاركة في القتال في فلسطين: [2]

وددت بجدع الأنف لو كنت مبصرا قديرا على حمل القناة أو العضب

ويقول في قصيدة (الإيمان عون لتخفيف الأعباء) التي مطلعها:

عطفت عليّ البصرة الفيحاء والساكنون ربوعها الكرماء

---

[1] الشبيب، ص ٢١٧.

[2] السابق، ص ١٤٨.

وهي القصيدة التي قالها بمناسبة مقال كتبه صديقه محمد طه الفياض العاني صاحب مجلة (الشبان المسلمين) التي تصدر بالبصرة، ناصره فيه على ما كان يشكو منه.[1]

الجامع: منح القصيدة روحًا سردية

تأتي أهمية الروح السردية في القصيدة لكونها أبرز المستويات الأربعة التي فعّلها هذا الدرس، وقد أُشير إليها منذ البدء، بوصفها العنوان والمستوى الجامع، الذي يكون تتويجًا لحركة المستويات الثلاثة السابقة المتضمنة: التأرجح والاستناد والوصول، وكان الأبرز لكونه الرابط الذي يصل بين تلك المستويات، والناتج الذي تصل إليه، ويراد به الجمع بين اتكاء الشاعر في نصه على مبدأ الحكاية البسيطة مع وتفعيل الضمير المتصل بالمتكلم، وتغييب المكان، ومن الجدير الالتفات إلى أن الشعر كان دائمًا ذا صلة بالسرد منذ أقدم العصور مع شعر ما قبل الإسلام حتى اللحظة الراهنة، وهو أمر معروف متداول في التجارب الشعرية منذ امرئ القيس إلى أحمد شوقي ومحمود سامي البارودي وغيرهما، لكن الهدف هنا هو كيف يتحول الشاعر الأعمى إلى حكاء بعد استكماله خطوات الولوج إلى النص، وكيف يكون شبيهًا بالقاص. يُنقل عن إبراهيم بن هانئ في نص الجاحظ الآتي: "ومن تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى، ويكون شيخا بعيد مدى الصوت"،[2] أما العلاقة بين السرد والإعاقة فربما كان من الصعوبة

---

[1] السابق، ص ٦٩.

(٢) أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٤٢٣ه، جـ ١، ص ٩٦.

إيجاد نصوص موروثة متواترة، تقيم العلاقة بينهما لتشكل خطابًا، وهنا تبدو المشابهة بين قاص الجاحظ المتخيل وشاعر الشبيب الحاضر، فكلاهما يحمل الصفة ذاتها، ويتبنى المداخل نفسها، لكن النصوص الشعرية المستهدفة لا تنفصل عن الشبيب، فهي حاضرة مهما تباعدت، وقابلة للتأويل المستند إلى السيرة الذاتية، ولو بدت غير متسقة، وتفتقر إلى الاكتمال، أما المعاق بوصفه شخصية سردية فله جانب آخر قد يصل به ديفيد ميتشل وشارون سنايدر إلى أن هذا النوع من الشخصيات يحضر كثيرًا في الأعمال الروائية، وذلك لكونها شخصيات قوية تمثيليًا، ومؤثرة في إمكانياتها، وتحليلية في رؤيتها.[١]

ويُلحظ أن تلك المستويات تتصل بالسرد أكثر من القصيدة، وأن عدد النصوص التي استحضرت مبدأ الروح السردية قد بلغت مائة وتسعة وستين نصًا، أما النصوص التي لم تستحضرها فكان عددها تسعة وعشرين نصًا، وهي نتيجة تبدو كبيرة جدًا، وإن لم تكن غير مجتازة مستوى تفاعل التأرجح والاستناد، لكنها تفيد من كليهما إفادة كبيرة؛ إذ تمنح القصيدة مبدأ الهوية السردية المعبرة عن سيرة ذاتية، أو يمكن القول: إنها التي تسعى إلى تمثيل الماضي بتقديم صورة الذات الممكنة في الهوية السردية، وهي كما لدى بول ريكور قصة حياة الشخص الداخلية والمتطورة، التي تدمج الماضي

---

[١] David T. Mitchell, Sharon L. Snyder, *Narrative Prosthesis: Disability and the Dependencies of Discourse*, Michigan: Michigan University Press, ٢٠٠٠, p. ٤٩.

المعاد بناؤه والمستقبل المتخيل؛ لتزويد الحياة ببعض الإحساس بالوحدة والهدف.[1]

كان من المتوقع أن يكون الشاعر غير قادر إلا على الانخراط بصورة جادة في تناول ما هو مجرد، لتسويغ عجزه البصريّ في وصف الأشياء التي تحيط به، لكنه تناول ذلك في مواضع، واختار - إلى جانب ذلك - آلية جديرة بالالتفات إليها، تتمثل في توظيف الروح السرديّة، التي ستهدف إلى تحقيق ثلاث غايات: تُوظف في الإسهام في إطالة نصوصه أولًا، وستضيف إلى قرائه وتشوقهم ثانيًا، وستكون آلية تعويضية فاعلة في النص الشعري ثالثًا.

إن موقع الشاعر في فئات الإعاقة قد جعله يتطلع إلى الخروج من المهمش، فكان الشكل الشعري أنموذجًا للاجتياز، فأضاف الشعر ليس للخروج من دائرة المهمش فحسب، ولكن لكشف ما فيها من عوار يستحق المتابعة. ولو ربطنا هذا المستوى بالمستوى الأول ستكون سمة التأرجح من أولويات قصيدة الشبيب التي يراوح بها بين شعر وسرد، فالتأرجح العام في تجربة الشاعر لا يقتصر على حركة النص البدئية، بل يمتد إلى هذا التأرجح المخادع غير المرئي لنقل التجربة إلى ثلاثة مراحل: شعر ثم سرد ثم شعر.

ومن الجيد معرفة أن شعر الشبيب يرتبط بحكاية، فإن لم تكن له حكاية اخترع الشاعر له حكاية من عنده، معتمدًا على قدرته السردية

(١) بول ريكور، الزمان والسرد: الزمان المروي، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت: دار الكتاب الجديد، ٢٠٠٦، جـ ٣، ٣٧٥.

العالية، فهذه أبيات قالها حين قيل له: هذه صورتك فماذا يمكنك أن تكتب تحتها من شعر، فقال[1]:

هذا خيال امرئ قد شب ما اشتملت على المسرة حتى شاب أضلُعُه
ما إن تناول من آماله سببًا إلا رأى مدية الأيام تقطعُه
وأي صادٍ من الأحرار ما وقفت دنياه عن كل ما يُرويه يدفعُه

إنه التشكيل الذي صنعه الشاعر لهوية سردية في قالب شعر يتلمس سرد حياته في أفقها القصير، عبر اللجوء إلى ذاكرته، التي يبدو أنها تعاني من هيمنة الحدث الأكبر عليها وهو حدث العمى، إلى جانب حدث لزوم البيت، لقد حاول الشاعر اجتياز هذين العائقين بقوة، لكنهما يهيمنان عليه، ويحتلان الجزء الأكبر من تلك الذاكرة.

هل يمكن بناء البعد السيري للشاعر من خلال نصوصه، التي لامست معظم شؤون حياته، وملامح من شجونها؟ ستكون الإجابة بنعم؛ إذ يحدث التفاعل مع القصائد المجموعة في ديوان الشبيب، وتأويلها من أجل اكتمال البناء السيري فيها. أما السرد الطاغي على موضوعات القصيدة فيتجلى في قصائد كثيرة، ومنها على سبيل المثال القصيدة الرثائية (دموع على عبدالله الخلف الدحيان) التي تحول فيها الشاعر إلى سرد ملامح صدمته بموت الفقيد، حيث يتحول إلى فاعل سردي ينوب عن ذكر خصال الفقيد إلى ذكر تأثر الشاعر:[2]

لما نعوك إليّ أحيا قولهم فيّ الشجون فماتت الأعضاء

(١) يعقوب يوسف الغنيم، "الشعر والشاعر، "ديوان صقر الشبيب، مرجع سابق، ص ٤١.
(٢) الشبيب، ص ٧٧.

وغذا برحب الأرض دائرة على جسدي تضم إطارها الآساء
فسجدت فوق الترب لا لتعبد لكن لأمر شاءه الإغماء

- **العنوان المحكي**

العنوان المحكي هو ذلك العنوان الذي يكشف بنفسه عن حكاية تختبئ فيه، وربما كانت معظم النصوص قد عنونت بجملة لا بمفردة، ومن سمات هذه الجملة أنها تضم من ثلاث إلى أربع كلمات أو أكثر، وتتضمن حدثًا ما، وتتوضع أحيانًا حول ضمير المتكلم المتمثل لشخص الشاعر، وأحيانًا تعبر عن ضمير غائب. وأحيانا بضمير مخاطب يتلبسه ضمير الأنا. يُذكر قبل البدء في هذا أمر مهم وهو وجود نصوص كاملة وطويلة تتضمن حدثًا قصصيًا، هناك على الأقل ثلاث قصائد تحمل هذه السمة، وهما (عنز تأكل الكتب)، و(من أعمى إلى عميان)، (أنقذوا الحيوان من أذى الصبيان)، وتضم بقية النصوص الموضوعة عنونتها هنا هذا الجانب، ولكن بصورة تبدو أقل.

وتشكل عنونة القصائد نصوصًا سردية لها اتصالها الأولي المباشر بالقصائد، وهي مفاتيح للإطلالة على الحكاية، وعتبات تتلمس الولوج إلى القص، مع افتراض أن هذه العنونة إن كانت موضوعة من الشاعر نفسه وهو المتوقع، أو موضوعة من قبل من جمع القصائد واهتم بنشر الديوان، وربما كان هذا مستبعدًا وفقًا لإحالات يعقوب الغنيم في تقديمه للديوان ؛ فقد كان يتناول عنونة القصائد فيها، وذلك دليل جليّ على أن النص منح هذه المفاتيح لقارئ أولي هو الشاعر، أو لقارئ لاحق هو المحقق الجامع أو الناشر، ولا فرق في ذلك تأويليًا بينهما.

ومن العنونة المستندة إلى ضمير المتكلم (ألجؤوني إلى نظمه دفاعا لا هجوما)، (حبي يجذبني)، (إلى لوامي في العزلة)، (لن يراني القوم إلا مذنبا)، (لحكمة أتينا الدنيا)، (أصيح)، (ولو قطعوا رأسي)، (شكوى على باعة الغاز)، (لماذا يحسدونني)، (إليكم عني)أما الاستناد على ضمير الغائب (عنز تأكل الكتب)، (الإيمان عون لتخفيف الأعباء)، (للحق عاقبة الأمور)، (حققوا بثورتهم الآمال)، (بين العري والسغب)، (قيوده عماه)، (من أعمى إلى عميان)، (أنقذوا الحيوان من أذى الصبيان)، (يقولون)، وأما ضمير المخاطب فمثاله (ذب يا شعر عني)، (عذرك يكفيني)، (لا تؤذوا الصريح)، (متى تنجز الوعد)، (هل أبصرت ذلا في الصقور)، (عفوا وصفحا)، (لا تنس صقرا). ومنه ما يتمثل الفعل الحكائي مباشرة، مثل: (حكاية غرام)، (صقر كان صقرا)، ويُلحظ أن العنونة السابقة قد اتصلت بإيقاع سردي لا شعري، عبر استثمار الطاقات السردية الكامنة في الجمل القصيرة. كما أن لها تأثيرها على ملامح القصيدة وربما العكس، وانبثاقها في شتى جوانبها، فلو أخذنا مثالًا لها (بين العري والسغب) يشتكي الشاعر من أحوال معيشته، ولهذا يقول:[1]

ما زلت من فاقتي في من قضى ومضى أشكو الإقامة بين العري والسغب
فهل من العدل أن تبقى تناوبني أيدى النوائب إعساري وتلعب بي
أليس من واجب الآداب أخذكم بكف خادمها المشفي على العطب

(١) السابق، ص ١٦٦.

- **الحوار السردي**

لعل أبرز وجوه الحوار المتكرر في قصائد الديوان ذلك المستند إلى فعل القول (قال، يقولون، أقول، لا تقل، قالوا)، وهي أفعال تؤكد الحكاية، وتصنف الشاعر شخصية حوارية، وسواء كان القائل شخصية متخيلة أو حقيقة فإن وظيفته الأولى هي صناعة السرد مع قليل من الدهشة، في قصيدة (إلى سمو الأمير الجليل عبد الله بن الشيخ سالم الصباح) يصنع الشاعر ملمح حوارٍ سردي بقوله:[1]

وقال أرى يا صقر –ما دمت لا ترى طريقك– أن تبقى مدى الدهر في الوكر

وقد يتحول الفعل (قال) إلى جمع (قالوا)، عندما يشعر الشاعر أنه في حاجة إلى سرد بعض معاناته الذاتية، كما في قصيدة (في العزلة):[2]

قالوا اعتزلت الناس قلت لأنهم جروا علي المحزنات صنوفا

وفي قصيدة (في اسمه) يأتي المضارع من قالوا ليؤكد استمرارية تأثير قولهم:[3]

يقولون لي يا صقر ما لك واقعا من الكف عن طير القريض على وكر

وحين نفي القول يسرد الشبيب دفاعًا عن تهمة، ويتجلى ذلك في قصيدة (جنون الحب):[4]

لا تقل إني لأعمى صبوة أذني عيني وهل ثم التباس

---

(١) السابق، ص ٣٦١.

(٢) السابق، ص ٤٧٢.

(٣) السابق، ص ٣٦٣.

(٤) السابق، ص ٤١٨.

أما حين يوظف فعل القول المضارع فيبدو الأمر متصلًا بمعالجة ذاتية:[1]

أقول وكسر قلبي اليوم يرجو برعيكم الحصول على انجبار

وفي قصيدته (أوحد الظباء) يصطنع الشبيب شخصية يحاورها:[2]

فقال دعوه يدعي الحب كاذبا وكيف إلى الأعمى تسرب وجده

طريق الهوى للمرء رؤية عينه ونهــج هوى صقر عمــاه يسده

وإن لم يمت في الحب صقر كما ادعى فمستحكم الإعسار سوف يهده

وتظهر في هذه الأفعال الحكائية تأثيرات توظيف تلك الأفعال في القصيدة الشبيبية، ودور ذلك في تجسيد البنية السردية، ومن ثم تحول الشاعر إلى حكاء.

ويمكن الختم بالقول: خضع الديوان بكامله لهذا الإجراء المنهجي، الذي كان محايثًا للنصوص الشعرية من جانب، وملائمًا لدراسات الإعاقة من جانب آخر، ولهذا كانت معظم قصائده مناسبة للتطبيق، وناجعة في تقديم علامات نقدية مهمة. كان السرد ركنًا ركينًا في تتبع شعر الشبيب، ولو لم يكن الشبيب شاعرًا لأضحى قاصًا متميزًا، ومع أن القص كان متواريًا وبعيدًا عن الحضور في التجربة الخليجية آنذاك. وكان السرد في شعر الشبيب نتيجة وليس اتجاهًا، بمعنى آخر فقد قادت المستويات التي طُرقَت ابتداء من التأرجح ثم الاستناد ثم إلى الوصول التي تمكن من خلق حالة سردية في تجربة الشاعر؛ لذا لا يمكن الفصل بين الحالات جميعها.

---

(١) السابق، ص ٣٩٢.

(٢) السابق، ص ٢٨٣.

ركز الدرس على ملمحي السرد والعنوان وتأثيرهما الواضح في شعر الشبيب، وأهمل بعض المكونات الأخرى كالسارد ووجهة النظر وغيرهما؛ إذ أكدت معظم العنوانات التي وردت في القصائد روحها السردية المؤثرة في القصائد التالية لها. وأخيرًا، تنبغي الإشارة إلى أنه يظل شعر الشبيب بيئة إبداعية خلاقة، ملائمة للدرس النقدي الذي يمكن أن ينفتح على أنواع أخرى من المعالجات العلمية.

من وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم:
ألوان البديع في سورة الأنبياء نموذجًا(*)

❖د.عبدالعزيز بن عبدالله الخراشيّ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح الخلق لسانًا، وأوفاهم بيانًا، وعلى آله وصحبه الأطهار الأبرار ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:

فالقرآن الكريم عزّ هذه الأمة وشرفها؛ فهو معجز لذاته، ولطالما سمعنا إعجاز القرآن تردد على أفواه المتحدثين وبين أسطر المؤلفين، ولكن تبقى ملامسة ساحة التطبيق أمرًا ضروريًّا؛ لذلك وجدت في هذا البحث ضالتي؛ إذ به يحاول المرء الكشف عن قدر يسير من الإعجاز البلاغي كنموذج من بين نماذج كثيرة في هذا القرآن الكريم، ثم كان لاستيعاب عقولنا –معاشر الطلاب– لعلم البديع بقسميه حافزٌ كبيرٌ إلى التقدم واختيار هذا الموضوع ولا سيما إذا كان في كتاب رب العالمين، ولكون هذا التطبيق يحول بلاغتنا العربية من قوانين تحفظ وقواعد جافة إلى أذواق أدبية وملاحظات نقدية من شأنها أن تبث روح الحيوية في بلاغتنا العربية.

تلك الأسباب كانت من أهم الدوافع التي دفعتني إلى الخوض في غمار هذا البحث، ولكن يبقى السبب الرئيس ألا وهو خدمة دستور هذه الأمة ورمز رفعتها ومنار مجدها.

(*) بحثٌ تقدمت به في مقرر (قاعة بحث: البلاغة والنقد) في المستوى الرابع، وهو أول أبحاثي الجامعية إذ قدمته في السنة الثانية (١٤١٦هـ) إبّان دراستي في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وآثرت إبقاءه كما هو لترتسم صورة الأصل المخطوط بقلمي عدا ما ذُيِّلَ به من فهارس متنوعة؛ فقد اطّرحتها تخفيفًا.

ومما يجدر الإشارة إليه في هذه المقدمة هو منهج البحث الذي سرت عليه؛ إذ التزمت الخطة مع بعض التعديل اليسير، كما قد أذكر في هذا البحث لفظ (نا) أو غيره من الصيغ التي توحي بالتعظيم والفخامة، ولكن أعتذر عن ذلك بأني حين أكتبها إنما أنوي إشراك المتلقي معي فحسب، وقد حاولت أن أثري خزانة المتلقي بترجمة موجزة لبعض الأعلام التي أفدت من كتبهم، كما أنني حاولت جمع خلاصة ما في الكتب وخصوصًا في الفصل الأول، ومن ثم أحيل عليها بلفظ "انظر" فالبحث لا ينصب عليه بشكل أساس وإنما هو عبارة عن توطئة له إلا أنني قد أفرد بعض الأقوال فيما انفردوا به، وإلى جانب الأقوال أبين كيفية تعاملي مع الشواهد القرآنية فإنني أورد نص الشاهد القرآني ثم أبين في أي سورة كان ورقم الآية كذلك، ثم ألتفت إلى الشاهد وأوضحه مع بيان النكتة البلاغية إثر توظيف العنصر البلاغي لخدمة ذلك المعنى، وأما الفصلان الثالث والرابع فإنني أورد تعريفات المصطلحات لغة واصطلاحًا ثم أحاول الربط بين هذين الحدّين من دون أي تعسف، وإلى جانب القضايا المطروحة فقد وضعت فهرسًا للآيات الشريفة مرتبة على حسب سور القرآن، والآية في السورة مرتبة على حسب ترتيبها في السورة الكريمة؛ لأن القرآن الكريم هو مراد البحث وصلبه، وبعده فهرس المصادر والمراجع مرتبة على حسب حروف المعجم بدءًا بعنوان المؤلَّف، وإلى جانب هذين الفهرسين وضعت فهرس الموضوعات مبتدئًا بكتابة الفصل ثم المبحث، وأما الكتابة فقد خصصت اللون الأخضر للآيات الشريفة بالرسم العثماني، والأحمر لإبراز العناوين والتراجم، والأسود للهوامش، وما سوى ذلك باللون الأزرق.

وقد جهدت في هذا البحث نظرًا لطبيعة البحث ومشقته وما صاحبه من قلة الخبرة وصعوبة البداية؛ مما ولّد عندي شعور الخوف والرهبة، ثم زاد على

ذلك ضيق الوقت وعدم القدرة على تطويع النفس للرضوخ إلى مسيرة جديدة في الحياة؛ كما أن استخراج الكتب من المكتبة أمر صعب لعدم اعتماد جامعتنا وللأسف على الحاسوب، وإذا كان في إخراج الكتب صعوبة وبالغ شقّة فإن في التعامل معها ما هو أشد صعوبة؛ إذ ليس الأمر متوقفًا على حروف عطف وعبارات رنانة، إنما هو متوقف على كيفية ربط هذه المعلومات كي تخرج الفكرة قوية متماسكة، تلكم كانت أصعب الظروف التي واجهتها في كتابة هذا البحث.

ولكن ما بعد الضيق إلا الفرج؛ فالعزيمة الصادقة والاندفاع العام يحطم كل صعب من شأنه أن يعوق مسيرة النفْس المتطلعة، وإلى جانب العزيمة الصادقة فإنني لا أنسى جهد كل من وقف بجانبي وساعدني في هذا البحث من أصحاب الخبرة والمشورة في هذا المجال مما ساعدني على الخروج من تلك النفسية المتأزمة، فقد أرشدوني إلى استثمار الوقت والمسارعة في كتابة البحث وعدم التسويف؛ فالإنسان حينما ينظم وقته ويبادر إلى عمل الشيء فإنه يجد النفس في أعظم راحة وأهدأ سريرة، كما أنني أنوه بشكري لهم وعلى رأسهم د. صالح الزهراني الذي لم يبخل على أبنائه الطلبة بالنصح والمشورة وبث روح الجدية، كما أن لطريقة البطاقات الأثر الواضح في عملية التخلص من أزمة عملية التعامل مع المصادر والمراجع، فقد كانت أنجع وسيلة لجمع شتات المواضيع والقضايا البلاغية، كما هيّأ توافر الحاسوب في بعض المكتبات حلًّا مناسبًا لاختصار الوقت وتوفير الجهد، تلكم كانت أبرز العوامل التي ساعدتني على كسر حواجز الصعوبات فهي لا تتعدى أن تكون حالة نفسية سرعان ما تندفع وتزول...

بقلم:

عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالعزيز الخراشي

في تاريخ ٢٨ / ١٢/ ١٤١٦هـ

التمهيد

قبل الخوض في غمار هذا البحث كان لزامًا علي أن أعطي المتلقي نبذة يسيرة موجزة عن هذه السورة؛ ليقف معي بعد إلمامه بما يتعلق بها على أبرز معالمها، فتنزاح عنها الغمام؛ فيصفو الجو مما يساعدنا جميعًا على التحليق فوق سماء هذا البحث بكل يسر وأتم سهولة – بإذن الله- .

تقع سورة الأنبياء بترتيب المصحف الشريف في الجزء السابع عشر بعد سورة "طه"، وقد بلغ عدد آيها اثنتي عشرة بعد المائة، وهي مكية، كما يقع ترتيبها من حيث النزول كما ذكر محمد الطاهر بن عاشور[1]: "هي السورة الحادية والسبعون في ترتيب النزول نزلت بعد (حم السجدة) وقبل سورة (النحل)" ا.هـ.

وقد سميت بالأنبياء لذكر عدد كبير من الأنبياء فيها؛ فقد بلغ عددهم ستة عشر نبيًا، ولكن قد يقال: إن سوة الأنعام ذكر فيها ثمانية عشر نبيًا ومع ذلك سميت بالأنعام ولم تسمَّ بالأنبياء؛ فما هو الرد؟

الرد كما ذكر صاحب التحرير والتنوير أنه أحد أمرين[2]:

١- إما أن هذه السورة نزلت قبل سورة الأنعام فقد سبقت بالتسمية.

٢- أو أن اختصاص سورة الأنعام بذكر أحكام الأنعام أوجب تسميتها بذلك؛ فلم يبق من السور مستحقًا لهذه التسمية غيرُها.

---

(١) ارجع إلى تفسير التحرير والتنوير ج١٧ المجلد ٦ ط ١٩٨٤م، الناشر الدار التونسية للنشر ص٦، وإليكم ترجمة له: هو محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه، ولد سنة ١٢٩٦هـ في تونس، ونشأ فيها، ووتوفي بها سنة ١٣٩٣هـ" الأعلام ج١، ص١٧٤، ط١٠، دار العلم للملايين ١٩٩٢م.

(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير ج١٧ المجلد ٦ ص٥.

ولكن بعد التحقق والرجوع تعين التخريج الثاني ؛ إذ الأنعام أنزلت قبل الأنبياء وترتيبهما بين السور المكية من حيث النزول الخامسة والخمسون أما الأنبياء فترتيبها الثالث والسبعون[1].

وقد جاءت السورة الكريمة في معرضها مناسبة لما قبلها ؛ فقد ذكر جلال الدين السيوطي[2]: "ظهر لي في اتصالها بآخر سورة (طه): أنه سبحانه لما قال: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾(١٣٥) وقال قبله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾. قال في مطلع هذه: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ إشارة إلى قرب الأجل ودنو الأمل المنتظر. وفيه أيضًا مناسبة لقوله هناك: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ (١٣١)، فإن قرب الساعة يقتضي الإعراض عن هذه الحياة الدنيا، لدنوها من الزوال والفناء، ولهذا ورد في الحديث: أنها لما نزلت قيل لبعض الصحابة: هلّا سألت النبي – صلى الله عليه وسلم – عنها؟ . فقال: "نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا"[3].

ولقد جمعت هذه السورة موضوعات عدة دارت في مجملها حول العقيدة في محاورها الثلاثة "الرسالة، الوحدانية، البعث والجزاء"، وقد عبرت هذه السورة

---

(١) انظر كتاب دليل القرآن الكريم إعداد مصطفى محمود أبو صالح – ط جامعة الإمام عام ١٤١٣هـ. ولعلكم تلحظون أن الأخير قال: إن مرتبتها ٧٣ وصاحب التحرير والتنوير ذكر أنها في المرتبة ٧١ فلعل ذلك لا يتعارض؛ لأنه قد يعول على تقديم سورة على أخرى نظرًا للروايات في هذه الأخبار، أما ما بين السورتين – الأنعام والأنبياء – فبون شاسع لا يمكن لهذا التعليل أن يتبوأ مكانًا في مثل هذا – والله أعلم–.

(٢) أسرار ترتيب القرآن للحافظ جلال الدين السيوطي – دراسة وتحقيق: عبدالقادر أحمد عطا– ط الثانية ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م دار الاعتصام. ص١١٧ وإليكم ترجمة عنه: هو عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب له نحو ٦٠٠ مصنفٍ، ولد سنة ٨٤٩هـ وتوفي سنة ٩١١هـ. الأعلام ج٣ ص٣٠١.

(٣) ذكر المحقق بأنه لم يجد تخريجًا للحديث.

عن موضوعات عديدة كان من أبرزها كما ذكر ذلك صاحب كتاب صفوة التفاسير محمد بن علي الصابوني[1]:

١- أن السورة الكريمة بدأت بالحديث عن غفلة الناس بهذه الحياة الدنيا عن الآخرة وما فيها من جزاء وحساب وجنة ونار.

٢- ثم تحدثت عن حال المكذبين في الآخرة، وموقفهم من ذلك المصير المرير.

٣- ثم انتقلت السورة؛ لترشد النفس البشرية إلى الدلائل التي منحنا إياها في أنفسنا وفي الآفاق.

٤- وبعد عرض الأدلة والبراهين الدالة على وحدانية الخالق، تذكر السورة حال المعرضين المكذبين والمتكبرين ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– من استهزائهم وسخريتهم به وتكذيبهم له، وأن الله مهلكهم لا محالة.

٥- ثم تأتي السورة لتنفس عن قلب مصطفى هذه الأمة –صلى الله عليه وسلم– وتسليه بذكر قصص الرسل الأوائل والأمم الغابرة. ا.هـ. الصابوني.

ولقد كان لعرض هذه الموضوعات أساليب متنوعة من تقريع واستهزاء وتقرير وسخرية في إطار الترهيب، وفي مقابل ذلك الترغيب والتودد والتقريب، ولعلي أسوق هذه الأساليب باختصار:

١- يبدأ بمطلع قوي الضربات، يهز القلوب هزًا، وهو يلفتها إلى الخطر القريب المحدق، وهي عنه غافلة لاهية.

---

(1) انظر صفوة التفاسير ج٩ طبع على نفقة الشربتلي – دار القرآن الكريم – بيروت ص٣.

٢- يبدأ بأسلوب التقرير نحو ما يفعلون بالرسول –صلى الله عليه وسلم– من استهزاء وسخرية بأن مصيرهم مصير الأمم البائدة والغابرة قبلهم.

٣- يستعرض أحوال أولئك الرسل وأمتهم في أسلوب قصصي تعلوه الرتابة مما يحدث التسرية في النفس.

٤- تختم السورة بأسلوب مماثل لما بدأ به في إيقاع يوحي بشدة الموقف وتأزمه، وبإنذار صريح، وتخلية بينهم وبين مصيرهم المحتوم.

تلك وقفات سريعة كان لابد منها؛ لإعطاء القارئ صورة مصغرة تمثل جوانب السورة الكريمة على وجه الإيجاز، آمل أن أكون قد وفقت في عرض هذه السورة وحيثياتها في أسلوب يفيد المتلقي.

الفصل الأول: إعجاز القرآن الكريم

إعجاز القرآن لا تحده وريقات عابرة، ولا كتب مطولة؛ فالقرآن الكريم كلام الله المعجز بذاته منه بدأ وإليه يعود، وكلام الله لا يحده واصف ولا يوقفه حد ساحل فهو معين لا ينضب؛ إذ فيه جواب كل سائل، ودليل كل حائر، أما ما بين أيدينا من كتب جليلة بحثت الإعجاز القرآني، كل في تخصصها أو بغية مؤلفها، وإن جمعت كل هذه الكتب، فإن بعض الحكم الإلهية تبقى خافية علينا هي من شأنها إعجاز، ولكن لا ضير أن يسعى المسلم كل بحسب ما أوتي من جهد وعلم ومثابرة في سبيل تكريس الجهد الجاهد لزيادة تأكيد متانة عظمة القرآن الكريم.

المبحث الأول: وجوه الإعجاز في القرآن الكريم – باختصار–

من خلال تلك الإشارة السريعة يجدر بي أن أحاول لمّ شتات هذا الموضوع المتناثر على حسب طاقتي؛ مما جعلني أرد هذا الإعجاز إلى وجوه يرجع كل منها إلى خدمة علم قائم بنفسه في سبيل خدمة البشرية أو الفكر الإنساني أو لغتنا العربية.

وكان من هذه الوجوه: خدمته لهذه البشرية جمعاء من بيان أحوالهم من الخلق وصولاً بهم إلى أرذل العمر، ويحضّهم في تدبر أمور حياتهم مع بيان لصفاتهم الظاهرة والباطنة على أدق تصوير ثم وصف العلاج لما يعتريهم من أمراض كامنة في النفوس؛ ليتيسر عليهم سبيل الراحة في هذه الحياة، وكما أن القرآن الكريم شفاء لما في الصدور؛ فإن به إعجازًا علميًا مما حفز علماء الطب والتشريح والطبيعة وغيرهم إلى الإفادة من هذ القرآن لما فيه من درر كامنة، وقد

دل على ذلك إشادة غير المسلمين بما فيه مما جعله وجهًا من أوجه الإعجاز القرآني[1].

وإلى جانب خدمته للبشرية، فإن القرآن قد خاطب ذوي العقول والأفهام مخبرًا إياهم بأخبار لها في خصوبة الفكر باعٌ قديمًا وحديثًا؛ فقد جاء بشرائح التاريخ القديمة؛ ليبين أنه قد وسع كل شيء علمًا ولحِكَم أخرى، كل ذلك لحكمة بالغة الأثر والتأثير، ثم بعد ذلك تجمع بين مصراعي هذه الحياة ودقتها بإخباره عن أمور مغيبة عن العقل لا يصل إليها أحد ولا حتى بمجرد التخرص والتخمين، ثم ينبه على أمور مهمة؛ إذ بهما مصادر العيش والرفاهية تصريحًا وإشارة، وفي كل هذا مصلحة للمؤرخين والمخترعين وأصحاب الحرف وغيرهم؛ مما حفز بهذا المحور إلى الوصول إلى قمة أوجه الإعجاز القرآني[2].

وإذا ما أمعنا النظر في هذا القرآن الكريم؛ فإننا نجد علومًا علمت بسبب هذا القرآن وانبثقت عنه كعلم التفسير وعلم الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والقراءات والفرائض والفقه والعقيدة و... و..[3]؛ فإذا كان لتلك العلوم شرف انبثاقها من القرآن الكريم فإن اللغة العربية اكتسبت منه ثوب الحفظ؛ لأنها محفوظة بحفظ الله للقرآن، ولا يعني ذلك مجرد ألفاظها أو حروفها وإنما يعني أسلوبها وبلاغتها؛ إذ القرآن معجز في بلاغته وأسلوبه، فهو معجز بإعجازه اللغوي.

---

(1) انظر كتاب "معجزة القرآن" نعمت صدقي – دار الاعتصام – ط ٢، ١٣٩٨هـ وكتاب "القرآن إعجازه وبلاغته" د. عبدالقادر حسين. ط الأمانة – مصر – ص٨٨ – ١٠٦.

(2) انظر كتاب "من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله – عز وجل- " د. محمد سعيد رمضان البوطي – مكتبة الفارابي – ص ١٥٩- ١٦٢، وكتاب عبدالقادر حسين – تقدم – ص٦٨- ٧٥ وكذلك كتاب "المعجزة الكبرى القرآن" الإمام محمد أبو زهرة – دار الفكر العربي – ص ٣٣٩- ٣٤٢.

(3) انظر "المعجزة الكبرى القرآن" – تقدم – ص٥١٩ – ٥٤٧.

- كتاب "القرآن إعجازه وبلاغته" – تقدم – ص ١٠٦- ١٠٨.

وإذا ما أردنا الحديث عن الإعجاز اللغوي يجدر بي أن أشير إلى بطلان مذهب القول بالصرفة ؛ أي أن الله صرف البشر عن الإتيان بمثله ؛ لأن الإعجاز على هذا الرأي لا فائدة منه فلو أنك تحديت إنسانًا على خوض بحر ثم سلبت منه أسباب النجاة ما كان ذلك تحديًا بل الجبن والخور ذاته[1]، ومن ذلك يتعين القول الصحيح بأن الله قد تحدى العرب واختار أنسب أوقات مجدهم ونضجهم في الفصاحة والبلاغة ومع ذلك لم يعارضه أحد منهم ولن يعارضه إلى يوم الدين.

ثم إن وجه إعجازه اللغوي قد خاض فيه علماء المسلمين حتى وصل إلى أوج ازدهاره عند الشيخ عبدالقاهر –رحمه الله تعالى– مرورًا بالعصور الأدبية وصولًا إلى الوقت الحاضر.

فلعلي ألخص الإعجاز البلاغي من خلال وجهين هما :

١) المعنى.

٢) الأسلوب.

وإن كانا مترابطين إلا أن الأول منهما ينبع منه روافد كثيرة منها :

أ- تأثيره في النفوس وإيصال المعنى إلى القلب في أبلغ تعبير وصورة.

---

(1) انظر كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني، ص ٢٠- ٢١، والخطابي – ص١٠١، وعبدالقاهر الجرجاني – ص١٣٣- ١٤٢ تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام. دار المعارف –مصر– وإليك ترجمة عنهم:

١- الرماني: هو أبو الحسن علي بن عيسى الرماني ولد في بغداد سنة ٢٩٦هـ ونشأ نشأة فقيرة يقال: إنه معتزلي توفي سنة ٣٨٤هـ. الأعلام للزركلي ج ٤ ص ٣١٧.

٢- الخطابي: هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي ولد سنة ٣١٩هـ، وأقام بـ"بست" وتوفي فيها سنة ٣٨٨هـ. الأعلام للزركلي ج٢ ص٢٧٣.

٣- عبدالقاهر الجرجاني: هو أبوبكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني، عاش في القرن ٥ هـ وتوفي على الراجح عام ٤٧١هـ. شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج٣/ ص ٣٤٠ لأبي الفلاح الحنبلي ت١٠٨٩هـ دار إحياء التراث العربي – بيروت - .

ب- شرف المعنى المؤدّى ونبله.

ت- جدّة المعاني ؛ فهي معانٍ إسلامية.

ث- سهولة المعاني وعدم وجود التعقيد فيها.

وغير ذلك من الروافد التي كان الأسلوب يمسك بها ليؤديا وظيفتهما على أكمل وجه ممكن.

وأما الوجه الثاني فهو الأسلوب، وإذا ما أطلق الأسلوب فإنه يراد به:

١- تنغيم الحروف وجرسه.

٢- اللفظ.

٣- سلامة التركيب.

٤- أسلوب البيان الرفيع والتصوير.

٥- رتابة الأحداث وسلامتها.

فإذا ما لوحظ الجرس الموسيقي في القرآن، فإنه معجز بذاته؛ لتعلق المعنى بهذا الجرس، ولذلك تجد بداية بعض السور بمثل هذه الأحرف المقطعة.

وأما اللفظة فتجدها عفيفة في القرآن مكتسية الخجل تارة والجزالة تارة أخرى حسب المقام، كما تجد شفافية اللفظ عن معناه من دون أن يصحبه أي تعقيد من شأنه أن يغلق المعنى؛ مما يدل على حساسية اللفظة ودقة اختيارها، كما تجدها سهلة مرغبة تبسم من ثغرها لحلاوتها، وتجدها حصينة مرهبة تضرب على يد الظالمين في مقابل الموقف الأول، وإلى جانب ذلك نلاحظ تحمل الألفاظ أعباء المعاني؛ إذ تجد اللفظ يحتمل معنى فوق طاقته من دون أي إخلال أو إيهام؛ فكل لفظ لغرض، وما حذف منه ليس إيهامًا وإبهامًا –تعالى الله عن ذلك – بل لشحذ الأذهان نحو التدبر في المعاني ولعدم تعلق المعنى به أو لدلالة المذكور عليه من باب الإيجاز والاختصار؛ فالبلاغة الإيجاز.

وإذا ما رأينا ذلك التآخي بين الألفاظ والتآلف أيقنا سلامة التراكيب حتى تخرج في أعظم زينة وأحسن بهجة ؛ فتجلس الكلمة بجنب أختها في هدوء وسكينة لتحقق بذلك التحامًا وثيقًا بين أجزاء التراكيب وهو ما سماه الشيخ عبدالقاهر: "توخي معاني النحو"[1].

وكذلك تتكاتف الجمل من دون تناثر في المواضيع ؛ فالجمل تسير معانقة أختها ؛ مما يوجد أسلوب البيان الرفيع، الذي يعطيك انطابعًا تصويريًا عن تلك الأحداث الجارية في السورة الكريمة، كما يرتقي ببناة الأفكار وعلى أساس أسلوب التصوير والمشاهدة ليجعلك تعيش والأحداث في جو بالغ الأثر والتأثير.

وإذا كان الجانب التصويري وتكاتف الجمل أثّر في النفس، فإن لوحدة البنى في السورة من مقدمة وعرض وخاتمة أثرًا بالغًا في رتابة الأحداث وتسلسلاتها وفق نظام مدروس ومحكم ؛ مما يجعل الأحداث تسير في سكينة من دون أيّ عائق يعترضها لعدم كسر الرتابة والجريان حركة الانتظام فيها.

وبعد هذا الاستعراض السريع للكليات التي منها منطلق الجزئيات المتناثرة في بيان أوجه الإعجاز في القرآن، فإنني أركز على وجه الإعجاز البلاغي كما هو واضح فيما سلف، ونتيجة لهذا الاهتمام فإنني قد ربطت بين الكلام النظري والشواهد التطبيقية حتى يقف المتلقي على شواهد الإعجاز بصورة واضحة وجليّة.

---

(1) انظر كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم" – تقدم – ص ١٨٢ – ١٨٣.

- والتعبير الفني في القرآن د. بكري شيخ آمين، ط١، دار الشروق – بيروت - ، ومن بلاغة القرآن لأحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ط١، ص ٢٠٧- وما بعدها، ومن روائع القرآن – تقدم – ص١٦٢ – ١٨٣، والمعجزة الكبرى القرآن – تقدم – ص ١٢٧- ١٥٥، والقرآن إعجازه وبلاغته – تقدم ص ١٠٨ – ١١٤.

المبحث الثاني: بعض شواهد الإعجاز البلاغي

١) شواهد علم المعاني:

أ- قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ (الفاتحة)؛ فإن تقديم المفعول به وانفصال الضمير جاء لنكتة بلاغية، وهي اختصاص الرب –جل شأنه– بالربوبية وطلب العون، أما لو أخرت المتعلق فاتصل بالفعل لانتفى التخصيص، وحلّ محلّه معنى محذور وهو اشتراك الشريك مع الله في الربوبية والعون. وهذا ما يعرف في علم المعاني بـ "مبحث التقديم والتأخير".

ب- وقال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ... ﴾ (البقرة: ١٧٩) فقد حوت هذه الأحرف القليلة معاني جسيمة، ليس من شأن أي كلام يبلغ شأنها في درجة إيجازها، ولذلك عقد الشيخ عبدالقاهر موازنة بين هذه الآية وقول العرب: القتل أنفى للقتل، بيّن فيها أن الآية أبلغ وأوجز من خلال أربعة أوجه: "أنه أكثر في الفائدة، وأوجز في العبارة، وأبعد من الكلفة بتكرير جملة، وأحسن تأليفًا بالحروف المتلائمة"[1] وهو ما يسمى: "إيجاز القصر".

ج- وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ (البقرة)؛ فإن هاتين الآيتين اشتملتا على أربع جمل كل واحدة مؤكدة لأختها السابقة عليها؛ مما أوجد كمال الاتصال، كما يذكر ذلك د. فضل

(١) ثلاث وسائل في إعجاز القرآن – تقدم – ص ٧١- ٧٢.

حسن عباس[1]: "(ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ) أتت عقب قوله (الٓمٓ) ومعنى (الٓمٓ) أن ذلك إشارة إلى أن القرآن يتكون من هذه الحروف التي تنطقون بها، وقوله سبحانه: (لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ)؛ تأكيد لـ (ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ) لأن معنى (ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ)؛ أي: الكتاب في علو الشأن، وبعد المنزلة، والسمو، والرفعة، وإذا كان كذلك؛ فلا ينبغي أن يكون فيه أي نوع من أنواع الريب. وقوله سبحانه: (هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ)؛ تأكيد لقوله: (لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ)؛ لأن الغرض الأسمى من الكتب السماوية أن تكون هداية".

ولعلي أزيد في النكتة البلاغية؛ إذ ليست مقتصرة على التأكيد إنما التأكيد يصحبه التخصيص؛ فبالأول ذكر رمزًا، ثم المرموز، والمرموز تخصيص لكل المعاني التي تدور في ذهن المتلقي، ثم تخصيص المرموز بعدم الريبة والشك فيه، ثم استدعاء المعنى للتخصيص بعد ذلك؛ فعدم الريبة سبب قوي يؤدي إلى الهداية بعد الضلال.

٢) شواهد علم البيان:

أ) قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ (الجمعة: ٥)؛ فقد شبه حالة اليهود بحملهم التوارة وما فيها من تشريعات ونظم بالحمار –أعزكم الله– الذي يحمل على بردعته المنافع ويحتمل المشقة من دون الانتفاع بها، في الجهل وعدم الانتفاع في كلّ، والنكتة البلاغية في هذا التشبيه هو ذلك التصوير الشنيع لحالهم وقد فسرها

---

(1) ارجع إلى البلاغة فنونها وأفنانها، د. فضل حسن عباس. ج١ (علم المعاني) دار الفرقان، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ص٤٠٥- ٤٠٦.

الشيخ عبدالقاهر[1]: "العيب لطريقة من ضيع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية".

ب) قال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ (الأعراف: ١٦٨)؛ فقد استعار التقطيع الذي فيه فصل وإزالة الاتصال لتفريق الجماعة وإبعاد بعضهم عن بعض، ثم حذف المستعار له، وأقام المستعار منه وهو "التقطيع" مقامه، ثم اشتق منه الفعل "قطّع" على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ولكن النكتة البلاغية في هذه الاستعارة تنبع من الفعل المضعف (المستعار) "قطع"؛ فزيادة المبنى زيادة في المعنى؛ لأن التضعيف هنا قد أفاد شدة فصلهم عن بعض والنكاية بهم ليخرج معنى التأكيد على هذا الجزاء في أعظم قوة وفخامة.

ج) قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الإسراء)؛ فقد نهى سبحانه عن البخل وصوره بأبلغ صورة حسية مشاهدة فاليد المغلولة كل منا يتصورها بدون عناء ولا تكلف ولكنه لم يجعلها مغلولة فحسب، بل جعلها إلى العنق كذلك، فبعد هذا التأمل وازن بين هذا القول وقولك في مباشرة من الأمر: "اجتنب البخل"، وكذلك تأمل قوله: (كُلَّ ٱلْبَسْطِ)؛ لتدرك أن النهي ليس عن أي حالة من حالات البسط، وإنما عن البسط الذي فيه تفريط[2].

والحاصل أن الكناية هنا قد أدت ما لم تؤده الحقيقة؛ إذ أفادت دقة التصوير وجمالية الصورة وشفافية الطلب. والله أعلم

([1]) ثلاث وسائل في إعجاز القرآن – تقدم – ص ٧٧ - ٧٨

([2]) البلاغة فنونها وأفنانها ج١ ص٢٦٠.

٣) **شواهد علم البديع:**

أ- **المحسنات المعنوية:**

قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ (الإسراء: ٨٨)

إذا تأملنا هذه الآية الكريمة نجد أن الله يرشد نبيه إلى الرد على المشركين فمن أوتوا الفصاحة والبلاغة في تحد ليس لهم فحسب، إنما استغراق لأفراد الإنس والجن من خلال ذلك الطباق الذي حصل به استغراق جميع من يتحداهم القرآن ممن ملكوا العقل واللغة في أبهى عصورها ووقت اشتداد ثمرها.

ب- **المحسنات اللفظية:**

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾(٥٥) فهذه الآية الكريمة جمعت بين لفظين متجانسين جناسًا تامًا في اللفظ ومختلفين في المعنى؛ إذ الأول بمعنى يوم القيامة، والثانية بمعنى الوقت المستقطع من الزمن فمن خلال هذا الجرس الموسيقي وتحت قانون هذا التنغيم يحدث للمتلقي انخداعٌ يجعله يزيد في التأمل في هذه الفكرة، وبذلك تتأكد الفكرة وتترسخ.

ومن خلال هذه الشواهد القرآنية المعجزة في بلاغتها، والتي أشبه ما تكون بواحة غناء حفت بالأشجار وشكلتها الخضرة والرياحين وشذاها ريح الزهور، فلعلنا نلنا ولو قدرًا يسيرًا من عبقها الفواح ونسيمها العليل.

ثم أختم هذا الفصل بكلمات أعبر فيها عن أسفي فيما قد يلقاه المتلقي من تقصير في تناول بعض القضايا وترك أخرى، ولكن لعلكم تستبيحون ذلك بتحليل الشواهد وملامسة النكت فيها، وضحالة فكر الطالب مع خصوبة فكر هذا الفصل وكثرة تشعباته.

الفصل الثاني: بديع القرآن الكريم

عندما نتحدث عن مفهوم هذا العنوان يجدر أن نشير إلى أن المقصود من البديع هنا هو المصطلح المشهور عند البلاغيين المتأخرين، وهو كما عرفه صاحب الإيضاح: "هو علم يعرف به وجود تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة"[1].

ثم لما كان من سجية التقعيد والتقنين حسب التقسيم، قُسّم البديع إلى محسنات لفظية ومحسنات معنوية إلا أن المحسنات اللفظية بمجرد الزينة اللفظية لا مكان لها في آيات كتاب الله لأن اللفظ فيها يلحق المعنى؛ فالمعنى بعد تبوئه المكان المناسب يناجي اللفظ المستحق لذلك.

فمن خلال ذلك التعريف اتضح المقصود من معنى (البديع) في العنوان، وعلى ذلك انطلقت في بيان خصائص ذلك البديع في كتاب الله –عز وجل–، ومن ثم إيراد بعض الشواهد على بعض المحسنات المعنوية واللفظية مع بيان وجه الإعجاز فيها من خلال استنباط النكتة البلاغية وأثر ذلك في المعنى المراد.

---

(1) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة المعارف في الرياض – ط٧ ج٤ ص٣ لعبدالمتعال الصعيدي وإليك ترجمة عنه وعن صاحب الإيضاح: – الخطيب هو: محمد بن عبدالرحمن بن عمر، أبوالمعالي، جلال الدين القزويني الشفعي، المعروف بخطيب دمشق، ولد في الموصل سنة ٦٦٦هـ وتوفي سنة ٧٣٩هـ. الأعلام ج٦ ص١٩٢ – والصعيدي هو: عالم إصلاحي من شيوخ الأزهر بمصر، ولد سنة ١٣١٣هـ، تيتّم صغيرًا فربته أمه، توفي بعد ١٣٧٧هـ. الأعلام ج٤ ص١٤٨.

المبحث الأول: "خصائص بديع القرآن"

إذا ما تأملنا كتاب الله –عز وجل– متدبرين معانيه وألفاظه وأسلوبه وجدنا بوارق البديع ظاهرة –شأنها شأن الأساليب البلاغية الأخرى– وجواهره برّاقة، تسحر المتلقي مستثيرة مشاعره الوجدانية لتستطيع شحذ همته نحو تدبر الفكرة وتأملها تأملًا يوجد الأثر والتأثير.

ولعل خصائص البديع في القرآن الكريم تنطلق من منطلق ترابط اللفظ مع المعنى وتبعيته له، وقد بين د. فضل حسن عباس خصائص البديع فقال[1]: "يتسق ذكر البديع في القرآ ن الكريم مع غيره من الأساليب التي جاءت في أرفع درجات البلاغة؛ لذلك نجد أن ما جاء في القرآن منه، –أي من هذا البديع– كان أولًا في غاية الحسن، مطبوعًا ليس فيه أثر للصنعة أو الكلفة كما رأينا في أنواع البديع الكثيرة وبخاصة عند المتأخرين، كما جاء كذلك غير منفصل عما يقتضيه النظم، ويتطلبه المقام؛ أي أن بدائع القرآن لم تأتِ منفصلة عن روعة النظم التي عرفناها في علم المعاني، كما لا يأتي منفصلًا عن جمال الصورة التي عرفناها في علم البيان".

وبعد ذلك فلعل خصائص البديع في القرآن الكريم تكمن في عنايته باختيار الألفاظ إلا أن هذا الاختيار مع ما يُتوخى فيه من دقة للدلالة على الموضوع ورقة في المعنى، فإنه لا يقيم لجانب التنسيق والتنميق في الألفاظ وزنًا إذا كان ذلك على حساب المعنى[2].

وإذا تأمل الإنسان أكثر في آيات الله وتدبرها، فإنه يلاحظ البديع على سجيته، فلا يجد الآيات محشوة بالبديع الذي قد أوصله البلاغيون كما هو عند

---

(1) البلاغة فنونها وأفنانها ج٢ ص٣١٠.

(2) انظر البلاغة فنونها وأفنانها ج٢ ص٣١٦ – ٣١٧.

ابن أبي الأصبع المصري إلى ١٠٩ محسن بديعي[١]، إنما يجده على قدر يسير؛ إذ يحكمه طلب المعنى له وعدمه.

تلكم كانت نبذة يسيرة عن خصائص البديع في القرآن، ولكن يبقى جانب التطبيق والتحليل مهمًا لكي يؤكد الجانب النظري بشواهد تحليلية تكشف مدى رزانة بديع القرآن وحصانته عن جهده الجاهد في خدمة المعنى وتوضيحه.

(١) انظر بديع القرآن لابن أبي الأصبع – تقديم وتحقيق حفني محمد شرف – ط١، عام ١٣٧٧هـ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، وإليكم ترجمة موجزة عنه: هو أبو محمد زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالواحد بن ظافر بن عبدالله بن محمد المصري المعروف بأبي الإصبع العدواني، ولد في مصر سنة ٥٨٥هـ، ونشأ فيها، وتوفي هناك سنة ٦٥٤هـ.
شذرات الذهب – تقدم–، المجلد ٣/ ج٥/ ص٤٣٩.

المبحث الثاني: شواهد على بديع القرآن الكريم

بعد أن أصّلت خصائص البديع في القرآن في الأذهان كان لزامًا أن تؤكد تلك الخصائص بالشواهد؛ ليتبين للمتلقي إبداعية تلك المحسنات وأهميتها ورقة معانيها وانسجامها مع عملية النظم وعملية التصوير؛ ليظهر الجميع في التحام وترابط لا يغني جزء من الأجزاء الباقية فكل منهما مكمل للآخر.

أ) المحسنات البديعية المعنوية:

١- قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ ﴾ (فصلت: ٢٨) فإن النار قد انتزع منها دار الخلد للكافرين عقابًا لهم ونكاية بهم، وهذا ما يسمى بالتجريد؛ فقد أفاد الانتزاعُ في ذلك أسلوب السخرية والتهكم بهؤلاء الطغاة.

٢- وقال الله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ (الشورى: ٤٠) فإنكم تلحظون التشاكل بين (سيئة) الأولى والثانية، ولكن المعنى في الثانية هو (الجزاء)، وإنما أتى بلفظ مشاكل للأول؛ لأن اللفظين يشتركان في الكيفية والصيغة من دون المبدأ؛ مما يحدث عند المتلقي تأثيرًا بحيث يقف عند تلك الآية غير فيرتدع وينساق في طريق الخير.

٣- وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾ (البقرة: ١١١) تدبر هذه الآية، تجد الضمير في الفعل (وَقَالُواْ) يقصد به اليهود والنصارى؛ إذ دل عليه ما بعده في قوله: (هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ)؛ فجاء باللف في الضمير ثم فسره ونشره بقوله: (هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ)، وهذا ما يسمى باللف والنشر، وتخرج النكتة من خلال الاختصار

الذي أفاد الآية قوة التماسك ووحدة البناء ؛ فالمعنى من غير اختصار يصبح: وقال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا. والله أعلم.

ب) المحسنات البديعية اللفظية:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ (الصافات: ٧٢- ٧٣) يبين الله تعالى لنبيه قصصًا عن الأمم الغابرة، وأنه قد أرسل لهم رسلاً منذرين لهم، فعصوا وعتوا، فعاقبهم الله بذنبهم ؛ فإن المتلقي حينما يقف عند هاتين الآيتين يجد ذلك الجناس –غير التام– بين (مُّنذِرِينَ) و(مُّنذَرِينَ) فيتأثر عقله وفكره بالفكرة تمام التأثّر بعد التمتع بذلك وجدانيًا من ناحية التّنغيم والموسيقا.

٢- وقوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ (نوح) فالسياق يتحدث عن الخضوع لله والاستجابة لأوامره ؛ فالإيقاع كان وسيلة لتأمل الفكرة، والناحية الصوتية مهمة لناحية الفكرة ؛ فالمسألة ليست تنغيمًا فحسب، إنما هي لافتة لذهن المتلقي وبارقة له حتى يربط بين الخضوع لله وعبوديته وبين خلق الله له على مراحل ؛ ليخرج بنتيجة وجوب شكر العبد لربه بفعل الأوامر وترك النواهي.

٣- وقال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ (نوح) فإن عجز هذه الآية قد انتكس على صدرها ورجع عليه، وهو ما

يسمى برد العجز على الصدر، محدثًا في ذلك تأكيدًا على أهمية طلب العبد المغفرة من الله من دون غيره؛ إذ هو الغفور، في إيقاع موسيقي يضفي الخفة والجمال بعد تمام المعنى والمطلب.

وبعد هذه العجالة من مناقشة لقضية البديع في القرآن، ومدى علاقة اللفظ بالمعنى، وعدم انفصال الأول عن الثاني، ومن خلال تلك الشواهد التطبيقية المحلَّلة، فإننا نؤمن جميعًا بأن هذا القرآن بديع في معناه ولفظه، حسن في نغماته الصوتية ونبراته الموسيقية، التي تنساب وراء المعاني الشريفة، والمقاصد النبيلة؛ إثر حتمية ووقار وفي تؤدة واستقرار، لتؤلف نظمًا فريدًا يسمو إلى سماء الحسن وشرف الرفعة والكرامة.

الفصل الثالث: البديع المعنوي في سورة الأنبياء

بعد أن وقفنا في التمهيد على أبرز معالم السورة، ثم مهدت بالفصل الأول للحديث عن إعجاز القرآن الكريم، ثم خصصت الحديث عن الإعجاز البلاغي، ثم دقق النظر في جانب من جوانب البلاغة وهو البديع، ناسب أن أذكر هنا ملامح ذلك البديع من خلال الوقوف على أبرز شواهده في سورة الأنبياء.

وقد أفرد هذا الفصل للحديث عن ثلاثة محسنات من محسنات البديع المعنوي وهي: الطباق والمقابلة ومراعاة النظير، ولكنني لن أستقصيها كلها، إنما سأكتفي بالكثرة الكاثرة فيها محاولاً تحليلها من خلال توظيف المحسن لخدمة الفكرة؛ فالفكرة المستفيد الأول منه.

المبحث الأول: الطباق في سورة الأنبياء

أ) تعريفه:

- لغة: قال ابن منظور: "تطابق الشيئان: تساويا. والمطابقة: الموافقة. والتطابق: الاتفاق"[1].
- اصطلاحًا: كما عرفه الخطيب بقوله: "الجمع بين المتضادين أيّ معنيين متقابلين في جملة"[2].
  - الصلة بين التعريفين:

([1]) ارجع إلى لسان العرب لابن منظور – الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت – مادة: "طبق"، الجزء ١٠ ص٢٠٩، وإليك ترجمة عن مؤلفه:

محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي ... الإمام اللغوي الحجة، ولد سنة ٦٣٠هـ، وتوفي بمصر سنة ٧١١هـ، وقد ترك بخطه ٥٠٠ مجلد. الأعلام ج٧ ص ١٠٨.

([2]) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح لعبدالمتعال الصعيدي – تقدم- الجزء الرابع ص٤.

قد لا يعني التساوي أو التوافق المماثلة، إنما قد يعني التساوي في الاتجاه والتوافق في المقدار؛ بمعنى أن تسلط السالب في جهة وتعمل الموجب في جهة مع توافقهما في التأثير لا الصفة والكيفية، وبذلك نربط بين المعنيين بأن الجمع بين متوافقين أو متساويين بحيث يكون الأول وجهًا مرموقًا لعملة والآخر يمثل الوجه الآخر للعملة، فمن خلال ذلك يتبين التضاد بينهما. - والله أعلم-

ب) شواهده موشاة بأثره في تحسين المعنى:

١- قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾؛ فقد جمع هنا بين السماء والأرض؛ فالأول في منتهى العلو والآخر يضاده فهو في منتهى الدنو؛ ليجذب الانتباه وليستثير المشاعر، ومن ثم يؤكد في الأذهان حقيقة علمه في كل أرجاء هذا الكون فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

٢- وقوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الطباق بين (الحق والباطل)، قال أبو السعود[1]: "... شأننا أن تُغَلّب الحق الذي من جملته الجد على الباطل الذي من قبيله اللهو"؛ فمن خلال ذلك تبين لنا هذا الموقف الذي يعرض الله فيه صورة من صور نصره للحق وأهله وإسقاطه

(١) تفسير أبي السعود – دار إحياء التراث العربي؛ بيروت – المجلد: ٣ ج٦ / ص٦٠، وأبو السعود هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي الإمام العلامة، ولد سنة ٨٩٨، (واختلف في وفاته ولعل أصح شيء هو ما ذكره شذرات الذهب لقربه من عصره)، فقد توفي سنة ٩٨٢هـ.
شذرات الذهب المجلد: ٤ ج٨، ص٢٩٨.

للباطل وشرذمته في هذا الطباق الذي أوحى للمتلقي كيفية تصوير هذا المشهد العظيم من خلال توظيف هذا التضاد.

٣- وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

هنا مطابقة بين (هذا ذكر من معي) وبين (وذكر من قلبي)، قال الفخر الرازي[1]: "أي هذا هو الكتاب المنزل على من معي (وهذا ذكر من قبلي)؛ أي الكتاب المنزل على من تقدمني من الأنبياء وهو التوراة والإنجيل والزبور والصحف"؛ فيأتي هذا الطباق بين الكتب السابقة وهذا الكتاب وهو الأخير ليبين في داخله الاستقصاء البيّن لكل ذِكْرٍ من قبل ومن بعد للدلالة على أحقية الإله – عز وجل – بالألوهية.

٤- وقال سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ هنا طباق بين قوله (ما بين أيديهم) وبين (وما خلفهم)، قال أبو السعود[2]: "... فإن لعلمهم بإحاطته تعالى بما قدموا وأخروا من الأقوال والأعمال لا يزالون يراقبون أحوالهم فلا يقدمون على قول أو عمل بغير أمره تعالى".

---

(1) التفسير الكبير – دار الفكر، بيروت- ط١ ج١١ في الجزء ٢٢ ص١٥٨. وهو: العلامة الكبير ذو الفنون، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين القرشي البكري الطبرستاني الأصولي المفسر كبير الأذكياء والحكماء والمصنفين، ولد سنة ٥٤٤هـ، وتوفي بـ (بهراة) سنة ٦٠٦هـ بعد أن تاب وترك الكلام وأهله سير أعلام النبلاء للذهبي تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نسيم العرقسوسي – مؤسسة الرسالة ط٧/ ج ٢١ / ص٥٠٠.

(2) تفسير أبي السعود – تقدم – المجلد: ٣ الجزء: ٦ ص٦٤.

وفي هذا التطبيق بيان لإحاطة علم الله بهم من خلال تعليق علم الله بما أمامهم وما خلفهم مما من شأنه الإحاطة، والعلم بكل الجهات مما يفوّت عليهم العمل بغير إذنه.

٥- وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

هنا تطابق بين قوله: (رتقا) وقوله: (ففتقناهما)، قال أبو السعود[1]: "الرتق: الضم والالتحام"، والفتق: الفصل، قال جار الله الزمخشري[2]: "معنى ذلك أن السماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما أو كانت السماوات متلاصقات وكذلك الأرضون لاقرج بينهما ففتقها الله وفرج بينها وقيل: ففتقناهما بالمطر والنبات بعدما كانت مصمتة".

ففي هذا الطباق بيان لقدرة الله وتدبيره خلقه على أعظم وجه، وفيه أيضًا تمام لمّ أجزاء هذه الصورة.

٦- وقد قال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ هنا تطابق بين (الشر والخير)، قال أبو السعود[3] في معنييهما: "بالبلايا والنعم" وفي هذا الفناء تحديد

(١) تفسير أبي السعود – تقدم – المجلد: ٣ ج٦ ص٦٤.

(٢) الكشاف – دار المعرفة بيروت – ج ٣ ص٩، وإليكم ترجمة عن صاحبه: هو العلامة كبير المعتزلة، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي النحوي، كان رأسًا في البلاغة والعربية والمعاني والبيان، ويلقب بـ(جار الله)؛ لأنه قد جاور بمكة زمانًا، وُلدَ بزمخشر في رجب سنة ٤٦٧هـ، وتوفي سنة ٥٣٨هـ. سير أعلام النبلاء ج٢٠/ ص١٥١.

(٣) تفسير أبي السعود – تقدم – ص ٦٦ المجلد: ٣ ج ٦.

لما يصاب الإنسان به مع بيان الحكمة من ذلك، ولكن ذلك التحديد ليس مقتصرًا على المصائب فيقنط الإنسان كما أنه ليس مقتصرًا على النعم فيبطر، إنما هو مصاب بهذه وهذه؛ مما أفاد جعل الإنسان في موقف يوازن فيه أموره ومصائبه.

٧- كما قال سبحانه: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾ هنا مطابقة بين قوله: (مَا لَا يَنفَعُكُمْ) وقوله: (وَلَا يَضُرُّكُمْ)، مما أفاد المتلقي مدى بطلان تلك الآلهة عن طريق قياس مبدأ التأثير من جهتين حتى لا يكون هناك فرصة لمتشبّث في هذه الآلهة.

٨- وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ هنا طباق بين قوله: (يَـٰنَارُ)، التي من شأنها الحرارة والإحراق وبين قوله: (بَرْدًا) التي من شأنها البرودة والإفناء إلا أنها قيدت بقوله: (وَسَلَـٰمًا) وقد أفاد هذا الطباق بيان قدرة الخالق في مخلوقاته مع لطفه بعباده.

٩- كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾. هنا تطابق بين قوله: (رَغَبًا) وقوله: (وَرَهَبًا ۖ)، ومعنى ذلك كما ذكر أبو السعود[1]:

(١) تفسير أبي السعود – تقوم – ص ٨٣. المجلد: ٣ ج٦.

".. راغبين في الثواب.. وخائفين العقاب"، فقد أتت المطابقة لبيان حال هؤلاء الصالحين ؛ فهم بين الرجاء والخوف.

١٠- وقد قال – جل وعز–: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ هنا مطابقة بين قوله: (بَدَأْنَآ) وقوله: (نُّعِيدُهُۥ)، ومعنى ذلك كما ذكر صاحب الكشاف[1]: "أي أوله إيجاده عن العدم فكما أوجده أولاً عن عدم يعيده ثانيًا عن عدم". ويفيدنا الطباق هنا في بيان قدرة الله على إيجادنا من العدم أولاً وآخرًا.

١١- كما قال – عز وجل–: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ هنا طباق بين قوله: (أَقَرِيبٌ) وقوله: (بَعِيدٌ) والمعنى كما أشار إلى ذلك أ بوالسعود[2]: "أي ما أدري أقريب أم بعيد ما توعدون من غلبة المسلمين وظهور الدين أو الحشر مع كونه آتيا لا محالة".

فالنكتة تكمن في هذا الطباق من حيث تنصل النبي –صلى الله عليه وسلم– عن العلم بقرب الحصول أو بعده لما في ذلك من استثارة الهمم، فعدم تحديد الوقت يجعل الإنسان يثور بقوة نحو العمل والمثابرة في سبيل توقعه وقوع ذلك عن قرب وأمله به.

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري – تقدم – ص ٢٢ ج: ٣

(٢) تفسير أبي السعود – تقدم – ص ٨٩ – المجلد: ٣: ج٦.

١٢- وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾ هنا مطابقة بين قوله: (ٱلۡجَهۡرَ) وقوله: (مَا تَكۡتُمُونَ)، قال الزمخشري[1]: "... والله عالم لا يخفى عليه ما تجاهرون به من كلام الطاعنين في الإسلام وما تكتمونه في صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين وهو يجازيكم عليه". وفي هذه المطابقة فائدة كبرى لا يمكن تأتّيها بغير هذا الأسلوب، ألا وهي علم الله الشامل من قوله مجهور به أو حقد مُسَرّ به ففي ذلك تأكيد للمتلقي بأن الله لا يفوت عليه شيء، ولا يغيب عن علمه – سبحانه – مثقال حبة خردل.

(1) تفسير الكشاف للزمخشري – تقدم – ص ٢٣ ج: ٣.

المبحث الثاني: المقابلة

أ) التعريف:

- لغة: قال ابن منظور[1]: "قابل الشيء بالشيء مقابلة وقبالاً: عارضه.. والمقابلة: المواجهة، والتقابل مثله".
- اصطلاحًا: عرفه صاحب الإيضاح[2] بقوله: "أن يؤدي بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما يقابلها على الترتيب".

- الصلة بين التعريفين:

الصلة هنا واضحة وجلية، لا تحتاج إلى إعمال الذهن؛ فالمقابلة لغة: المواجهة على سبيل التعارض، وكذلك في الاصطلاح تأتي بمعان في شق ثم بأضدادها في الشق الآخر على سبيل التعارض والتضاد. –والله أعلم–.

ب) **شواهدها ممزوجة بأثرها في تحسين المعنى:**

١- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ هنا تقابل بين إنجاء الله للأنبياء وأتباعهم وبين إهلاكه المسرفين من العاصين والمكذبين، قال الفخر الرازي[3]:

"أنه تقدم وعده –جل جلاله– بأنه إنما يهلك بعذاب الاستئصال من كذب الرسل دون نفس الرسل ومن صدق بهم".

---

(١) لسان العرب لجمال الدين بن منظور – تقدم – ج١١ ص٥٣٦ مادة: "قبل"

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح لعبدالمتعال الصعيدي ج٤/ ص١١ – تقدم-

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي – تقدم – ص ١٤٤ – ١٤٥ المجلد: ١١ ج٢٢.

ولقد أفادت هذه المقابلة بيان نعمة الله على أنبيائه وأتباعهم ونقمته على من كذبهم ليعيش المتلقي فترة بين الترغيب وأخرى مع الترهيب.

٢- كما قال سبحانه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ هنا تقابل بين الفعل: (قصم وأنشأ)، والقوم المبادون والقوم المنشؤون، قال الزمخشري[1]: "القصم أفظع الكسر.. والمعنى أهلكنا قومًا وأنشأنا قومًا آخرين". ففي هذا التقابل يفصح القوي المتين عن قدرته الإلهية في إهلاك الظالمين وإحياء قوم يعبدونه ويجلونه، وذلك يجعل المسرف الباغي ينوب إلى ربه ويرتدع نتيجة لما في هذه الصورة من تأثير بالغ الأثر في المتلقي.

٣- كما قال سبحانه: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ المقابلة هنا بين فعل السلب: (لَا يُسْئَلُ) والإيجاب (يُسْئَلُونَ) وكذلك بين نائب الفاعل "الضمير الذي يعود إلى الباري" ونائب الفاعل في فعل الإيجاب الذي يعود إلى الخلائق. وقد أفادت هذه المقابلة عقد تلك الموازنة بين الخالق ومخلوقه حتى يقف المخلوق عند حدّه ولا يزيد في كبريائه وجبروته.

٤- وقوله – عز وجل–: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾. هنا تقابل واضح بين

---

(1) تفسير الكشاف للزمخشري – تقدم – ص ٤ ج٣.

الآيتين الكريمتين، قال أبو السعود[1]: "(رَوَاسِيَ) أي: جبالاً ثوابت... (أَن تَمِيدَ بِهِمْ) أي كراهة أن تتحرك وتضطرب بهم... (فِجَاجًا) مسالك واسعة.. (وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا) من الوقوع بقدرتنا القاهرة...". وفي هذه المقابلة من النكت ما لا تعد ولا تحصى؛ إذ صور في هذه المقابلة عدة معانٍ جسيمة، ففيها بيان قدرة الخالق، كذلك حكمته في مخلوقاته، وكذلك في تدبير أمر السماوات والأرض؛ مما يؤكد في ذهن المتلقي منتهى قدرة الخالق العظيمة.

وكذلك وردت مقابلات بين حالات لأنبياء الله وقعت، ومدى استجابة الله لهم، وكشفه ما بهم من ضر؛ ليفيدنا مدى سرعة نصره لعبده الضعيف المؤمن وعدم خذلانه إياه مع فوات كل فرص النجاة فما بعد هذه النصرة من نصرة، وقد وردت في قصة أيوب –عليه السلام– (٨٣–٨٤)، وكذلك في قصة ذي النون –عليه السلام–: (٨٧–٨٨)، وكذلك في قصة زكريا –عليه السلام–: (٨٩- ٩٠).

وكذلك قابلت السورة الكريمة بين الكافرين مبينة حالهم وما يؤول عليهم من الخسران المبين، والمؤمنين وما لهم من الفوز العظيم، شأنها شأن السور المكية في ذلك حاملة غرضًا في ذلك كله وهو الترهيب والترغيب، كما هو واضح في تصوير مشهد الكافرين (٩٧- ١٠٠) ومشهد المؤمنين الفرحين (١٠١- ١٠٣).

---

(1) تفسير أبي السعود – تقدم – ص ٦٥ المجلد ٣ ع ٦.

المبحث الثالث: مراعاة النظير

أ) تعريفه:

- لغة: هذا المصطلح مكون من جزأين (مراعاة) و(نظير)، ولذلك سوف أعرّف كل واحد منهما على حدة:

قال ابن منظور[1]: "... راعى أمره: حفظه وترقبه. والمراعاة المناظرة والمراقبة" كما ذكر ابن منظور[2]: "... النظير: المثل".

- واصطلاحًا: عرفه صاحب الإيضاح[3] بقوله: "أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد".

- الصلة بين التعريفين:

تجد أن مراعاة النظير قائمة على مراقبة الشيء ومثله؛ بحيث يجتمع في الكلام أمور كلها من وادٍ واحد لغير قصد المتكلم التضاد بين هذه الأمور. –والله أعلم–.

ب) شواهده مذيلة بالأثر في تحسين المعنى:

١- قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ فذكره أجزاء هذا الكون وهي السماء والأرض وما بين جنبيهما من مخلوقات قال الفخر الرازي[4]: "أي وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب كما تسوي

---

(1) لسان العرب لابن منظور – تقدم – ج١٤ ص٣٢٥ مادة: "رعى".

(2) لسان العرب لابن منظور – تقدم – ج ٥ ص٢١٥ مادة: "نظر".

(3) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح – تقدم – ج٤ ص١٣.

(4) التفسير الكبير للفخر الرازي – تقدم – ص ١٤٧ المجلد: ١١ ج٢٢.

الجبابرة سقوفهم وفرشهم للهو واللعب، وإنما سويناها لفوائد دينية ودنيوية".

وفي جمع هذه الأمور المتناسبة بيان لهدف خلق الله لهذا الكون، مما يجعل الإنسان يدهش من خلال جرائر كل هذه المخلوقات في هذا السياق السلس المتناسب.

٢- كما يقول سبحانه: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ هنا تناسب بين الليل والنهار، فالمقصود كما ذكر أبو السعود[1]: "ينزهونه في جميع الأوقات ويعظمونه ويمجدونه".

وفي ذكر هذا التناسب فائدة جليلة وحكمة عظيمة، وهي وصفة للملائكة بهذا الوصف الدقيق بحيث يحقق لهم سير عبادتهم من دون توقف أوفتور، وهو يؤثر في النفس المؤمنة بحيث يحثها على العمل الصالح من دون توقف أوكسل.

٣- ومنه قوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ يعرض الله –تعالى– نماذج من مخلوقاته العجيبة المعجزة في خلقها، ويناسب ذاكرًا الليل وصاحبه النهار، ثم ما هو مصاحب لهما من شمس وقمر؛ ليحقق كل ذلك صورة استشعار عظمة الخالق وإبداعه في نفس الملتقي.

٤- وقال سبحانه: ﴿ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

([1]) تفسير أبي السعود – تقدم – ص ٦٠ المجلد: ٣ ج٧.

فذِكْر كفّ النار عن الوجوه ثم الظهور لم يقصد به التضاد بحيث يكون هناك طباق، بل قصد به استقصاء صورة الكافرين ومدى إحاطة عذاب الله بهم، حتى لا ينفذوا ولا يسلموا لا من أمام ولا من خلف؛ فعذاب الله مطبق بهم من كل جهة، وهذا التناسب قد أفاد إبراز شدة عذاب الله للمكذبين الكافرين وأن العذاب مكتنفهم من كل جهة لا محالة، حتى يشعر المتلقي برعشة خوف تدفعه عن المعاصي والآثام إلى فعل الطاعات والخيرات.

في ختام هذا الفصل، وبعد أن تاولت بعضًا من شواهد بعض المحسنات البديعية المعنوية، ثم تدعيم تلك الشواهد بمزيد من الدراسة والتحليل، والخروج بالنكتة البلاغية التي تتطبع كأثر لذلك المحسن، فلعلني أكون وقد وفقت في تناول تلك المحسنات وتوظيفها لخدمة المعنى وإثرائه حتى يكتسب النص جمالًا، ولعل المتلقي يعلم تمام العلم أن تلك المحسنات البديعية المعنوية قد جاءت لأغراض أفادتها لوجودها، ولولاها لما خرجت تلك الأغراض والنكت.

الفصل الرابع: البديع اللفظي في السورة

عندما يطلق البديع اللفظي في القرآن الكريم فلا يقصد به تلك الألفاظ الصماء، التي لا توحي إلى أي دلالة شريفة أو معنى جميل إنما حلي مرصوفة قد زينتَ بها ثوبًا خلقًا طواه البلى، فما خرجت بذلك إلا بزينة اقتصر جمالها على نفسها دون من سيقت إلى تزيينه؛ فكذلك المحسنات اللفظية عندما تأتي لقصد التزيين فحسب فإن المعنى يتهجن ويستغلق حتى تجعل المتلقي في مفترق الطرق يشجيه النظر ويضطرب به الفكر.

ولكن في كتاب الله –عز وجل– تأتي تلك المحسنات تابعة للمعاني حيث إنها تأتي عفو الخاطر من دون أي تكلف، كما تأتي تلك المحسنات لمعانٍ وحكم قصدها الباري البديع –سبحانه–؛ بحيث إن غيرها لا يؤلف نظمًا أحسن منها ولا يؤدي مؤاخاة أروع منها.

المبحث الأول: الفاصلة القرآنية

أ) معناها

- لغة: قال ابن منظور[1]: "الفاصلة: الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام ... وأواخر الآيات في كتاب الله فواصل بمنزلة قوافي الشعر –جل كتاب الله. عز وجل– واحدتها فاصلة".

- اصطلاحًا: وقد عرفها صاحب الإتقان بقوله[2]: "الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع".

([1]) لسان العرب ج١١ ص٢١. مادة "فصل".

([2]) الإتقان في علوم القرآن، تأليف شيخ الإسلام جلال الدين عبدالرحمن السيوطي – المكتبة الثقافية بيروت، ١٩٧٣م، ج٢/ ص٩٦. – تقدمت ترجمته عند الحديث عن كتاب أسرار ترتيب القرآن.

❖ الصلة بين المعنيين:

والصلة واضحة أشد الوضوح بين المعنيين، بل لا يُحتاج لها؛ لأن ابن منظور قد صرح بالمعنى الذي يوافق المعنى الاصطلاحي.. والله أعلم.

ب) فوائد الفاصلة مع الاستشهاد:

لا يستطيع أحد أن يحيط بحكم فواصل آي الله – عز وجل –؛ فقد اقتضت حكمته ذلك، ولكن المرء يجتهد فلكل مجتهد نصيب، ولذلك لعلي أجمع بعضًا مما تناثر في الكتب عن فوائدها مؤيدًا إياها ببعض الشواهد الدالة على ذلك:

١- أن الفاصلة تأتي لتتمّم معنى آيتها، قال البديع– سبحانه–: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ (البقرة). ففي هذه الآيات وأمثالها تجد ما يدل على التحام الفواصل بآياتها التحامًا وثيقًا، يوحي بتماسك التراكيب في الآية؛ مما يجعله مستقرًا في النفس حتى تتقبله أعظم القبول.

٢- إعطاؤها ذلك النغم الموسيقي بحيث يجعل تلك الآية مستقلة لفظًا ومعنى عن الآي الأُخر؛ فالنغم الموسيقي يطرب العرب له ويحبونه فتجد أكثر فواصل الآيات مختومة بحرف من حروف المدّ واللين وإلحاق النون، وقد قال سيبويه مبينًا الموسيقا العربية[1]: "إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والياء[2] والنون لأنهم أرادوا مد الصوت

---

(1) الإتقان في علوم القرآن ج٢ ص١٠٥.

(2) حقيقة لا أعلم سبب عدم ذكر الواو مع أنها من حروف المد واللين كما في سورة "القلم". وسيبويه هو: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، إمام النحاة ولد بشيراز سنة ١٤٨هـ وتوفي بها سنة ١٨٠هـ. الأعلام ج٥ ص٨١.

ويتركون ذلك إذا لم يترنموا وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع".

٣- أن الفاصلة تعطيك الحكمة وخلاصة القضية الدائرة في الآية، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ نوح: ١٠ فإن الحكمة وراء هذا الطلب انكبت في آخر الآية وهي أن الله كثير المغفرة والرحمة لمن ألح على ربه بذلك.

كما تجد خلاصة القضية والمعنى في الفاصلة؛ فاقرأ قوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (فصلت).

فالآية تتحدث عن الجزاء والحساب وأن كل امرئ بما كسب رهينة، ثم تختم بالخلاصة سواء للصالح أم الفاسق بأن الله يتنصل وينفي عن نفسه نسبة الظلم إليه، وأن الجزاء من جنس العمل خيرًا كان أم شرًا.

٤- أن الفاصلة القرآنية تعلن انتهاء الآية الكريمة، ولا أعني بذلك فائدتها اللفظية، إنما تتم بتمام مرادها – كما أسلفت ذكره – ، وهذه الإشارة كانت تفيد الصحابة في بادئ الأمر إلى معرفة بداية الآية ونهايتها؛ فالفواصل منها توقيفية وهو كثير وبعضها قياسي[1].

٥- كما أن الفواصل تعطي السورة تسلسلًا مدروسًا وفق تحديد الآيات مما يضفي عليها شكل الرتابة، ألا ترون أنكم إذا ما قرأتم سورة

---

(1) انظر الإتقان، ج٢ ص٩٧.

"الرحمن" تجدونها منتهية بالنون وقبلها حرف مد؛ مما يلبسها ثوبًا من الرتابة فينعكس تأثيرها في المتلقي.

٦- ومما يضاف إلى فوائدها إعطاؤها فرصة إلى بث النفس وإراحته من متابعة القراءة لترتاح سريرته وتطمئن، ثم ما يلبث حتى يستأنف القراءة مرة أخرى.

تلكم كانت بعضًا من فوائد الفاصلة والمدعمة بالشواهد من باب التوطئة للاستشهاد من السورة.

- شواهد الفاصلة من السورة مذيلة بالأثر في تحسين المعنى:

١- قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأنبياء).

تجدون الفواصل: (ظَٰلِمِينَ) و(خَٰمِدِينَ) و(لَٰعِبِينَ) و(فَٰعِلِينَ) متحدة في الوزن تمامًا؛ مما يحدث جرسًا موسيقيًا يضفي الخفة والروعة، كما أن رشاقة حمل اللفظ للمعنى ترجع إلى مدى شفافية تلك الفواصل عن المعنى؛ حيث إن غير تلك الفواصل لا يؤدي ما أدته؛ فندم الإنسان على ما فرط يشعره بظلم نفسه، وقدرة الله عليهم وعذابه لهم تكبتهم حتى يخمدوا، ثم يبين سبب خلقه لتلك المخلوقات وأنها لم تخلق عبثًا ولعبًا، ويختم هذه الإنذارات ببيان

قدرته وإرادته فإنه لو أراد أي شيء فإنه فاعله بقدرته – جل جلاله- .

٢- كما قال – سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

تلحظون الفواصل : (عَٰلِمِينَ) و(عَٰكِفُونَ) و(عَٰبِدِينَ) فتجدونها مفعمة بروح الانسجام وبروعة الإيجاز ؛ فالحكمة جواب لكل حدث وارد في الآية ؛ إذ تبين الفاصلة الحكمة من إتيان الله إبراهيمَ الرشدَ في صغره لسبق علم بأنه ذو كفاية لها ، ثم يبين دليل رشده في بيان رفض إبراهيم لتلك التماثيل ليس لمجرد ماديتها ، إنما حكمته في ذلك أنهم اتخذوها آلهة يعكفون لها من دون المستحق لذلك ، ثم يفضون له سبب عبادتهم إياها بأن آباءهم عابدون لها.

كما يلاحظ إلى جانب تلك الفواصل أن لفظ الفواصل في هذه الآية قد حف بالعين في الأول والنون في الآخر ؛ مما أوجد خفة الموسيقا في أذن المتلقي التي ساعدت على سرعة التأثر والقبول بعد التمتع وجدانيًا.

٣- وقد قال الله – عز وجل– : ﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ عند التأمل في فاصلتي الآيتين : (عَٰبِدِينَ) و(لِّلْعَٰلَمِينَ) يلاحظ أن في كل منهما جوابًا لما تضمنته الآية من إخبار ؛ فكأنه يُسأل عما أن في كل منهما جوابًا لما تضمنته الآية من إخبار ؛ فكأنه يُسأل عما تقدم من بلاغ وتنبيه فيجاب بأنه للعابدين ، ثم يستدرك الرب بالعموم

بعد الخصوص عن سؤال قد يطرأ على الأذهان من اختصاص العابدين بالرسالة فيجيب بأنه قد أرسل الرسول للعالمين بشيرًا ونذيرًا مما يدل على رحمته بعباده ؛ فتجدون الفاصلتين في هاتين الآيتين تجيبان عما يدور في خلد المتلقي. والله أعلم.

المبحث الثاني: السجع

أ) معناه :

- لغة : ذكر ابن منظور ذلك[1]، فقال : "سجع يسجع سجعًا : استوى واستقام وأشبه بعضه بعضًا... والسجع : الكلام المقفى والجمع أسجاع وأساجيع".

- واصطلاحًا : عرفه الخطيب بقوله[2] : "هو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد" .

- الصلة بين المعنيين :

تظهر تلك الصلة واضحة وجلية وخاصة حينما نقرأ قول ابن منظور : السجع : الكلام المقفى ؛ فإن القافية من شأنها في الشعر أن تشتمل على روي وهذا الروي ملتزم في القصيدة، وكذلك السجعة يكون الحرفان فيها متماثلين في قرينتهما. - والله أعلم-

ب) أهم الفروق بينه وبين الفاصلة :

إذا أردنا أن نفرق بين السجع والفاصلة فإننا نلتفت إلى مدى شفافية اللفظ للمعنى وكذلك النظر إلى موضعها وهيئتها. وعلى ذلك نجد الفواصل بعكس السجع (سجع الكهان المذموم) ؛ إذ الألفاظ فيها تابعة للمعاني ورقيقة تحت تصرف مولاها ؛ مما يشعر العفوية وعدم التكلف.

---

[1] لسان العرب، ج٨ ص١٥٠ مادة : "سجع"

[2] بغية الإيضاح، ج٤ ص٧٨- ٧٩.

وكذلك الفواصل يقصد بها الكلمة الأخيرة من الآية؛ فهي كقرينة السجع وقافية الشعر، أما السجع فهو حرف في آخر قرينته كروي الشعر تمامًا.

كما يضاف إلى ما سبق كون الفاصلة تختم بحروف متماثلة أو متقاربة في المخارج. أما السجع فيأتي بحروف متماثلة، وعلى ذلك الفواصل أعم من السجع[1].

ج) شواهد موشاة بالأثر في تحسين المعنى:

١- قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٣﴾.

تجد السجع بين قوله: (مُّعۡرِضُونَ) و(يَلۡعَبُونَ) و(تُبۡصِرُونَ)، ولكنه عفو الخاطر بحيث إن الفاصلة تشف عن معناها، حتى إنك لو أتيت بغير ذلك اللفظ فإنه لن يؤدي ما أدته هذه الألفاظ.

٢- كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٠ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣١ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ۝٣٢﴾.

عند التأمل في هذه السجعات: (يُؤۡمِنُونَ) و(يَهۡتَدُونَ) و(مُّعۡرِضُونَ) يلاحظ بأن المتلقي قد أدرك قضية إرادة الله للناس الخير بإلحاحه على الإيمان بغية

---

(١) انظر: "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.." تقدم- "رسالة الرماني ص٨٩- ٩١، وكذلك الإتقان ج٢ ص٩٨- ٩٩.

هدايتهم بعد عرض الدلائل الكونية، ثم يختم ببيان موقف المشركين من هذه الدلائل، وذلك في إيقاع خافت يناسب موقف اللين في الدعوة.

٣- ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

بهذا السجع في قوله: (لِّلْمُتَّقِينَ) و(مُشْفِقُونَ) يُستشف منه نكتة بلاغية تكمن في بيان الوصف وهو: تقوى الباري، ثم بيان سبب ذلك الوصف (التقوى) وهو: الإشفاق من الساعة لما فيها من أهوال وجنة ونار تعقب الجزاء والحساب؛ فتجد المتلقي قد استوعب كل ذلك ذهنيًا بعد أن طرب موسيقيًا.

٤- كما قال تعالى: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

عندما نمعن النظر في هاتين الآيتين نجد أن السجع في قوله: (ٱلصَّٰبِرِينَ) و(ٱلصَّٰلِحِينَ) قد أفاد ترتُّب حصول الآخر على وجود الأول؛ فالصبر سمة الصالحين والصلاح مترتب على الصبر؛ مما أوجد شكل الرتابة معنى بعد استيفائها لفظًا من خلال تلك السجعة.

٥- وقال عز وجل: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

نلحظ السجع هنا بين قوله: (وَٰرِدُونَ) و(خَٰلِدُونَ) الذي أفاد أسلوب التهكم والسخرية والتقريع بعبدة الأصنام حيث يبين الحق مصيرهم بأنهم واردون جهنم لا محالة ولكن للورد وقت معين ثم يعود الوارد أدراجه فهذا اللفظ

ولّد عند المشركين شعور الارتياح، ولكن عند قراءة قرينة السجع الأخرى فإن المشرك ترتعد فرائصه وتنقطع آماله، فيلاحظ أن السجع هنا ربط بين آيتين ليقرر موقفًا صعبًا على نفوسهم بأسلوب التهكم والسخرية.

المبحث الثالث: الجناس

أ) تعريفه:

- لغة: قال ابن منظور[1]: "يقال: هذا يجانس هذا؛ أي: يشاكله ومنه المجانسة والتجنيس".

- واصطلاحًا: عرفه صاحب الإيضاح بقوله[2]: "تشابههما في اللفظ"[3].

❖ الصلة بين التعريفين:

الصلة واضحة تمام الوضوح؛ إذ المشاكلة محققة في تشاكل اللفظين وتشابههما في الشكل من دون المضمون.

ب) شواهد الجناس مع بيان الاثر:

١- قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ هنا جناس اشتقاق بين (يَعْلَمُ) و(ٱلْعَلِيمُ) ؛ إذ يوظف هذا الجناس للجمع بين دفتي الآية من خلال وصف الله بالعلم البالغ الشامل بعد أن صدّر الآية بعلمه لما يقال في السماء والأرض.

---

(١) لسان العرب – تقدم – ج٦ ص٤٣ مادة: "جنس".

(٢) بيغة الإيضاح لتلخيص المفتاح – تقدم – ج٤ ص٦٦.

(٣) أي تشابه اللفظان لفظًا مع اختلافهما في المعنى، وإلا لكان من التكرار.

٢- ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦ ﴾ في هذه الآية تجانس اشتقاق بين قوله: (مَآ ءَامَنَتۡ) و(يُؤۡمِنُونَ).

ففي هذا التجانس مراد الاستبعاد والإنكار؛ فهؤلاء المشركون أشد كفرًا من سابقيهم فالأولون لم يؤمنوا رغم الآيات المنزلة عليهم أفيؤمنون هؤلاء المعاندون؟!.

٣- ومنه قوله تعالى: ﴿ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧ ﴾ في هذه الآية مجانسة اشتقاق بين قوله: (نَّتَّخِذَ) و(لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ) وهذه المجانسة وقعت في مادة فعل حروفه فخمة وجزلة؛ مما دل في هذه المجانسة على حدة الموقف وردة الفعل مما يؤكد قدرة الخالق –عز وجل– وقوته.

٤- كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ ﴾.

هنا جناس اشتقاق بين قوله: (أَرۡسَلۡنَا) و(رَّسُولٍ)، وقد أفاد هذا الجناس مدى ارتباط رسالة المرسلين بالله –سبحانه– فهم لم يأتوا بأشياء من عندهم ولا من مخيلاتهم.

٥- وقال سبحانه: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤ ﴾ في هذه الآية تجنيس اشتقاق بين قوله: (ٱلۡخُلۡدَ) و(ٱلۡخَٰلِدُونَ) وفي هذا التجنيس عقد موازنة بين البشرية الذين منهم الرسل وبين المشركين وتربصهم لموت النبي – صلى الله عليه وسلم– بأنهم مثل غيرهم في

الفناء وكذلك المصطفى فهو من البشر؛ ليبين في ذلك أنهم إن شمتوا بموتك فهم ميتون كذلك فليس لهم في ذلك مدخل.

٦- وقال سبحانه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ هنا مجانسة اشتقاق بين قوله: (عَجَلٍۚ) و(تَسْتَعْجِلُونِ).

وفي هذا الجناس يبين الخالق – سبحانه – فطرة من فِطَر الإنسان وسجية من سجاياه وهي "العجلة"، ثم يخصص في خطابه لمن أذكى هذه الفطرة فاستعجل عذاب الآخرة على سبيل التهكم والاستبعاد، فيرشدهم إلى عدم الاستعجال فعذابه نافذ لا محالة.

٧- وقال جل جلاله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ هنا جناس اشتقاق بين قوله: (أُنذِرُكُم) و(يُنذَرُونَ) يصور مهمة الرسول –صلى الله عليه وسلم– وفي مقابله موقف المُرسل إليهم حيث يبين هذا الجناس حقيقة كل من الطرفين وماهيته.

٨- ومنه قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

هنا تجانس اشتقاق بين قوله: (يَحْكُمَانِ) و(لِحُكْمِهِمْ)؛ ففي دوران هذه المادة سر دقيق يجعل القارئ يتفاعل مع الحدث؛ مما يؤكد كمال علم الله واطلاعه على خلقه.

٩- كما قال سبحانه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ في هذه الآية مجانسة اشتقاق بين قوله: (أَرْحَمُ) و(ٱلرَّٰحِمِينَ) توضح مدى تأدب العبد مع ربه في جو مفعم بالروحانية والإيمان،

ومدى لطف الله بعبده حيث يصف العبدُ الفقيرُ إلى عفو الله بأن الله أفضل من رحم فغاية الرحمة عنده.

١٠- وقد قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

في هذه الآية جناس غير تام بين قوله: (رَغَبًا) (وَرَهَبًا) لاختلاف عين الكلمتين، وقد أفادت هذه المجانسة وتوظيف التضاد نغمًا موسيقيا يمتع وجدانيًا؛ لينبهك إلى استعياب هذه الفكرة عقليًا.

١١- ومنه قوله سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ هنا مجانسة غير تامة بين قوله: (يَأْجُوجُ) و(وَمَأْجُوجُ) توحي بالالتحام الشديد والوثيق بين المتجانسين؛ مما يوهم المتلقي بأنها لفظ واحد، ولكن سرعان ما يرتفع ذلك الإيهام، وتبقى الخلابة والدهشة عنصرًا مخيمًا على جوّ الآية.

١٢- وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ هنا جناس اشتقاق بين قوله: (نَطْوِى) و(كَطَىِّ) يفيد تأكيد قدرة الخالق في مخلوقاته وتقريب هذه الصورة بصورة حسية مشاهدة عبر التشبيه بعد إضفاء الخفة والرشاقة بسبب ذلك الجناس.

تلكم كانت شواهد على المحسنات البديعية اللفظية في السورة بعد التمهيد لها بالتعاريف اللغوية والاصطلاحية، ثم توظيف تلك المحسنات لخدمة المعنى

حتى يظهر الالتقاء بين اللفظ والمعنى، ومن ثم الخروج بمعايشة بين التنظير والشاهد.

إن المحسنات البديعية اللفظية في القرآن الكريم – كما لاحظنا- لا ترد باردة غثة نتيجة الإسراف فيها، إنما ترد معتدلة قوية تكاتف التركيب والتصوير الفني لتخرج الآية الكريمة في قمة بلاغتها وأوج فصاحتها.

ثم إن هذه المحسنات لتكسب المتلقي فكاهة وجدانية وجرسًا جميلاً إغراءً منها تدفعه إلى تأمل تلك الفكرة، وخاصة إذا كانت تلك المحسنات تنبع من خداع الألفاظ.

الخاتمة

في ختام هذا البحث يجدر بي أن أُجمل لكم خلاصة لأهم القضايا التي تناولتها بدءًا من التمهيد الذي بينت فيه أبرز ملامح هذه السورة الكريمة، ثم بيان محاور تلك الأوجه الإعجازية في القرآن الكريم مع بعض الشواهد المبرهنة على الإعجاز البلاغي، ثم لكون البديع فرعًا من فروع علم البلاغة وهو مصب البحث وصلبه فقد خصص له فصل أبرز فيه خصائصه في القرآن الكريم بصورة موجزة، ومن ثم تأكيد تلك الخصائص بالجانب التحليلي، الذي يبين صدق الدعاوي النظرية، وبعد الحديث عن البديع والاستشهاد له من خارج سورة الأنبياء التي تعد بمنزلة التمهيد لما في السورة من ألوان البديع حاولت أن أستخرج بعضًا من ألوان البديع المعنوية واللفظية مع التحليل الذي يرشدنا إلى النكتة البلاغية والسر الإعجازي وفق ما هو محدد من المحسنات البديعية المعنوية واللفظية بعد تعريفها لغة واصطلاحًا ومحاولة الجمع بين هذين الحدين.

ولقد تمخضت نتائج عن هذا البحث؛ ففي الإعجاز القرآني آراء كثيرة ليست متضاربة وإنما متكاتفة بحيث كل رأي يعبر عن محور من محاور إعجازه، ولكن يبقى القرآن الكريم معجزًا كما تبقى آياته معجزة لا يمكن تحديد مسارات إعجازها؛ لأن الإنسان لا يحيط بكل شيء علمًا.

أما حديث البديعيّين وتقسيمهم البديع إلى معنوي ولفظي؛ فهذا ممتنع في كتاب الله –عزل وجل–؛ إذ الألفاظ ممزوجة مع معانيها حتى تخرج منصهرة في بوتقة واحدة لتفيد معنى ساميًا في لفظ رشيق، فقد امتطت المعاني ألفاظًا خفيفة على المسامع شديدة الوقع على الوجدان مما يبين الصلة الوثيقة بينهما.

ومما يجدر الإشارة إليه هو أنني حاولت الجمع بين الجانب النظري والجانب التطبيقي حتى يخرج المتلقي بفائدة وصورة مشرقة تعكس مدى جمالية النص وروعته.

وإذا قدم الإنسان ما في وسعه حاك في صدره ما يدور في خلده، ولذلك أحببت أن أبوح لكم بما يحول في خلدي من مقترحات وإشارات كان من بينها هو تأخير بحث البلاغة إلى السنة الرابعة قبل التخرج ليكون الطالب على إلمام بفروع علم البلاغة وإحاطة بها وكذلك أصول النقد ومدارسه واتجاهاته الحديثة، فإذا ما تناول النص إذا به يحلل من خلال ما أوتي من بلاغة ونقد، كذلك حبذا أن يراعى محاولة تخفيف الأقسام كما هو في علم البديع وكذلك الخلافات التي لا طائل من ورائها، التي كانت نتاج البديعيّين والبلاغيّين، فقد أفسدوا البلاغة العربية بكثرة تقسيماتهم بحيث طوعوا الأدب لخدمة البديع وليس العكس.

كما أنني أود في ختام هذا البحث أن أشير إلى ناحية مهمة وهي: ماذا يجب أن يكون عليه درس البلاغة اليوم؟

يجب أن يكون درس البلاغة اليوم على صلة وثيقة بمناهج النقد الحديثة وعلى صلة وثيقة بالتحليل الفني للنصوص، وليس على صلة بطلاب يحفظون قواعد جافة صماء تحفظ وتؤدى بمثال، إنما يبقى النقد والتحليل مرتعين خصبين لهذه البلاغة التي تقوم على الذوق السليم والحس البلاغي القويم؛ حتى نخرج من كل هذه الدراسة بإعادة البلاغة إلى ما كانت عليه من خصوبة الفكر ولطافة المأخذ وحسن التعامل مع النصوص.

هذا ما أود طرحه في ختام هذا البحث الذي أسأل الله أن أكون قد وفقت في تناوله؛ من طرح لقضية وتداول لرأي وتدليل لحجة، وأن يكون ما في جلّه سترًا لعواره...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

والله الموفق

الفصل الثاني: مقالات سيريّة

في ذكرى رحيل

أ.د.محمد بن عبد الرحمن الهدلق

❖أ.د. أحمد بن محمد الضبيب

إن توديع أخ كريم، وزميل عزيز أمر يحز في النفس، ويستدعي كل مشاعر الأسى والحزن، وليس أمام الإنسان في هذا المقام إلا التسليم بقضاء الله، والانقياد لإرادته، والدعاء المخلص أن يتغمد الله الفقيد بواسع رحمته وجميل رضوانه.

كان حبيبنا الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق شخصية تتمتع بالتوازن الحسن في االشخصية، والوسطية في الفكر، إلى جانب دماثة الخلق، ورحابة الصدر. كما كان يتمتع –رحمه الله– بعفة النفس، وطهارة اللسان، وحسن التعامل مع الآخرين، فلا تسمع منه كلمة نابية، أو عبارة مستفزة، ولا يلقاك بوجه متصعر أو مكفهر. بل هو ذو شخصية جذابة، هادئة، بشوشة، متسامحة. خَبَرناه في السفر فكان نعم الرفيق، وخَبَرناه في الحضر فكان نعم الصديق.

أما في علمه ومعرفته فهو واسع العلم في تخصصه، دقيق في بحوثه، متتبع للجديد، حريص على المشاركة في المؤتمرات والندوات، بعيد عن موضوعات الجدل النقدية التي تَؤول في كثيرمن الأحيان إلى الصراع والمهاترات.وتتميز كثير من بحوثه بالجدة، كما أنه مشارك متفوق في علوم أخرى، وله مؤلفات تشهد له بذلك. وكم قد صال وجال في نقاشات علمية في هذه الندوة المباركة، وفي فنون كثيرة قد طرحت فيها، وكان في نقاشه –رحمه الله– كعادته هادئا رصينا باحثا عن الحقيقة، متخذا وسائل الإقناع وطرق الحجاج العلمية دون مكابرة.

وفي مسيرته العلمية الجامعية يبدو الهدلق أستاذا جامعيا ذا سمت متميز، يتمثل ذلك في استيعابه العمل الإداري الجامعي، وإلمامه بالنظم الجامعية وتمسكه بها، وإخلاصه في التدريس مع براعته فيه.

وعندما عهد إليه ببعض المناصب العلمية، مثل عمادة كلية الدراسات العليا، وعمادة كلية الآداب ورئاسة قسم اللغة العربية وغيرها بذل الجهد في تحقيق أهداف الجهات التي عمل فيها، وإنجاح مهامها العلمية والإدارية. وكانت له جهود مشكورة في عدد من الجهات على مستوى المملكة وعلى مستوى المنطقة، من مثل عضويته لكثير من المجالس العلمية أو الثقافية والتنظيمية، والنوادي الأدبية، فكان صوت الحق والحكمة وحسن التدبير في هذه المجالس.

رحم الله أخانا العزيز الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق، وأسكنه الفردوس الأعلى مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ذكريات مع الفقيد د.محمد بن عبد الرحمن الهدلق

❖ أ.د. صالح الوهيبي

غادرَنا إلى الدار الآخرة الزميل العزيز الأستاذ د. محمد بن عبد الرحمن الهدلق الذي وارينا جثمانه الثرى يوم الاثنين ٢٦/٦/١٤٤٥هـ بمقبرة النسيم في الرياض، رحمه الله رحمة واسعة وأسبغ عليه رضوانه. وقد زاملت د. الهدلق منذ عام ١٤٠٣هـ في قسم اللغة العربية بكلية الآداب/جامعة الملك سعود حين عدت من البعثة فكان نعم الزميل والصديق؛ كان حازماً في تدريسه، حازماً في إدارته، لطيفاً في صداقته. انتُخب رئيساً لقسم اللغة العربية ثم تقلد عمادة كلية الآداب، ولم يختلف مسلكه القائم على الحزم والنزاهة والمتابعة التي لا تكلّ. وقد عرض عليّ آنذاك أن أتولى رئاسة فرع قسم اللغة العربية في كلية التربية حيث إن الأستاذ د. يوسف نوفل قد انتهى عقده مع الجامعة فقبلتُ وبقيت فيه إلى أن انتقلت الجامعة إلى المدينة الجامعية الجديدة آنذاك؛ حيث ألغيت فروع الأقسام نظراً لاجتماع الجامعة في مكان واحد في عام ١٤٠٥هـ.

عاصر د. محمد الهدلق العصر الذهبي لقسم اللغة العربية يوم أن ضم القسم –تحت رئاسته– طائفة مميزة من الأساتذة كالأستاذ د. أحمد الضبيب ود.منصور الحازمي ود. أحمد زكي ود. عبد العزيز الفدا والأستاذ سعيد الأفغاني ود. محمود الربداوي ود. ناصر الرشيد ود. عبد العزيز المانع ود. محمد الصباغ ود.شكري عياد.... وغيرهم كثير ممن لا تحضرني أسماؤهم أو ممن لم يعاصروا إدارته للقسم كالدكتور عبدالله الغذامي الذي يشاطر د. الهدلق تدريس النقد العربي.

كان قسم اللغة العربية يحظى بإقبال كبير من الطلبة؛ فكان الأساتذة مثقلين بأعباء تدريسية وأعداد كبيرة من الطلاب في كل شعبة. وكانت متابعة أداء الأساتذة عبئاً كبيراً عليه؛ إذ كانت مقررات اللغة العربية في الإعداد العام مفرقة في عدة كليات وكان ضبطها والتأكد من حضور الأساتذة يحتاجان إلى جهد تنوء به كواهل عدة رجال فما بالك برجل واحد. والحق أنه –وفقاً لاطلاعي– لم يكن مطمئناً لأداء بعض زملائه في الكلية لكنه تحمّل ذلك ونبههم كتابة وشفاهاً وسعى إلى تحسين أدائهم. وكان إبان عمادته للكلية مهموماً بأداء الأساتذة والانضباط في الكلية من ذلك مثلاً ما حدثني به بعض الزملاء من حرصه على المرور على قاعات الدرس في أثناء فترة الاختبارات للتأكد من حسن الرقابة على الممتحنين.

لقد كان د. الهدلق متمكناً من مادته تدريساً وبحثاً؛ فقد درّس البلاغة والنقد في جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ثم في جامعة الملك سعود. وفي أثناء مسيرته العلمية الممتدة كتب بحوثاً متميزة في البلاغة والنقد، وقد جمعها ونشرها كرسي د. عبدالعزيز المانع فأسدى للعربية وقرائها خدمة جليلة؛ وأحسب أنه لولا ذلك لما جُمعت بحوث د. الهدلق المتفرقة بين الدوريات العلمية ولقلت الإفادة منها كحال كثير من زملائه؛ فجزى الله الأستاذ د. عبد العزيز المانع خيرا على هذا الجهد الطيب. ويبقى أن تلك الكتب ربما لا تصل إلى أيدي كثير من المتخصصين نظراً لضعف النشر لدى الجهة المعنية بالنشر في الجامعة.

بقي أن أقول إن جدية د. الهدلق ورزانته تخفيان وراءهما روحًا مرحة طيبة وذوقًا أدبيًا رفيعًا. فقد اشتغلنا معاً عدة أشهر في تأليف مقررات اللغة العربية للمرحلة المتوسطة بناء على تكليف من وزارة التعليم لكنه لم يستمر، وكان انسحابه من دون ريب خسارة لنا في اللجنة لأن اختياراته للنصوص كانت موفقة وتنم عن ذوق عالٍ مدرك لجوانب الجمال في النصوص. وكانت جلسات اللجنة

تستمر ثلاث ساعات فيها علم جم ومرح يطرد السأم وإنتاج علمي نفع الله به الطلاب عقدين من الزمان ولله الحمد.

لم تخل أيامنا في القسم من شد وجذب كعادة البشر؛ وظل د. الهدلق متحفظاً في أحكامه ومواقفه؛ لا يتعجل ولا يكثر الكلام ولم يفقد العلاقة الطيبة بزملائه ممن اختلف معهم أو وافقهم. وقد انعكس ذلك على منسوبي القسم جميعا فكانوا يختلفون ولا يتفرقون. وكان العلم والتعليم لديهم ذا أولوية على ما سواه من أمور تجر إلى الخلاف والشقاق. رحم الله أخانا د. محمد الهدلق وزملاءه ممن سبقوه إلى الدار الآخرة وبارك فيمن بقي من أساتذتنا وزملائنا. والحمد لله رب العالمين.

لماذا نُحبُّ الهدلق؟

❖ أ. د. معجب العدواني

ماذا إن أردنا الكتابة عن شخصين بعد وفاتهما؟ أحدهما لا نعلم عنه شيئًا، ومن المعتاد ألا تتمكن من الكتاب عنه، بل من المستحيل ذلك، والآخر شخص قريب منا، لكننا نعجز عن التفاعل مع مشاعر كبيرة تنتابنا بعد مغادرته، ذلك ما يحدث لي مع شخصية الدكتور محمد الهدلق رحمه الله، الذي عرفته طالبًا، وزميلًا، وصديقًا، فكان لهذه الدوائر الثلاث، التي مررت بها خلال حياته أثرها في صناعة الحجاب الكتابي، الذي يعيق القلم عن الاستجابة، كما هو الجهل بالشخص يمنعه من التفاعل؛ لهذا كان من الأفضل اجتياز تلك الدوائر، للانطلاق إلى سؤال بسيط: لماذا نحب الهدلق؟ هذا السؤال الذي يصنعه طيفه الحاضر الغائب، الذي يشي بحضوره الدائم في مخيالي، وتؤكده مشاهدتي اسمه يوميًا على باب مكتبه بالجامعة، وفي هذه المشاهدة ما يضاعف الحزن عليه، ويرسخ ضبابية الكتابة عنه. وفي حديث مع النفس عن الوفاء لمن يستحق من أرباب الكلمة والصدق والإخلاص، سنلحظ أن هذا السؤال الافتراضي البسيط لا يليق إلا به، ومع أنه لا يمكن تقديمه مباشرة، فقد كان من الواجب أن نستحث الخطوات، كي نقطع هذه المساحة إلى فضل أستاذنا وكريم خلقه.

ومن تلك الدوائر الأولية السابقة التي تكشف العلاقة به، ننتقل إلى أولى الدوائر التي تصل بتخومها في شخصيته بجوانبها الإنسانية والعلمية والإدارية، فلو انطلقنا من الدائرة (العلمية) التي تضرب بطيفها الذهبي في ذهني؛ إنها دائرة العلم الغزير النافع، المرفق بأدب جم وخلق جامع، كان هذا جلبابه الأنيق البهي الدائم، الذي يرافقه إصغاء من الجميع حين تحدثه، وهدوء وتمعن عند تلقي

كتابته، حواراته عميقة مثرية، يقدمها بتواضع يزيده شموخًا، وبتأن يزيده في المعرفة رسوخًا. وأحمد الله أن أفدت منه شخصيًا في أثناء دراستي السنة المنهجية لمرحلة الدكتوراه، التي لم أكملها في القسم، فغادرت بعدها إلى بريطانيا. لكن محاضراته كان لها صداها الكبير لدي؛ إذ لحظت ذلك التداخل الجميل الذي يعقده بين آراء النقاد العرب في تراثنا مع وجهات النظر الاستشراقية المعاصرة.

أما الدائرة الثانية من دوائر تشرفتْ بأخذه بزمامها، فهي دائرة الدقة والصرامة؛ فلا أحد معروفًا بصرامة كصرامته في العلم والإدارة، وأبرز ما في تلك الصرامة أنه يسندها بمحبة شخصية يقدمها للجميع بلا استثناء، وبلائحة قانون جمعية. وعندما يختلف أعضاء المجالس في أمر علمي أو إداري، تكون ذاكرته وطيبته مخرج الاختلاف وانتهاءه لوثوقهم بقوله، ومن ثم مدخل اعتراف الجميع بفضله، وله من فضل الحفظ وفضيلة الفهم ما يقرب اللوائح والأدلة إليه، ويعرضها بأدب مرفقة بابتسامة توقف خوض الخائضين.

ومن ملامح صرامته التي لن أنساها أن أحد طلابه الذي يشرف عليهم في مرحلة الدكتوراه أُصيب بوفاة والده، بعد الإعلان عن موعد مناقشته، فاتصل بي الطالب راغبًا في مساعدته، من أجل تأجيل المناقشة أسبوعًا أو اثنين، فالتقيت به راغبًا منه العون في هذا الأمر، فسألني إن كانت الأيام الثلاثة قد انقضت، فأجبته بالإيجاب، فأخبرني أنه عاد إلى الجامعة بعد وفاة والده بعد مرور هذه الأيام الثلاثة، ولن يفيد الطالب التأجيل، بل سيؤخره كثيرًا؛ لأن الأمر سيحتاج إلى موافقات جديدة، تتصل بمواعيد سفر المناقش الخارجي وإقامته، فأخبرت الطالب الذي وافق مقتنعًا بوجاهة رأي مشرفه وأهميته. وأحسب أن الهدلق كان متمثلًا تلك الصرامة مع نفسه، فقد كان أول الحاضرين إلى محاضراته، وإلى اجتماعات قسمه ونشاطاته، وكان آخر المغادرين من قاعات

العلم، وأكثر الحضور مشاركة وإثراء فيها. ولم يكن ميالًا إلى نشر أعماله، لولا قيام كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع للغة العربية وآدابها بنشر بعض تلك الأعمال البحثية.

ومن ذلك أنه كان كثير التفاعل مع طلابه وزملائه، يستجيب لأسئلتهم بكل محبة وإخلاص، وما عرضتْ لي مسألة في التراث فسألته عنها إلا وجدت مشاركته معي في حلها بإجابات مسبوقة باهتمامه، ومتبوعة بطيبة قلبه، متباعدًا عن الفخر بما أنجز، أو ادعاء ما لم يفعل، إن أحالك إلى مسألة لا يحيلك إلى كتابه، أو بحثه، وفوق ذلك هو متطلع إلى كل جديد، ومتابع لفنون الثقافة المعاصرة؛ لذا لا عجب إن أحببنا من كان له الفقد خسارة، وكان له بين زملائه فضل الريادة والصدارة!

أستاذ الجيل: أ.د.محمد الهدلق مجمع الفرقاء وأُنْس الرفقاء

❖د. عبدالعزيز بن عبدالله الخراشيّ

بصمت رحلت..
وعن كل ضوء أراك ابتعدت..
كذلك كنت..
كذلك صرت..
لأنك ذاك الصباح الوضيء..
وذاك الجلال الذي لن يفيء..
فرحماك ربي بمن كان دومًا فنارَ عقول إليه تجيء..

عاش ثمانية عقود بجدّ ومصابرة منذ طفولته في ربوع شقراء، وترحّله مع والده مرحلة اليفاع إلى (السرّ) طلبًا للمياه لاستدامة الفلاحة، وكأنّ ديدنه انتجاع الخصيب علمًا فكان ذهابه إلى الرياض بعد إتمامه دراسته في المعهد العلمي ليلتحق بكلية الشريعة واللغة العربية آنذاك؛ فينتظم عامًا، ويعقبه صنوه أ.د.عبدالعزيز المانع عامًا حتى تخرجا ثم التحقا بالعمل في المحكمة المستعجلة فرئاسة القضاء، وحينها تقدما إلى جامعة الأزهر لنيل الماجستير؛ فكان له ذلك مثلما كان لهما أن عُيّنا معيدين في قسم اللغة العربية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية شطر مكة المكرمة؛ ليواصلا رحلة الابتعاث إلى بريطانيا؛ فيعودا بشهادة الدكتوراه لينتقلا إلى قسم اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب بجامعة الملك سعود؛ فيتسنّم فيها مناصب إداريّة من رئاسة القسم وعمادة الآداب، وكذا الدراسات العليا مثلما أسهم في خارج الجامعة كاللجنة الدائمة لمعادلة الشهادات في وزارة التعليم

العالي، ولجنة إعداد المقررات المدرسية في وزارة المعارف آنذاك، وسكرتارية المسار العلمي في المعهد الدبلوماسي، وعديد من التجارب الإدارية.

بهذين البعدين: العلمي والإداريّ انجدلت شخصية أستاذ الجيل: أ.د.محمد الهدلق الذي لا أدعي مطلق المعرفة عنه غير أنني مثل كثير ممن عرفه أستاذًا أو مسؤولًا أو زميلًا أدركت فيه الحكمة والوقار والسمت والقول الفصل من غير منازعة أو إسفاف والحرص على أدبيّات الاختلاف؛ فقد رمقت ذلك ببصيرتي، وتملّيت خلاصة تجربته في عقده الثامن بما أفاءه الله عليّ من نعمة الإفادة من تجاربه في مجالس علمية ولجان داخل القسم وخارجه في شؤون مجلس الشيخ حمد الجاسر، وهيئة تحرير مجلة العرب؛ فكم خصني بتوجيه، وكم ربت على كتفي مؤيدًا ومحفّزًا، وكم نبّه ببعد نظره عمّا لا يخطر ببال، وهو في ذلك لا يجامل لكنّ له سبيل الحكمة واللين في القول مع الحزم في الأمر حيال ما يعتقد صوابه.

كان أول لقاء مباشر بقامته العلمية حين قدم محاضرة في جائزة الملك فيصل قبل عقدين من الزمن تناول فيها مشغل أطروحتي في الماجستير "حديث الشعر عن الشعر من العصر الجاهليّ حتى العصر الأمويّ" التي لّما أنجزها حينها؛ فكانت مداخلتي عمّا يخفى في هذا الموضوع، والمزالق التي يلزم الباحث ألّا يتماهى فيها؛ فسُرّ بذلك وإن لم يبده حينها، بل باح بذلك بعد حين بنحو: كانت مداخلتك خير المداخلات وأعمقها.

وتوطّدت العلاقة أكثر حين كان لي شرف الحضور مع الرعيل الأول في مجلس القسم؛ ممّن تفيد منهم أدب النفس قبل الدرس؛ فخبرت شيئًا من تجاربه مثلما شهدت عديدًا من سجالاته العلمية المتدثّرة بالحكمة والأدب وحسن الظنّ وسلامة الصدر وطيب الخاطر وصفاء النفس.

وقد خصّني الله بنعم منها أن شرفت بإدارة دارة العرب حينًا؛ فكانت أحاديثه في المجلس ومداخلاته وأجلّة الأساتذة الأفاضل تفيض بالحكمة والأناة وسعة الأفق؛ فصقلت بذلك تجربتي الحياتيّة، وشكرت المولى إذ أفاء عليّ بظلال ثلّة من الأخيار مثلما شكرته إذ شرفت برئاسة تحرير مجلة "العرب" التي كان يخصها بوقته وفكره باذلًا من نفسه على ما هي عليه من تقدم العمر واعتلال الصحة خاصة بعد فقده أخاه صالحًا –تغمدهما المولى بواسع رحمته–؛ فقد كان يتحمل تحكيم عديد من الأبحاث، ويستهويه الطريف منها في الأدب والحضارة والاستشراق، وكذا كان ميّالًا إلى ما يخصّ عهد الحروب الصليبيّة من نوادر الموضوعات وغرائب الفكَر، وقد صارحته بما لمحت في آخر اجتماع للمجلة قبل نحو شهرين؛ فأقرّ ميله إلى تعميق القراءة في تلك الحقبة.

ولعلي أختم بما أنست حول أستاذ الجيل؛ إذ رأيت فيه مجمع الفرقاء وأنس الرفقاء، وضوء الصمت الذي لا يسعى إلى الظهور والصوت.

ولئن ساغ لي القول في خاتمة الخاتمة؛ فإني أحيل إلى ندوة الوفاء التي عقدتها دارة العرب ضحى السبت الفائت لقراءة مشاعر مجايليه وتلاميذه ومحبّيه؛ فحسبه أنْ ألّف علماء مثلما ألّف علمًا يلقاه عند خير الوارثين.

د.محمد الهدلق: الوقار والزهد

❖ أ.د. عبدالله الحيدري

رحم الله شيخي وأستاذي الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق رحمة واسعة إذ هو من الشخصيات اللافتة: علماً وخلقا وتواضعاً، وتشرفت بأن أكون أحد تلاميذه في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك سعود في المدة من ١٤٠٢-١٤٠٦هـ (١٩٨٢-١٩٨٦م)، وكانت لأساتذتنا هيبة كبيرة في نفوسنا، ولم نكن نتطلع لبناء علاقة مع أحدهم خارج إطار القاعة الدراسية، بل كنا نتردد في زيارتهم في مكاتبهم، وهذا خطأ كبير في نظري أفقدنا الاستزادة من العلم والوقوف عند بعض الجزئيات التي لم تتضح في أذهاننا أثناء الشرح، وربما كنا قد حصلنا أيضا على بعض مؤلفات أساتذتنا عندما يلحظون جديتنا ورغبتنا في مزيد من العلم.

ودارت الأيام، وعيّنت مذيعاً ومعداً للبرامج في إذاعة الرياض في عام ١٤٠٦هـ، وتخصصت في البرامج الثقافية، ولكنني فوجئت أن أستاذي الكريم ومعه زميله الأثير إلى نفسه أستاذنا الدكتور عبدالعزيز المانع ليسا من محبي الإعلام إطلاقاً، ولديهما الاستعداد للجلوس معك وإفادتك وإنارتك دون ضجيج إعلامي، وهذا موقف له تفسيره إذ يريان أن الإعلام والاقتراب منه قد يجرك إلى الحديث في كل موضوع، سواء كان من اهتمامك أو بعيد عنك، ومثل هذا التوجه لا يحبذه الإعلاميون بلا شك؛ لأنهم أمام برامج وصفحات لا بد أن تملأ، والأساتذة الجامعيون من أهم المرتكزات لإثرائها.

وهذه الصرامة في شخصية الدكتور الهدلق، وهذا التواضع والزهد أفقدنا حضور عالم متميز في مجال اللغة العربية وآدابها في وسائل الإعلام، بل

واكتشفت فيما بعد أنه مقل إلى درجة ملحوظة في المشاركة في المؤتمرات والندوات والملتقيات، وتكاد مشاركاته حسب علمي تعدّ على الأصابع، ولكنه إذا شارك أعد ورقة معمّقة تليق باسمه وعلمه وسمعته، ومن أهم البحوث التي أعدها وشارك بها في ملتقيات داخل المملكة البحوث التالية: اهتمام الشيخ **حمد الجاسر** بالشعر والشعراء كما يبدو من كتابه "مع الشعراء"(عام١٤٢٤هـ في ندوة الشيخ حمد الجاسر وجهوده العلمية بجامعة الملك سعود)، **وأبو عبدالرحمن ابن عقيل** أديباً (عام ١٤٢٥هـ بالنادي الأدبي بالرياض)، والحضور التراثي في الخطاب النقدي لدى الدكتور **عبدالله الغذّامي:** الخطيئة والتكفير أنموذجاً (عام١٤٢٩هـ ضمن بحوث الدورة الثانية من ملتقى النقد الأدبي في المملكة)، والبعد الثقافي في حكاية الصبي الذي رأى النوم **لعدي الحربش** (عام١٤٢٩هـ في ملتقى القصة بنادي القصيم الأدبي)، والنقد الأدبي في عصر صدر الإسلام (عام١٤٣٥هـ في ندوة شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة)، وغيرها، ولكنها تظل قليلة جداً بالقياس إلى مكانته العلمية.

وعندما عيّن عضواً في مجلس إدارة النادي الأدبي بالرياض في المدة من (١٤٢٧-١٤٣١هـ) اضطر إلى الخروج من نطاق الجامعة الضيّق إلى المشهد الثقافي الواسع، ونتج عن ذلك بعض المشاركات في الملتقيات، ومنها بعض البحوث السابقة، ومشاركته في بعض اللجان التي فرضها وجوده في النادي الأدبي بالرياض، ومنها عضويته في اللجنة التحضيرية لملتقى النقد الأدبي في المملكة العربية السعودية (الدورة الثانية) عام ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، وكنت محظوظاً في أكون مع شيخي عضواً في هذه اللجنة.

وتعبيراً عن الحب الصادق لأستاذي الكريم الدكتور محمد الهدلق اخترت أن أكتب عنه مدخلاً في قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية،

ونشر المدخل في القاموس عام ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ولكنها كانت سيرة مقتضبة موجزة بناء على رغبته إذ لم يزودني إلا بمعلومات مركزة تعكس شخصيته المتواضعة.

وتقديراً لجهوده في تأسيس مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية وكونه أول رئيس لمجلس الأمناء، طرحت على زملائي في مجلس إدارة النادي الأدبي بالرياض عندما انتهت مدته في المركز أن نكرّمه في احتفال اليوم العالمي للغة العربية عام١٤٣٦هـ/٢٠١٤م، ومن المواقف المؤثرة في هذا الحفل: حضور الدكتور عبدالله بن صالح العثيمين رحمه الله في وضع صحي حرج ليشارك بمداخلة عن الدكتور الهدلق، ومما قال: لن أنسى، ولا يمكن أن أنسى عندما كنا معاً في بريطانيا للدراسات العليا فرحة الدكتور محمد الهدلق بحصولي على الدكتوراه وإصراره على إعداد وليمة غداء بحضور عدد من الزملاء بهذه المناسبة؛ تعبيراً عن حبه وتقديره لي، وهذه الوليمة ما يزال أثرها باقيا في ذهني وفي نفسي ما حييت.

وتدريجياً بدأ الدكتور محمد الهدلق يقترب من مجتمعه ومحبيه أكثر حين أنشأ حساباً له في تويتر يفيض من خلاله على متابعيه بتغريدات مفيدة ونافعة ويعيد تدوير ما يستحسن من تغريدات الجادين من الفاعلين في تويتر، وجاءت البشرى في عام (١٤٣٧هـ/٢٠١٦م) بصدور كتاب له عن طريق كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع، وهو كتاب جمع فيه تحقيقاته لبعض الكتب التراثية، وعنوانه "رسائل تراثية في النقد والبلاغة"، وما كان له أن يصدر لولا إلحاح صديقه المقرّب أستاذنا الدكتور المانع؛ ثم مارس عليه ضغوطاً أخرى، واستطاع أن يظفر كرسي المانع بكتب أخرى له، وهي: "في الثقافة النقدية" (١٤٣٨هـ/٢٠١٧م)،

و"قراءات في البيان العربي (١٤٣٨هـ/٢٠١٧م)،و"سجالات حول المعنى" (١٤٣٩هـ/٢٠١٨م).

وختاماً: رحم الله شيخنا وأستاذنا الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

أستاذ المودة والأخلاق النبيلة

الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الرحمن الهدلق

❖أ. د. صالح بن عبد الله الخضيري

الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الرحمن الهدلق ـ رحمه الله ـ من أبرز القامات العلمية في الجامعات السعودية، يتميز هذا الرجل بالسماحة، في قلبه رحمة ومودة وأخلاق نبيلة، ويبتعد دائما عن الصراعات والنقاشات غير المفيدة، وعندما تقابله أول مرة تشعر للوهلة الأولى أنك تعرفه منذ زمن بعيد، وهذه السجية السمحة جعلته لا يضع حواجز بينه وبين غيره؛ لذا فإن كثيرًا من طلبة العلم يجلونه ويحترمونه، سواء في ذلك من درسهم ومن لم يدرسهم.

كانت بداية معرفتي بالدكتور محمد بن عبد الرحمن الهدلق عندما قابلته في مكتبة الجامعة مكتبة الملك سلمان، وكنت أقوم بإعداد رسالة الماجستير، وكنت حينها أبحث عن بعض المصادر في أحد الرفوف، وكان الدكتور واقفًا أمام ذلك الرف، وعندما عرف موضوع بحثي دلني ـ جزاه الله خيرًا ـ على بعض المصادر المفيدة، مع أنني كنت أدرس في جامعة أخرى، وعندما انصرف الدكتور سألت الموظف في المكتبة عن اسم الدكتور فقال: هذا الدكتور محمد الهدلق أستاذ في كلية الآداب.

توطدت علاقتي بالدكتور محمد الهدلق عندما انتقلت إلى قسم اللغة العربية وآدابها، بعد ضم كلية المعلمين في الرياض إلى جامعة الملك سعود، وعندما قابلته عرَفته بنفسي فرحب بي، وذكر لي أنه يعرف والدي ـ رحمه الله ـ الذي درس في معهد شقراء العلمي في بداية تأسيس المعهد، وأطلعني على معلومات عن والدي ـ رحمه الله ـ لم أكن أعرفها من قبل.

جمعتني بالدكتور محمد ـ مناقشة عدد من الرسائل العلمية، وكان ـ رحمه الله ـ حريصًا جدًا على توجيه لجنة المناقشة إلى الأخذ بالأسلوب العلمي، بعيدا عن الانتقاص من شخصية الباحث بسبب بعض الأخطاء، أو الإشادة التي تتجاوز الحد المعقول، وأنه يجب التأكد من صحة المعلومات التي يضيفها المناقش للباحث، وكان يراعي مشاعر الطلاب عندما يقوم بتعداد الأخطاء، حيث قال في إحدى المناقشات: من يبحث ويجتهد قد يقع في بعض الأخطاء، ومن لا يبحث لا يخطئ لكن يبقى بحثه سقيما.

في عام ١٤٤٠ كان في قسم اللغة العربية وآدابها ندوة، وقد حضرها أحد الأدباء العرب، وكان يشيد بجهود الدكتور محمد الهدلق، ولكنه كان يخطئ في اسم الدكتور محمد الهدلق، حيث كان يقول: محمد الدهلق، وقد كرر ذلك عدة مرات، وقد شكره الدكتور محمد الهدلق ولم يصحح خطأه بالاسم، وعند الانصراف قلت للضيف عند باب القاعة: اسم الدكتور" الهدلق" وليس: الدهلق؛ فعاد وصافح الدكتور محمد، وتكلم معه بصوت منخفض.

وبعد ترك الدكتور محمد الهدلق العمل بالقسم استمرت المراسلات بيني وبينه عن طريق الهاتف المحمول، وكان يبعث لي رسائل في أوقات متباعدة، وكانت آخر رسالة وصلتني منه في شهر محرم بداية عام ١٤٤٥هـ.

اللهم ارحم أستاذنا الدكتور محمد ين عبد الرحمن الهدلق رحمة واسعة، واجعل قبره روضة من رياض الجنة، وأسكنه الفردوس الأعلى.

صفةٌ جامعة من صفات الراحل

❖ أ. د. صالح زياد الغامدي

تميَّز أ. د. محمد بن عبد الرحمن الهدلق (رحمه الله) بصفة لم تقتصر على خُلقه الفاضل الذي عرفه كل من كانت له صلة به، بل كان لها سطوتها وتأثيرها في نتاجه العلمي، وفي أعماله الإدارية التي كان يمارسها في المناصب الأكاديمية التي تسنمها، أو في عضويته في المجالس واللجان المختلفة، وحتى في مشورته ورؤاه العامة. وهذه الصفة هي انعدام الأثرة وحس الأنا، وتراجُع الحسابات الشخصية، أي حسابات التكسُّب والظهور والتصدُّر، التي لا تنفصل عن ذلك الحس.

وهذه صفة جليلة الأثر وعظيمة القدر من أكثر من وجه:

أولها، قلَّة اتصاف الأشخاص بها، فأكثر الناس متمركزون، قليلاً أو كثيراً، على ذواتهم، وشديدو الانحياز إليها، والبحث عما يخدمها.

والثاني، غموض هذا التمركز الذاتي وخفاؤه على ملاحظة أصحابه أو إدراكهم له؛ فهو ينبع من الباطن العميق للتكوين الذاتي ويبدو لهم طبيعياً ومن ثم تستعصي عليهم، إن لم تستحل، ملاحظته فضلاً عن انتقاده والفكاك من تحيزاته وقيوده.

والثالث، أن الاتصاف بها، يضفي على رؤية الإنسان موضوعيةً، وعلى ضميره نزاهةً وعدالة، وعلى أخلاقه سمواً وارتقاءً.

وقد يقول المرء إن هذه الصفة تُباعد بين من يتصف بها وبين القرب من الناس واجتذابهم إلى محبته وتقديره والحساب لوثاقة العلاقة به. وذلك لأنها تُخيِّل إلينا صاحبها صارماً لا يجامل، وآلياً جامداً لا ينبض بالعواطف، ومترفعاً عن

المداهنة، وزاهداً في كل ما يجعل له عند الناس حظوة من تلك الحظوات الناتجة عما يجافي منطق العدالة والنزاهة والموضوعية، أو عن الرغبة في كسب تحيُّزه إلى بطلانهم أو أثرتهم. وقد استعارت لغة هؤلاء المَصْلَحيّين لوصف الأشخاص الذين يتسمون بهذه الصفة صفات "البيروقراطي" أو "المتشدّد" أو "الحَرْفي"... ونحوها، فضلاً عن إحالتهم لها إلى رذيلة لا فضيلة، وعزوهم لها إلى الخوف من المساءلة عند من هو أكبر في السُّلّم الوظيفي، أو النفاق له... وما إلى ذلك.

وعلى رغم ذلك فقد كان الاحترام لأستاذنا الهدلق والاعتزاز به ومحبته كبيراً في نفوس طلابه وزملائه ومرؤوسيه أو من كانوا يندرجون تحت سلطة إدارته أو إشرافه. ومع أن الجميع يعرف تلك الصفة التي تحلَّى بها وتجلياتها أو آثارها المتعددة في عمله أو علاقاته، وقد يهمس بعضهم بها أو يجهر، فلم يكن من شأن ذلك أن يؤثر على إجلالهم له ومحبته وتقديره. ولا يعني ذلك، بالطبع، أن رأي المتمصلحين أو الانتهازيين، الموصوف أعلاه، تغيَّر، بل يعني، بالضرورة، أن هذه الصفة بكل تأكيد نوعٌ من السمو الأخلاقي والمعنوي، وأنها ترفع صاحبها وتُكسبه هيبةً وجلالاً ومحبةً في النفوس. وكأن حالنا معها كما هو الحال مع كل الصفات الممدوحة في الضمير الإنساني، سواء أكانت أخلاقاً فاضلةً، أم قدرات ومواهب نافذة، ترغمنا على الشعور بقصورنا وعجزنا وإخفاقنا أمام نموذجية من يتصفون بها، وامتيازهم.

والحق أن ما اتصف به الدكتور محمد الهدلق من تلك الصفة التي لا تترك مجالاً لتهاون في حق، أو انحياز إلى باطل، أو تفريط في واجب، أو تقصير فيما تقتضيه اللوائح النظامية الرسمية، أو المبادئ العلمية، لم يكن يباعد بينه وبين لين الجانب ولطف الحديث وسخاء الابتسامة وصدق النصيحة والإشفاق على طلابه والعطف على زملائه. ويُخيَّل إليّ أن كل واحد من زملائنا في القسم كان يرى

فيما يمحضه أبو خالد من مودة وقرب وتعاطف نصيباً يختصه فيه بزيادة على غيره من الزملاء.

وهذا يقودني إلى تذكُّر أول مرة عرفته فيها، وكانت في نهاية الثمانينيات الميلادية أو أوائل التسعينيات، حين تقدمت للقبول في مرحلة الدكتوراة بجامعة الملك سعود. فقد أعلن القسم عن جدول للمقابلات الشخصية، وحضرت إلى لجنة المقابلة، وكان رئيسها الدكتور الهدلق، ومعه أربعة من الأساتذة العرب من سوريا والسودان ومصر، ولم أعرف منهم حينها إلا أحمد كمال زكي، لأنه كان معروفاً لي بمقالاته وبعض كتبه وإسهامه ببعض المحاضرات في الساحة الأدبية في ذلك الزمن. وقابلت الدكتور الهدلق منفرداً قبل وصول الأساتذة، فاطمأننت إليه وهو يحادثني هاشاً باشاً ويسألني عن دراستي للماجستير وموضوع الأطروحة والمشرف، ثم يلتفت بلطف ودماثة للسؤال عن أحوال بعض من يعرفهم في جامعة الإمام في الرياض وأبها... إلى آخره.

وبعد أن اكتمل عقد اللجنة ابتدأ رحمه الله بتوجيه الأسئلة إلي، فرأيته يتجلى بأجل ما تكون هيبة العلماء ورصانتهم، وكان أول ما ابتدرني به من الأسئلة، قول أبي تمام:

من الهيف لو أن الخلاخل صيِّرت لها وُشحاً جالت عليها الخلاخل

ولم يقل إنه لأبي تمام، ولكنه قال لي: أوضح لنا الصورة التي صورها الشاعر في هذا البيت، وكيف تبدو لك؟. وكنت قد اطلعت، لحسن الحظ، على كتاب الآمدي "الموازنة"، ووقفت على حملته الشنعاء على "أخطاء أبي تمام في الألفاظ والمعاني" التي ورد هذا البيت ضمن أبيات أخرى من شعره في التمثيل عليها. فقال: "هذا الذي وصفه أبو تمام ضد ما نطقت به العرب، وهو أقبح ما وُصف به النساء؛ لأن من شأن الخلاخيل والبُرين أن توصف بأنها تَعَضُّ في

الأعضاد والسواعد". ثم مضى قائلاً: "وإذا كان الخلخال –وهو الحلقة المستديرة المعروف قدرها– وشاحاً للمرأة فإنه يأخذ أعلى جسدها كله، وإذا كانت كذلك فقد مُسخت إلى غاية القماءة والصغر، وصارت في هيئة الجُعل".

وتحدثت بمعاني ماقاله الآمدي تقريباً على البيت، وربما كان يخالجني شعورٌ يشبه الرضا عن الذات، أن السؤال لم يعجزني، أو أنني على الأقل نفذتُ منه. لكن حضور الدكتور الهدلق كان يحمل هيبة العلماء وسيماء الأساتيذ الكبار، في طريقة إنصاته لحديثي، ونظراته التي كان يصوبها إلي، والأهم من ذلك نطقه حين ينطق، فقد أنشأ يقود حديثي مستحِثًّا إياي إلى التلفظ بعبارات الآمدي نفسها التي كانت تفيض من شفتيه، وقد راضها على لسانه طول المدارسة والملابسة لها، وهذه سمة تعمقت معرفتي لها في عالِميته لاحقاً، فقد كان متشرِّباً التراث النقدي والبلاغي، وعارفاً بمتونه حتى ليشعرك أنه يحفظها عن ظهر قلب.

وأخذتْ أسئلةُ أستاذنا الهدلق ونظراته تحاصرني وتُسلمني إلى الأساتذة الآخرين الذين يبدون لي في ذلك الزمن وكأنهم يعملون جهدهم من أجل انتقاء أو صياغة أسئلة أنجح في مواجهتها حيناً وأخفق أحياناً أخرى. وتكاد تلك الأسئلة ألا تترك مجالاً أو موضوعاً من الموضوعات التي تستلزمها دراسة الأدب والنقد واللغة أو لا تستلزمها، فهي في النحو والصرف والعروض، وفي كتب التراث البلاغي والنقدي أو في النقد عند اليونان والرومان، وفي مذاهب الأدب وقضايا النقد الحديث والنظرية الأدبية ومناهج دراسة النصوص. واستمرت المقابلة وقتاً بدا لي طويلاً، وخرجتُ منها بمزيج من المشاعر أيقض في نفسي معاني جديدة، فقد كانت تحدياً لي بأصدق دلالة للتحدي، وأفرغت نفسي من أي شعور بالتبسط والسطحية في مقاربة المسائل المعرفية والعلمية، وأخذتُ أستعيد أسئلتهم

وعباراتهم بل وما ذكروه من كتب وأعلام وأفكار وإشكالات فبدت لي السعة والتعقيد والعمق والجدِّيّة.

وهكذا بدت لي المسافة في شخصية الدكتور الهدلق، بعد أن تعمقت معرفتي به بانتقالي للعمل بجامعة الملك سعود، بين الألفة والتعاطف والمجاملة في علاقته الشخصية بي وبالزملاء والطلاب جميعاً، والصرامة والموضوعية والنزاهة التي لاتوفر أحداً، وتكتسح الجميع. وهذه قوة نفسية وأخلاقية لا يملكها إلا قليل من الناس في كل المجتمعات، وهي ضرورية لتصحيح مساراتها وتصويب سيرورتها والرقي بأفرادها عن الشهوات والشبهات والأخطاء.

وأتذكر مما يمكن الاستشهاد به على ذلك، زمالتي له في عضوية لجنة شكَّلها القسم لدراسة شكوى تقدمت بها إحدى الزميلات متظلمةً من سطوة رئيسة عليها وتحيزها ضدها. واجتمع أستاذنا الهدلق بنا نحن أعضاء اللجنة، لنطَّلع على تفاصيل الشكوى ونتناقش في شأنها، وانتهينا إلى ضرورة أن تلتقي اللجنة مع صاحبة الشكوى للاستفسار عن بعض ما تضمنته الشكوى ولمحاولة التأكد من صدقية ادعاءاتها عبر ما تملكه من أدلة وقرائن. وبالفعل التقينا بها لقاءً مطولاً أشعرنا –أو بعضنا على الأقل– بالألم لها. ثم طلب مني الدكتور الهدلق أن أكتب تقريراً بما توصّلتْ إليه اللجنة لتقديمه إلى رئيس القسم. فوجدت –بصدق– أنني بحضوره لن أستطيع كتابة تقرير لائق. ذلك لأنني أخشى من الإخفاق في التجرد من العواطف، والبعد عن المبالغة في تصوُّر الوقائع أو التهوين منها. فأعتذرت قائلاً: "لن يكتب هذا التقرير أفضل منك يا أستاذنا". قال: "يامعونة بالله".

وحين أطْلعنا على التقرير، طلب منا قراءته لرصد أي ملحوظة نرى مناقشتها أو تعديلها. فأخذتُ أقرأه جملةً جملة، وأتوقف بين الحين والآخر

متفكّراً في هذا التجرُّد للحقيقة وما يشيعه في التقرير من قوة نفسية وتعبيرات محكمة. فالتقرير يعبِّر عن فهم لفحوى الشكوى واستدلال على حقيقتها من غير تزيُّد أو انتقاص. وتنتقل وأنت تقرأه بين عبارات من قبيل "وتبيَّن للجنة..." و"لم يتسن للجنة التحقق من كذا"... إلخ. ولا ينتهي التقرير إلى حكم معيَّن، ولا إلى استخلاصات أو نتيجة نهائية، وكأنه يدلل على أن من اللازم ألا تختلط مهمة الوصف والتشخيص والكشف التي يعبِّر عنها، مع مهمة الحكم والوقوف على نتيجة؛ فسلطة إصدار الحكم يمكن أن تربك مهمة الكشف والتحقُّق وتوجِّهها من عل حين تجتمع معها وتلابسها.

وبوسع المرء أن يكتشف في الدراسات التي أنجزها الدكتور الهدلق شهادةً أخرى على هذا المعنى؛ معنى الترامي إلى التجرُّد للحقيقة وحدها، ومحاولة النجاة من الانحيازات والتحيزات التي يحملنا عليها ما نجد فيه مدداً لقوتنا الشخصية ضمن سياقنا الاجتماعي والثقافي. وسأتوقف في هذا الصدد عند ورقته التي قدمها في الندوة التي أقامها نادي جدة الأدبي الثقافي في الفترة من ١٩-٢٤/ ١١/ ١٩٨٨م "قراءة جديدة لتراثنا النقدي".

ولن يتضح لنا ما نرمي إليه بهذا المثال، من دون الوعي بسياق الندوة في تلك الحقبة التاريخية والثقافية التي كانت تتصارع فيها أو تتنافس قوتان ثقافيتان: قوة التأييد للحداثة والانتصار لها والانحياز إليها، في مقابل قوة المعارضة لها ومغالبتها. ذلك أن قوة الأفكار والنصوص والمنتجات الثقافية وحيويتها تأتي مما تحمله في سياقها من "طاقة اجتماعية" - على حد تسمية ستيفن جرينبلات أحد أبرز رواد "الشعرية الثقافية" أو ما يسمى "التاريخية الجديدة". وهو المعنى ذاته الذيتصوَّره عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو للخطاب، فليس لديه خطاب لا يستمدُّ معناه وقيمته من السوق الذي يعمل فيه. والمعنى الذي نستخلصه من ذلك

لا يتلخص في استحالة أخلاقيات النزاهة والموضوعية والتجرد للحقيقة وامتناعها بالضرورة، بل صعوبتها أو تأويلاتها التي تستثمرها أو توظِّف أثرها في الانحياز لهذا الموقف أو ذاك. ذلك أن المنظور الفكري لهذه الأطروحة لا يوجد فيه نطق أو صمت، ولا إقبال بإعلان موقف أو إدبار بالهروب من أي موقف وتحاشيه، من دون أن يحمل دلالة تصب –لا محالة– هنا أو هناك.

وأود في ضوء ذلك أن نتأمل في اختيار أستاذنا الهدلق لموضوع ورقته، وطريقته في صياغة مادتها وتقديمها. كان عنوان ورقته في المجلد الذي ضم أوراق الندوة والنقاشات حولها: "رسالة في الفرق بين المترسِّل والشاعر لأبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ: تقديم وتحقيق". ومدار تلك الرسالة على التعليل والتحليل لافتراق طريق الإحسان في منثور الكلام عن طريق الإحسان في منظومه، وقد جاء الوضوح والغموض في مركز ذلك التقابل؛ فـ"أفخر الترسُّل هو ما وضُح معناه" و"أفخر الشعر ما غمُض". وبالطبع فإن غموض الشعر أو وضوحه هما مدار افتراق بين أنصار الحداثة وخصومها، فالحداثيون يدافعون عن غموض الشعر ويبررونه ويجدون فيه سبباً تتحقق به الصفة الإبداعية والإمتاعية فضلاً عن تحقُّق الثورية على المألوف والسائد وعلى الإيديولوجيا، وخصومهم ينحازون إلى الوضوح ويرون فيه غاية أي عبارة سواء كانت شعراً أو نثراً، وأن هذا طريق العرب وعادتهم، وينسبون الغموض إلى العجز عن امتلاك ناصية البلاغة، أو إلى التغريب ومفارقة طريق العرب وعادتهم.

وهكذا تتصل قراءة الموقف الذي تقفه رسالة الصابئ وما يتعلق بها من مواقف القدامى، بمواقف برزت في العصر الحديث، تجاه الحداثة وتجاه التراث، وأبرزها أربعة:

١- الموقف الحداثي الذي يريد تبرير أطروحاته أو منظوره بالاستناد إلى اختيار مواقف وشواهد من التراث أو تأوُّلها.

٢- الموقف الحداثي الذي يقطع مع التراث، ويرى أن الحداثة لا تقوم لها قائمة دون تجاوز الماضي ومقولاته جملةً وتفصيلاً.

٣- الموقف المضاد للحداثة، الذي وجد في الردود العنيفة من أعلام التراث البلاغي والنقدي على رسالة الصابئ سنداً له.

٤- الموقف المضاد للحداثة، الذي يرى شمولية التراث، واكتمال النظر فيه إلى كل المسائل، فلم يعد للمحدَثين بكل اتجاهاتهم إلا العودة إليه وإمعان النظر فيه وتدقيقه.

والمهم هنا، هو أن هذه المواقف ليست مواقف فردية، أي ليست رأياً يراه هذا الناقد الأدبي أو ذاك لوحده، بل هي تيارات في الفكر والثقافة فاعلة مادياً فضلاً عن فعلها الرمزي في بناء صورة معينة للذات وعلاقاتها مع التراث ومع الآخر، وفي تشكيل الواقع والتأثير على سيرورته وعلاقاته. وإلى ذلك فإنها ليست مجردة لحقيقة متعالية على الوقائع، أي حقيقة ليس لها تأثُّرٌ بالصراع والتدافع والمفاوضات بين الفئات والتيارات الاجتماعية والثقافية القائمة في التاريخ الحديث، وتأثيرٌ فيها. وإذا كان الأمر كذلك، ولا محيد بالطبع عن أنه كذلك، فإنه يدفعنا دفعاً إلى التساؤل عن موقف الدكتور الهدلق وقراءته أو تفسيره للموقف الذي تضمَّنته رسالة الصابئ، ومن ثم عن أي موقف يندرج فيه أو يواليه من تلك المواقف الأربعة المذكورة.

والحق أن هذا التساؤل الأخير يقتضي منا وقفتين أولاهما عن علة اختيار الهدلق لهذه الرسالة والثانية عن الطريقة التي قدمهابها في الندوة. فالرسالة منتَجٌ تراثي وهي في الوقت نفسه تنحو منحى التفضيل للغموض في الشعر، الذي لا

ينبغي أن نحصر فهمنا له في حسبانه اختياراً لطريقة تعبير نعدل فيها من الوضوح إلى الغموض، بل خاصية في التفكير نفسه، إلى حد أنها تحمل في الحداثة معاني ثورية وتحررية. وهذان –إذن– وجهان للقيمة التي تُكسبها أهمية لدى المواقف الأربعة، كلٌّ منها من وجهته، على مستوى التعزيز والاستقواء بها، وعلى مستوى المعارضة لها، وعلى مستوى النقاش الذي يمكن أن يتخذها دليلاً على قصور الرؤية التراثية عما تراه الحداثة وتهتم به، أو الذي يقوم بعكس ذلك فيتخذها دليلاً على أن الأول لم يترك للآخِر شيئاً، وأن التراث وعى مسائل الحداثة وزيادة.

فاختيار الهدلق لرسالة الصابئ، هو وقوع على سُرَّة من السُّرر التي تجتمع عندها وفيها معاقد صراع نظري ونقدي متعدد التوجهات والمشارب. فكيف كان تناوله لها أو تقديمه إياها إلى الندوة؟. لم تكن الرسالة في حقيقة الأمر متوافرةً للباحثين، وكل الاستشهادات بها، أو الإحالات عليها، كانت تعود إلى مؤلفين آخرين بعضهم ينتقد رأي الصابئ الذي تضمنته ويعترض عليه أو علىبعضه مثل ابن سنان الخفاجي (- ٤٦٦هـ) في "سر الفصاحة" وضياء الدين بن الأثير (- ٦٣٧هـ) في "المثل السائر"، وبعضهم يتفق معه مثل ابن أبي الحديد (- ٦٥٦هـ) في "الفلك الدائر" والمرزوقي (- ٤٢١هـ) في مقدمته لشرح ديوان "الحماسة" الذي لم يذكر اسم الصابئ، وهذا ما جعله حقيقاً بصفة السارق لدى الهدلق. ولذلك كان جهد الهدلق الأول هو العثور على نسخ مخطوطتها والقيام بتحقيقها.

وإضافةً إلى تحقيقها كتب تقديماً لها، عرَّف فيه بالصابئ تعريفاً تطرق فيه إلى نسبه، وميلاده، وتعليمه، وميوله إلى الأدب، ودينه الذي ينتمي إلى طائفة الصابئة، وحسن عشرته للمسلمين،ومعاناته من تقلبات السلطة وصراعاتها،

وشهرته بفن الترسل، وثناء الكتاب والأدباء على بلاغته، كما تطرق إلى مؤلفاته. وخرج من ذلك إلى التعريف برسالته موضوع التحقيق، وأنها جاءت ردا على سؤال وُجِّه إليه عن سبب عدم إجادة أكثر المترسلين الشعر، وعدم إجادة أكثر الشعراء الترسل، وما أثارته الرسالة من آراء عدد من النقاد وردود فعلهم المتباينة التي عارضته والتي وافقته بشأن الغموض في الشعر بشتى أشكاله. وذهب، بعد ذلك، إلى وصف تلك الآراء وردود الفعل والاستشهاد بمقتبسات مما قال أصحابها. ثم انتقل إلى وصف نُسخ المخطوطة التي اعتمد عليها في التحقيق، ثم خلص إلى إيراد تحقيقه لنص الرسالة، وختم الورقة بثبت للمصادر والمراجع.

ولم يشفع الهدلق تحقيقه وتقديمه للرسالة، بدراسة أو تحليل لها، في ضوء بنيتها المنطقية أو في ضوء سياقها وما تترامى إليه. ولم يعقد موازنة أو مقارنة بينها وبين الرؤى الحديثة، ولم يعقِّب عليها بما يتضمن تفسيراً لها أو تأويلاً بأي معنى، بل تركها وقد استجمعت بالتحقيق والتقديم أفقاً مفتوحاً لخيارات متعددة للقراءة. ولذلك فإن المنتدين (وهم آنذاك من الأساتيذ الأبرز عربياً في مجال النقد والنظرية الأدبية، وقد انتقل عددٌ منهم إلى رحمة الله. ومجلد أوراق الندوة يضم إلى الأوراق المناقشات التي أعقبتها بلغة محرَّرة ودقيقة) قد أخذوا يناقشون الورقة مناقشات تعكس تلك المواقف الأربعة المذكورة أعلاه، بمعنى أن أي رؤية لرسالة الصابئ لا تتركها معلقة في الماضي التاريخي، بل تنظر إليها من موقع صراعي مع وجهة أو وجهات مضادة تتقوى بالتراث أو بالحداثة أو بالتسوية والمصالحة بينهما.

ولعل من أبرز ما يمكن التمثيل به من تلك المناقشات تمثيلاً شاملاً وجامعاً لما اشتغلت المناقشات برؤيته والتساؤل عنه، توجُّه جابر عصفور إلى فهم رسالة الصابئ على أنها ذم للشعر ومدح للنثر، وأن ذلك يرتبط بالوظائف الاجتماعية والسياق الديني، ضمن إطارها التاريخي. وهو الفهم الذي أثار عند صلاح فضل

السؤال نفسه، أي الوظيفة الاجتماعية لكلا الجنسين: الشعر والنثر. وهذا سؤال يريد التفهم لغرض الرسالة ومرماها في سياقها الزمني على نحو تنبني عليه قيمتها المعرفية والوظيفية (أو انعدام قيمتها عملياً) من هذه الوجهة أو تلك في العصر الحديث. أما لدى عبد الملك مرتاض فكانت الالتفاتة إلى البحث عن قيمتها النظرية المعاصرة؛ إذ تحدَّث عن عدم جدوى النظر إليها من منظور التاريخ فحسب، فجدواها هي أن يجري توظيفها في تأسيس نظرية نقدية معاصرة، وإذا لم نعالج هذه الآراء والنظريات القديمة في منظور عصري فإننا لا نفيد منها شيئاً كثيراً. وبإزاء ذلك كان هناك آراء اتجهت إلى الحملة على من يزيِّن الغموض في الشعر أو يرى حتميته، كما في تعليق محمد مريسي الحارثي، ووصل أصحابهذه الآراء بين الحملة على قراءة رسالة الصابئ وفهمها من هذه الوجهة، وبين حملتهم على الافتتان بالمستورد. وكانت المناقشات جميعاً على الأرجح تضمر أو تعلن انتقاداً لخلو هذه الورقة من الدراسة أو القراءة التي تعبِّر عن وجهة الناقد.

ولم يختلف، في رده على تعليقات المنتدين ومناقشاتهم له، مع بعض ما طرحوه،وخصوصاً ما يتعلق بفرز ما يمكن أن يتعلق بالسياق الزمني والخاص للصابئ، فالصابئ بصفته كاتباً "يرتزق من مهنته" وهي –يقول الهدلق– "مسألة دفاع عن الرزق". وذلك في مقابل فرزه لما يعلو على الزمن أو على الخصوص. لكن الهدلق وهو ينظر معهم إلى الرسالة فيشاركهم ويخالفهم فيما رأوا يعلن أن ورقته قامت بغرض التحقيق فحسب، وأن هذا الغرض لوحده كاف عن أي تحليل أو دراسة للرسالةيمكن أن تلحق؛ وعبَّر عن الاقتصار موضوعياً على هذا الغرض بقوله: "لكنه هنا الآن مقيد بتحقيق رسالة وأردت أن أقدِّم لهذه الرسالة بشيء لا يخرج عن الشيء المعهود في مجال التحقيق فجئت بهؤلاالذين اعترضوا

وأولئك الذين وافقوها، فإذا ما أراد دارس أن يتابع ذلك يكون الباب قد فُتحأو قد وُضع أمامه شيء من الأشياء التي تساعد في هذا المجال".

وهذه رصانة منهجية في الرؤية إلى الأشياء أو الموضوعات، وصيانة التقديم المجرد لموضوعيتها عن أن يختلط بغرض من أغراض التفسير والحكم والقبول أو الرفض. وبوسعنا أن نعقد مقارنة بين تحقيقه في شكوى الأستاذة المتظلمة، وتحقيقه لرسالة الصابئ، فالغرض الموضوعي في كليهما قام لديه بمعزل عن أي قصد أو هوى يجاوز ما يجب أن يوفَّر له من موضوعية. مثلما يمكن أن نصطحب في هذه المقارنة صفة النزاهة والرصانة الشخصية والأخلاقية التي كانت دلالتها على تضاؤل حسه بالأنا مؤداه إلى البعد عن أيمسلكيات استعراضية للقوة الشخصية والنفوذ والرغبة في التصدر.وفي النهاية علينا أن نتذكر أن هذا جزءٌ جوهري من سمة الهيبة والوقار التي كان يتميز بها، وسببٌ من أسباب محبته وإكباره والاحترام له عليه رحمة الله.

الرحيل المر

❖أ. د. عبداللطيف بن محمد الحميد

رحل في السادس والعشرين من الشهر السادس لعام ١٤٤٥هـ علم من أعلام اللغة العربية والتراث العربي في بلادنا والعالم العربي قاطبةً أستاذنا الدكتور محمد بن عبد الرحمن الهدلق (١٣٦٣- ١٤٤٥هـ) رحمه الله تعالى.. ترك عظيم الأثر وجليل الأعمال.. مع خلق عظيم وعلم غزير وحلم وتؤدة وأناة وحلم وتسامح وجد وحزم ولطف وطرافة وتفاعل ثقافي مجتمعي أصيل.

قال عنه الدكتور الغذامي: (الوفي النبيل، والعالم الجليل، ورفيق الدرب) وقال عنه الدكتور إبراهيم التركي: (الأصيل، المتزن، المتوازن) وقال عنه الدكتور الضبيب: (الأستاذ الجامعي المخلص لمهمته، والمتفاني في سبيل أكاديميته، الملتزم دائماً بشروط الأداء المتميز) وقال عنه الأستاذ حمد القاضي: (نعم الرجل: ديناً وخلقاً وعطاء لثقافة وطنه وطلابه) وقال عنه الأستاذ زياد الدريس: (رحم الله الأستاذ الفذ، والعالم الرصين، والأخ النبيل...)

وأما الأستاذ الدكتور عبدالعزيز بن ناصر المانع صنو الدكتور الهدلق ورفيق دربه سبعة عقود وتوأم مسيرتهما الثنائية زمالة وصداقة وتخصصاً ووظيفة ولجاناً وحضراً وسفراً فيقول: (عرفت الصديق الدكتور الهدلق منذ زمن طويل جداً، فلقد زاملته في المدرسة الابتدائية في (شقراء)، ثم في المعهد العلمي هناك، ثم في كلية اللغة العربية بالرياض، ثم في جامعة الأزهر بمصر، ثم في الإعادة بقسم اللغة العربية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، ثم في البعثة إلى بريطانيا، ثم في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض، ثم في عضوية مجلس النادي الأدبي بالرياض، ثم في مجلس أمناء

مؤسسة حمد الجاسر الثقافية، ثم في مجلس أمناء مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية...).

هذا بعض مما قيل عن الراحل من معاصريه ومجايليه ومحبيه.. وأما عن تجربتي مع الراحل الكريم فهي ممتدة الجذور في شقراء وفي الرياض.. وكنت أسمع منه بعض سوالف عن أعمامي قديمة لم أدركها بحكم وجودي بالرياض منذ الطفولة. ثم لما أسس الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري مجلته (الدرعية) وكنت مدير تحرير لها، كان الدكتور الهدلق والدكتور المانع من بين أعضاء اللجنة الاستشارية للمجلة منذ على ١٤١٩هـ إلى آخر عددٍ منها حدود عام ١٤٤٠هـ ، وكنت وإياه ضمن مجلس إدارة (جائزة الجميح للتفوق العلمي). ثم لما أسست (دار تراث الوشم بشقراء) قبل ثمان سنوات.. كان هو وبرفقته رفيق دربه الدكتور المانع يتعاهدان الدار بالزيارة والتشجيع والتحفيز. وهي دار معنية بتاريخ المملكة وتراثها، وتاريخ إقليم الوشم بصفة خاصة. صدر عنها حتى الآن خمسة عشر إصداراً، وتضم مكتبة ومتحفاً ثقافياً مفتوحاً للزوار من داخل المملكة وخارجها. حقاً إنه رحيل مر لعالم كبير، وقدوة مثلى، ورمز علمي وطني خالد.. رحمك الله أبا خالد وبارك في ذريتك وعلمك إلى يوم الدين.

الأستاذ الدُّكتور محمَّد الهَدْلَق

❖أ. حسين بافقيه

كُنْتُ أُسَمِّي الدُّكتور محمَّد الهدلق "الكمبيوتر"، لِقُوَّةِ حافِظَتِهِ، وسُرْعَةِ استحضارِهِ للنُّصُوصِ، وكأنَّ ذاكرتَهُ لا تَخْرِمُ مِنَ الشَّواهِدِ والآثارِ حَرْفًا، وما انفكَّتْ صُورتُهُ عندي هي صُورةُ الأستاذِ الْجامِعِيِّ الَّذي اجتمعَ فيهِ أَزْكَى القِيَمِ وأعلاها، كانَ، يومَ اختلفْتُ إلى جامِعةِ المَلِكِ سُعُود لدراسةِ الماجستير عميدَ كُلِّيَّةِ الآداب، عَلَى أَنَّهُ أَحْرَصُ ما يكونُ الأستاذُ عَلَى دُرُوسِهِ وطُلَّابِهِ، لا أَذْكُرُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عنْ دَرْسِهِ إلَّا مَرَّةً واحِدَةً، أَعْلَمَنا قَبْلَها بتخلُّفِهِ عنِ الدَّرْسِ!

ولا أزالُ، عَلَى تَقادُمِ الأيَّامِ، أذكُرُ دُرُوسَهُ الْجامِعِيَّةَ في النَّقدِ الأدبيِّ القديمِ، يَعْرِفُ نُصُوصَهُ، بلْ إنَّهُ يستظهِرُها، ويُؤدِّيها إلينا، كما هي، حَرْفًا حَرْفًا، وكأنَّهُ يُطالِعُ كِتابًا، مع استيعابٍ عجيبٍ لِمَصادِرِ النَّقدِ، قديمِها وحديثِها، مخطوطةً ومطبوعةً = وإحاطةٍ بمظانِّها في المجلَّاتِ العِلْمِيَّةِ، يَقْصِدُهُ زُملاؤهُ في الجامِعةِ، وطُلَّابُهُ، فلا يَرُدُّ أحدًا إلَّا بِثَبَتٍ وافرٍ، يُمْليهِ مِنْ ذاكرتِهِ، فيهِ أسماءُ الكُتُبِ، ومَظَانُّ البُحُوثِ في هذهِ المَجَلَّةِ أوْ تلك.

وعَلَى أنَّ أُستاذَنا ذُو تكوينٍ عِلْمِيٍّ عَرَبِيٍّ؛ فإنَّهُ أَتَمَّ دُرُوسَهُ العالِيَةَ في بريطانيةَ، لكنَّكَ لا تكادُ تَجِدُ في حديثِهِ أَثَرًا لِّدراستِهِ في الغَرْبِ، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ النَّظريَّاتِ الجديدةَ لمْ تُغْرِهِ، مَهْما أَلْقَتْ عَلَى مُنْتَحِلِيها سِيماءَ الحداثةِ، فكانَ، بهذا المعنى، "مُحافِظًا"، مُتَبَتِّلًا في محرابِ النَّقدِ العربيِّ القديمِ، "حافظًا" لَهُ، إذا أردْتَ بالحِفْظِ: الاستظهارَ، أوْ حِفْظَهُ مِنْ عوادِي التَّغريبِ والتَّحديثِ، لَكِنَّهُ كانَ سَمْحًا، لا يَحْمِلُ طُلَّابَهُ عَلَى رأيٍ أَخَذَ بِهِ، فإذا سَمِعَ كلامًا أسانيدُهُ "حَدَاثِيَّةٌ"، مِنْ تلكَ الَّتي لا تُلائِمُ رُوحَهُ وذَوْقَهُ وعَقْلَهُ = قابَلَكَ بابتسامةٍ حانِيَةٍ حُلْوَةٍ تَطْوِي خَلْفَها نَفْسًا كأنَّما طَبَعَها اللهُ –جَلَّ جلالُه– عَلَى المحبَّةِ والسَّمَاحةِ.

وكانَ أستاذُنا، مَعَ إحاطَتِهِ بالنَّقدِ العَرَبِيِّ القديمِ، قليلَ التَّأليفِ، ولَوْلا إلْحاحُ بعضِ الصَّديقِ عَلَيْهِ بإخراجِ بُحُوثِهِ الَّتي نَشَرَها في مَجَلَّاتٍ عِلْمِيَّةٍ = في كِتابٍ، لَظَلَّ عُمْرَهُ كُلَّهُ سُقْرَاطِيَّ المنهجِ، واختيارُهُ، عَلَى غَرابتِهِ، لهُ وَجْهٌ؛ فما الجديدُ الَّذي ستَجْنِيهِ كُتُبُهُ، لَوْ أَنَّهُ انقطَعَ للبحثِ والتَّأليفِ؟ أوْ لَعَلَّ طُغْيَانَ المناهجِ النَّقديَّةِ الحداثيَّةِ الَّتي عَنَتْ لها الْجامِعاتُ أَسْكَتَ فيهِ رُوحَ البحثِ والتَّأليفِ، ما دامَتْ صُورَتُهُ عِنْدَ طائفةٍ مِنْ زُمَلائِهِ هي صورةَ الأستاذِ المُحافِظِ!

وأيًّا كانَ التَّعليلُ فإنَّ بُحُوثَهُ الَّتي أَخْرَجَها في كِتابَيْنِ أوْ ثلاثةٍ تُظْهِرُهُ أُستاذًا مِنْ طِرَازِ الأساتذةِ العُلماءِ، لا الأساتذةِ المُدَرِّسِينَ، وأَحْسَبُ أنَّ طُلَّابَهُ الَّذينَ اختلفُوا إلى دُرُوسِهِ يَعْرِفُونَ فيهِ الأستاذَ الْجليلَ، والعَلَّامةَ الكبيرَ، وما مِنْهُمْ إلَّا مَنْ قَبَسَ مِنْ عِلْمِهِ، وأفادَ مِنْ تنبيهاتِهِ ونصائحِهِ –وبخاصَّةٍ أولئكَ الَّذينَ أشرفَ عَلَى رسائلِهِمْ العاليةِ–.

رَحِمَ اللهُ أستاذي الدُّكتور محمَّد الهدلق، وجزاهُ عَنِ العِلْمِ وطُلَّابِهِ خَيْرَ الْجزاءِ.

جُدَّة في ٢٨ جُمادَى الآخِرة ١٤٤٥هـ

محمد الهدلق.. أستاذ أجيال

❖د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الحيدري

عرفتُ أستاذي الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق عن قرب، حين التحقت دارسًا لماجستير الآداب في جامعة الملك سعود عام ١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م)، وكنت أعرفه من قبلُ أستاذًا قديرًا في كلية اللغة العربية بالجامعة نفسها، قبل أن أتشرف بالتتلمذ على يديه.

ومما أذكره من سوانح تلك الذكريات، أن شقيقي الأكبر الدكتور عبدالله الحيدري حين علم بقبولي في مرحلة الماجستير بجامعة الملك سعود تهلل وجهه فرحًا، وراح يسألني عن أساتذة المقررات؛ لما وقر في نفسه من تقدير أساتذته ومحبتهم، فرحت أعدد له أسماء الأساتذة ومنهم: الدكتور محمد الهدلق، والدكتور عبدالعزيز المانع، والدكتور صالح معيض الغامدي وغيرهم من جلة الأساتذة، والعجيب في الأمر أو هو من حسن الحظ أن كلينا –أنا وأخي الدكتور عبدالله– قد تتلمذ على يدي الدكتور الهدلق مع غيره من الأساتذة، هو في المرحلة الجامعية، وأنا في الماجستير.

واللافت للنظر في هذا إخلاص الدكتور الهدلق –رحمه الله– للعلم على مر السنين دون تعب أو كلال، وكان من سماته دقته العجيبة في الالتزام بوقت الحضور للمحاضرة، فلا أذكر مرة أنه تأخر أو تغيّب عن المحاضرة، وقد شرفت بأن درسني في السنة الثانية من الماجستير مقرر «النقد الأدبي القديم»، فكان يعرض لنا من المسائل المهمة فيه بصورة مكثفة مستوعبة، ويبصّر لنا ما غمض أو صعُب من تلك المسائل.

ولعل من المواقف اللطيفة مع أستاذي الجليل أنني قابلته عام ١٤٣٤هـ (٢٠١٣م) تقريبًا في مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية وكان رئيس مجلس أمنائه آنذاك، وكنت إذ ذاك مدققًا لغويًا متعاونًا في المركز نفسه، وقد فرغت من دراسة الماجستير، وسنحت لي فرصة لقاء أستاذي فأحببت أن أفيد منه، فسألته عن رسالة التربيع والتدوير للجاحظ، وكنت أقرأ فيها تلك المدة، فقال لي إنني قرأتها منذ زمن بعيد في المرحلة الثانوية أو نحوها!، فاعجب لتلك الهمة، ووضوح الهدف مع صغر السن، وصعوبة الوصول إلى تلك المؤلفات في زمن ما قبل التقنيات الحديثة التي سهّلت كل عسير.

هذا ما تيسر به الحديث عن أستاذي الدكتور محمد الهدلق، وهو غيض من فيض، وجانب يسير من جوانبه المشرقة في نفس طلابه ومحبيه، رحم الله أستاذنا وأجزل مثوبته، وجزاه عن العلم وأهله خير الجزاء.

الشابّ السبعيني

❖د.خالد بن فهد العتيبي

غادر هذه الدُّنيا العالِمُ الجليلُ والإداريّ الفذّ أ.د. محمد بن عبدالرحمن الهدلق –رحمه الله رحمة واسعة– وانتقل إلى دارٍ هي خيرٌ من هذه الدَّار، نحسبه والله حسيبه من أهل الخير والصلاح، فقد عُرِف بأمانته ونزاهَتِهِ، فكان يحفظ اللَّوائح والأنظمة، ويتلوها على مسامع من حوله إن رأى مخالفةً لها ليُعلم أنّ اعتراضه أو تحفّظه على أمرٍ ما هو نتيجة لمخالفة النظام وليس اتّباعًا لهوى النفس، وقبل ذلك كان يطبّق هذه القوانين على نفسه بنفس الصرامة فليتزم بها ولا يُقدِم على أمر فيه مخالفة لها. لقد كان حرصُهُ على أداءِ الأمانةِ على أكملِ وجهٍ سمةً بارزةً في شخصيَّتِهِ، فكان يُتّهمُ أحياناً بالشِّدّةِ لِصرامتهِ في تطبيقِ القوانينِ، لكنّ الحقيقة التي نتجاهلها هي أنّ شيوع التهاون في أمرِ الأمانةِ جعلنا نَعْجَبُ من الحريص على أدائها!

عامُ ألفينِ وثمانية عشر كان شاهدًا على تتويجٍ لمسيرةٍ علميةٍ حافلةٍ بالإنجازِ، حين نال الدكتور الهدلق جائزة جامعة الملك سعود عن المسيرة العلمية المتميّزة؛ لم تكن هذه الجائزةُ نهايةً لمسيرتهِ، بل كانت علامةً فارقةً تُوِّجت بها جهودُهُ المُضنيةُ على مدارِ خمسةِ عقودٍ من العملِ الدؤوبِ في خدمةِ العلمِ والمعرفةِ، فبعد حصولهِ على الجائزةِ واصل الدكتورالهدلق عطاءَهُ بلا كللٍ ولا مللٍ، فظلّ يُحاضِرُ ويُؤلِّفُ ويُحكِّمُ الأبحاثَ العلميةَ إلى قُبَيل وفاتهِ –رحمهُ اللهُ– لقد كان مثالاً يُحتذى بهِ في الإنجاز، ونموذجًا رائعًا للعالِمِ المُخلِصِ للعِلْم.

عرفتُ الدكتور الهدلق وأنا طالب في مرحلة البكالوريوس بجامعة الملك سعود، عرفته بذكره ولم يحالفني الحظُّ بالدراسة على يديه، وقتها لم أكن

أخطّط للدراسة عند أستاذٍ بعينه، واختيارُ الشُّعَبِ بالنسبة لي منوطٌ بوقتها لأحصل على جدول مرتّب دون فجوات تطيل أمد بقائي في الجامعة بلا حاجة لذلك، وبعد تخرُّجي بعدّة أشهر عدتُ إلى الجامعة نفسها باحثًا علميًّا وأمينًا لكرسي المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، والكرسي وقتئذ قد أُنشئ حديثًا بمناسبة فوز أ.د.عبدالعزيز المانع بجائزة الملك فيصل العالمية، ويُشرِف عليه د.المانع نفسُهُ، وله هيئة علمية على رأسهم أ.د.محمدالهدلق، عضوًا ومستشارًا للكرسي، عندها قابلتُ لأوّل مرة هذا الأستاذ الذي كان يتحدَّث الطلبة عن حَزمِه وشدَّتِهِ، لكنني رأيته شخصًا آخر، كان بشوشًا لطيفًا متواضعًا منصتًا قريبًا منك كأنك تعرفه مِن قبلُ مع أنّه اللقاء الأول بينكما، وكان حاضر النكتة، محبًّا للمزاح وهذا مايزيل الحواجز بينه وبين من يلتقيه فتتلاشى الأجواء الرسمية شيئًا فشيئًا ليصبح لقاءً ودِّيًّا، سألني في أوّل معرفتي به –لّما علم أنّي من خريجي القسم–: هل درّستُك؟ قلت: لا. فقال مازحًا: "أجل أفلتَّ منّي!" يُشير بذلك إلى مايشاع عن شدّته! وبعد أن أنهيتُ دراسة السنة المنهجية في الدكتوراه وتجاوزت الاختبار الشامل أخبره الدكتور المانع بذلك فجاءني والسرور بادٍ على محيّاه فهنّأني وعاتبني لعدم إخباره بذلك، ومن يعرف الدكتور الهدلق أو يتابع حسابه على تويتر يعلم أنّه يهتمّ لأخبار من حوله فيُهنِّئ ويعزّي في الأفراح والأتراح، فكنتُ بعدها أرسل له مايستجد من أخباري ليكون من أوائل الذين يعرفون.

صَحِبتُ د.محمد الهدلق–رحمه الله– في الكرسي خمس عشرة سنة، وخمس سنوت في مجلة العرب، وكنتُ أعجب لهذا (الشاب) السبعيني الذي يقرأ ويكتب ويُحاضر ويشارك في المحافل ويتواصل مع طلبته الذين يزورونه في المكتب أو يهاتفونه ويجيب عليهم من ذاكرته، كان مثالًا حيًّا لمقولة: العمر مجرّد رقم! ولم أرَ مثله في هذا الجدّ والاجتهاد سوى صاحبه وصديق عمره أ.د.عبدالعزيز

المانع –أمتعه الله بالصحة والعافية– والحديث عن علاقته بالدكتور المانع يقودنا إلى مؤلَّفات د.الهدلق، فقد كان يكتفي بنشر أبحاثه في المجلات العلمية المحكّمة، والمجلات كما هو معروف لاتلقى رواج الكتب، والبحث يضيع داخلها ويكون عرضة لسرقته –وقد سُرِقت بعض أبحاث الهدلق وهذا حديث آخر! – فاقترح عليه د.المانع أن ينتخب من أبحاثه مايكثر الطلب عليه ويرى أنّه مستحق للنشر في كتاب مستقلّ فيعيد قراءته وتنقيحه ثم ينشره، وبعد إلحاحٍ اتَّخذ قراره، فعكف عليها مدّة، ثم أخرج مجموعته الأولى وهي ثلاث رسائل تراثية محقَّقة؛ جمعها في كتاب سمّاه (رسائل تراثية في النقد والبلاغة) فكان باكورة منشوراته تحقيقًا ليتّسق ذلك مع التوجه العام للكرسي؛ وهو الاهتمام بالمخطوطات وعلوم العربية التراثية، تلاها المجموعة الثانية التي حوت أبحاثًا بلاغيّة فسمّى الكتاب (قراءات في البيان العربي) ثم المجموعة الثّالثة في النقد وجعل الكتاب بعنوان: (في الثقافة النقدية) ثم المجموعة الرابعة بعنوان: (سجالات حول المعنى) وآخر كتاب له هو (في النقد الأدبي)، وحَظِي كرسي المانع بشرف نشر هذه الكتب الخمسة جميعها ولَقِيت طلبًا ورواجًا بين أصحاب التخصُّص من الباحثين والأساتذة، وهنا موقف آخر يستحقُّ الذِّكر يتعلّق بشخصيته، فقد حصل على ثلاثين نسخة من كلِّ كتابٍ ألَّفه وهي نُسَخُ المؤلِّف ثم عاد واشترى مجموعة كبيرة منها ليهدي من يسأله عن كتبه من الأصدقاء والباحثين لأنه يستحي أن يُحيلهم إلى المكتبات التي تبيعهم إيّاها، وهذا من مظاهر كرمه وبذله للعلم رحمه الله.

بعد وفاته بأسبوعين سارع مركز الشيخ حمد الجاسر–رحمه الله– الثقافي إلى إقامة ندوة تأبين ووفاءٍ للفقيد أدارها د.عبدالعزيز الخراشي فافتتحها بذكر طرفٍ من سيرته، ثم أُتيح المجال للمشاركين من أصدقائه وبعض أقاربه ومحبِّيه فأوردوا مواقف شهدوها أو عاصروهاللفقيد الدكتور محمد الهدلق–رحمه الله–

والمركز يُشكر على هذا الوفاء غير المستغرب منه، فقد احتفى به في حياته من قبل عندما خصَّص له عددًا من صحيفة جسور عام ١٤٣٨هـ، والآن يصدر هذا الكتاب تكريمًا له، فشكر الله لهم هذا الصنيع وجعله في موازين حسناتهم، ورحم عبده محمد الهدلق رحمة واسعة وجمعنا به في عالي جنانه مع الأنبياء والصِّدِّقين والصالحين من عباده.

أفنى عمره في البحث والتأليف والتدريس وتخريج الأجيال:
محمد الهدلق.. فقيد اللغة والأدب.

❖أ. سامي التتر

فقدت الأوساط الأدبية والأكاديمية في المملكة العربية السعودية، الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق الذي انتقل إلى رحمة الله يوم الأحد ٢٥ جمادى الآخرة الماضي عن عمر يناهز ٨٢ عامًا.

الراحل كان علَمًا في اللغة والأدب وقضى جل حياته لصيقًا بالكتب والبحث والتأليف والتدريس، حيث حقق عددًا من كتب التراث العربي، وله مؤلفات عدة في النقد الأدبي والدراسات الأدبية.

ولد محمد الهدلق في محافظة شقراء عام ١٣٦٣هـ، وبعد إتمام دراسته الأولية فيها سافر إلى الرياض ليكمل دراسته، فحصل على بكالوريوس في اللغة العربية من كلية اللغة العربية بالرياض عام ١٣٨٦هـ، وماجستير في الأدب والنقد من جامعة الأزهر بمصر عام ١٩٦٩م، وماجستير في اللغة العربية من جامعة إدنبرة ببريطانيا عام ١٣٩٥هـ الموافق ١٩٧٥/٧/١١م، ثم نال دكتوراه في اللغة العربية من جامعة إدنبرة ببريطانيا عام ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).

مسيرة عملية حافلة

بدأ د. الهدلق مسيرته العملية الأكاديمية فور تخرجه حيث عين مدرسًا بقسم اللغة العربية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة (جامعة الملك عبد العزيز، فرع مكة المكرمة) من ٢٣ شعبان هـ١٣٩٨ إلى ٧ جمادى الأولى ١٣٩٩هـ، ثم أستاذًا مساعدًا بها أيضًا من عام ١٣٩٩هـ إلى ١٤٠٠هـ، قبل أن يعمل أستاذًا مساعدًا بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بجامعة الملك سعود من ٦ شوال ١٤٠٠هـ إلى ٢٣ جمادى الأولى ١٤٠٤هـ، ثم أستاذًا مشاركًا

من ١٤٠٤هـ إلى ١٤١٥ه، ثم أستاذًا بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب من ١٤١٥هـ إلى ١٤٢٢هـ، وأخيرًا عمل أستاذًا غير متفرغ بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بجامعة الملك سعود من ١٤٢٢هـ حتى وفاته رحمه الله. وخلال مسيرته العملية الحافلة تبوأ العديد من المناصب الإدارية أيضًا حيث عين نائبًا لمدير مركز اللغة العربية لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بجامعة الملك عبد العزيز، فرع مكة المكرمة) لمدة عامين (١٣٩٨- ١٤٠٠هـ)، ثم رئيسًا لقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك سعود من ١٤٠٣هـ إلى ١٤٠٥هـ، فوكيلًا لكلية الدراسات العليا بجامعة الملك سعود من ١٤١٥هـ إلى ١٤١٧هـ، ثم شغل منصب عميد الدراسات العليا بجامعة الملك سعود من ١٤١٧/٥/١٦ إلى ١٤١٨/١٠/٢١هـ، وعميد كلية الآداب بجامعة الملك سعود من ١٤١٨هـ إلى ١٤٢٢هـ، ورئيس مجلس أمناء مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية بدءًا من ٨ محرم ١٤٣٢هـ.

كان الهدلق رحمه الله شعلة من النشاط العلمي والأكاديمي، حيث شارك في العديد من الأنشطة داخل الجامعة وخارجها، ومن أبرز مشاركاته داخل الجامعة، الإشراف على الدورة الصيفية التي أقامتها جامعة الملك عبد العزيز – فرع مكة المكرمة، في مدينة لندن لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بالتعاون مع دار الرعاية الإسلامية وذلك في صيف عام ١٣٩٩هـ، وكان عضو اللجنة المشكلة من قبل مجلس كلية الآداب عام ١٤٠١هـ لاستقصاء الحقائق عن أقسام الوثائق والمكتبات في جامعة الملك عبد العزيز، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ومعهد الإدارة، وعمل مشرفًا على الإرشاد الأكاديمي في قسم اللغة العربية وآدابها لمدة عامين (١٤٠١- ١٤٠٣هـ)، وعضو اللجنة التي شكلها مجلس قسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود عام ١٤٠٣هـ لتتولى الترشيح لجائزة

الملك فيصل العالمية للأدب العربي المقرر منحها في شهر ربيع الأول من عام ١٤٠٤هـ، كما عين رئيسًا للجنة الدراسات العليا بقسم اللغة العربية بكلية الآداب للعام الجامعي ١٤١٥، وعضو لجنة التطوير الأكاديمي بجامعة الملك سعود بدءًا من عام ١٤١٦هـ، وعضو لجنة الابتعاث والتدريب بجامعة الملك سعود من عام ١٤١٧ إلى ١٤٢٢هـ.

مثل الهدلق جامعة الملك سعود في العديد من المناسبات ومنها ممثل الجامعة في اللجنة التي شكلها اتحاد الجامعات العربية في عام ١٤٠٢هـ من أجل وضع ورقة عمل لندوة اللغة العربية في الجامعات العربية، ممثل وزارة التعليم العالي في اللجان المشتركة التالية لعدة دورات: اللجنة السعودية الأسترالية، واللجنة السعودية الايرلندية، واللجنة السعودية البلجيكية اللوكسمبورغية، وممثل الجامعات السعودية في اجتماع الفريق المختص بتنسيق متطلبات التخرج في أقسام اللغة العربية بجامعات دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية الذي عقد في عام ١٤٠٨هـ، وممثل جامعة الملك سعود في مجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز لمدة ثلاث سنوات بدءًا من عام ١٤١١هـ، وممثل جامعة الملك سعود في اللجنة المكلفة بدراسة ظاهرة الضعف العام في استعمال اللغة العربية، المنبثقة عن توصيات اللجنة العليا لسياسة التعليم، التي وافق على إنشائها صاحب السمو الملكي النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء عام ١٤١٤هـ وغيرها.

وكان له أيضًا العديد من العضويات ومنها عضو فريق العمل المكلف بإعداد الخطة الخمسية الرابعة لوزارة التعليم العالي في عام ١٤٠٣/١٤٠٤هـ، وعضو اللجنة العلمية بمعهد الدراسات الدبلوماسية التابع لوزارة الخارجية للعام ١٤٠٥هـ، وعضو لجان تقويم خطط الدراسة بكليات البنات التابعة للرئاسة العامة لتعليم البنات في عام ١٤٠٩، وعضو هيئة موسوعة تاريخ التعليم في

المملكة العربية السعودية التي أعدتها اللجنة العليا لسياسة التعليم في العامين ١٤١٨/١٤١٩ بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة، وعضو فريق التقويم الشامل للتعليم في المملكة بدءًا من ١٧ /٩ / ١٤١٨، وعضو الهيئة الاستشارية لمجلة الدرعية، وعضو هيئة تحرير مجلة الدارة من ١٤٢٥ إلى ١٤٣٣، وعضو هيئة تحرير مجلة "حقول" التي تصدر عن النادي الأدبي بالرياض بدءًا من عام ١٤٢٦ ولمدة عامين، وعضو مجلس إدارة النادي الأدبي بالرياض بدءًا من ٢/٥ /١٤٢٧ إلى ١٤٣٢/١٢/١٦، وعضو اللجنة الاستشارية لمجلة اتحاد الجامعات العربية التي تصدر في جامعة اليرموك –إربد– الأردن، عن الجمعية العلمية لكليات الآداب في اتحاد الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية بدءًا من ١٤٣١/٥/٢٥، وعضو مجلس أمناء مؤسسة حمد الجاسر الخيرية بدءًا من ١٤٣١، ورئيس مجلس أمناء مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية بدءًا من ١٤٣٢/١/٨هـ.

نتاجه العلمي أثرى المكتبة العربية

نشرت له العديد من البحوث العلمية ومنها:

١) النقد الأدبي في مقامات الحريري.

٢) مخطوط الروض الزاهر في محاسن المثل السائر للسميساطي (قراءة تقويمية).

٣) الإغريض في الحقيقة والمجاز والكناية والتعريض، لتقي الدين السبكي (تحقيق).

٤) موقف ابن المعتز من شعر أبي تمام.

٥)رسالة أبي الحسن بن طباطبا العلوي في استخراج المعمى (تحقيق).

٦) ابن قتيبة وآراؤه التربوية.

٧) زين الدين الرازي وأعماله البلاغية والنقدية.

٨) رسالة في الفرق بين المترسل والشاعر لأبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ (تحقيق).

٩) أبو الحسن المرغيناني وكتابه المحاسن في النظم والنثر.

١٠) نقد أم جندب لامرئ القيس وعلقمة الفحل.

١١) موقف حازم القرطاجني من قضية الغموض في الشعر مقارنًا بمواقف النقاد السابقين.

١٢) الثقافة النقدية لأبي الطيب المتنبي.

١٣) رأي حازم القرطاجني في قضية الصدق والكذب في الشعر.

١٤) ظلامة أبي تمام للخالدي: الرؤيا والواقع.

١٥) خلاف بين أديبين أندلسيين في المفاضلة بين أبي إسحاق الصابئ وبديع الزمان الهمذاني.

١٦) قصيدة أبي إسحاق الإلبيري إلى باديس بن حبوس الصنهاجي: دوافعها وتأثيرها على أهل غرناطة.

١٧) تأويل الشريف المرتضى للنص الشعري.

١٨) أسطورة يونانية في مقامة لبديع الزمان الهمذاني.

١٩) دعوى سرقة الشعر بين السري الرفاء والخالديين.

٢٠) الشيخ حمد الجاسر العلامة الفذ.

٢١) مآخذ ابن معقل الأزدي على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي.

٢٢) اهتمام الشيخ حمد الجاسر بالشعر والشعراء كما يبدو من كتابه (مع الشعراء).

٢٣) أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري أديبًا.

٢٤) موقف موسى بن عزرا من البيان العربي.

وكتَبَ د. الهدلق الموضوعات الآتية للموسوعة العربية العالمية:

١) حازم القرطاجني.

٢) عمود الشعر.
٣) رواية الشعر ورواته.
٤) الحوليات.
٥) الرسائل.
٦) علم البيان.
٧) علم المعاني.
٨) علم البديع.
٩) المجاز.
١٠) ابن رشيق القيرواني.
١١) أبناء الأثير.

كُرّم الراحل في نادي الرياض الأدبي تزامنًا مع مناسبة الاحتفاء باليوم العالمي للغة العربية عام ٢٠١٤، كما كُرم في ثلوثية الدكتور محمد المشوح يوم الثلاثاء ٢٠ فبراير ٢٠١٨م، بحضور نخبة من المتخصصين والمثقفين والإعلاميين، كما نظمت "دارة العرب" بمركز حمد الجاسر الثقافي ندوة وفاء بعنوان: "الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق.. سيرة ومواقف وشهادات"، أدارها د. عبدالعزيز الخراشي يوم ٨ رجب ١٤٤٥هـ، وكان المركز أيضًا قد أصدر عددًا خاصًا عن الفقيد رحمه الله من خلال نشرة "جسور" التي ينشرها ضمن جهوده الثقافية، وضم العدد شهادات كثيرة عن مسيرة الهدلق، شارك فيها عدد من كبار الأساتذة والنقاد، الذين تناولوا ما امتاز به من صفات أخلاقية وأكاديمية، فضلًا عن مواقفه الإنسانية مع الجميع.

الفصل الثالث: ندوات وتأبين

الندوة الأولى:

الأستاذ الدكتور محمد الهدلق .. سيرة ومواقف وشهادات

دارة العرب

بمشاركة نخبة من الرواد والمثقفين والأكاديمين افتتح الدكتور عبدالعزيز الخراشيّ ندوة الوفاء المفتوحة عن فقيد العلم والأدب الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق بالحديث عن بداياته في شقراء فالسر بمدرسة (حزميّة) التي سمع فيها ولأول مرة عن شيخنا العلامة حمد جاسر الذي درس فيها، ثم تحدث عن عودة الفقيد إلى شقراء وبداياته مع صنوه الدكتور عبدالعزيز المانع الذي رافقه سبعين عامًا ابتداءً من دراستهما معًا في المرحلة الابتدائية ثم التحاقهما بالمعهد العلميّ وتعاقبهما في كلية اللغة العربية حتى تخرج الفقيد عام ١٣٨٦هـ والتحاقهما معًا في العمل بالمحكمة المستعجلة، ثم انتقال الفقيد إلى رئاسة القضاء وعمله بقسم المحاسبة بضعة أشهر، وتحدث عن كيف تأثر فقيدنا بعمله في المحاسبة واتسامه بالدقة في عمله العلمي والإداري وعملهما معيدين في قسم اللغة العربية بمكة المكرمة قبل أن تستقل جامعة باسم جامعة أم القرى ثم واصل هو وصنوه الابتعاث لبريطانيا حتى نالا شهادة الدكتوراه وفي طريقه لبريطانيا كان اللقاء الثاني بالشيخ حمد الجاسر.

جاء ذلك في ندوة وفاء نظمها مركز حمد الجاسر الثقافي وأدارها د.عبدالعزيز الخراشيّ ضحى السبت ٨ رجب ١٤٤٥هـ الواقع في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ٢٠٢٤م .

وتحدث الدكتور الخراشي عن عودة الفقيد إلى الرياض وتسنّمه مناصب عدة في جامعة الملك سعود وخارج الجامعة وكان أن تولى رئاسة قسم اللغة العربية لمدة عامين عقب الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المانع منذ عام ١٤٠٣هـ حتى

١٤٠٥هـ وترقى إلى أستاذ مشارك ثم نال الأستاذية عام ١٤١٥هـ ثم ولي وكالة الكلية للدراسات العليا ثم عمادة كلية الآداب فعمادة الدراسات العليا وغيرها من الأعمال التي تولاها في حياته .

ثم تحدث عن أبحاثه وكتبه التي صدرت عن كرسي الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية والأدب .

تلا ذلك قراءة مشاركة معالي الأستاذ الدكتور أحمد الضبيب، ثم فتح المجال للمشاركات التي افتتحها بمشاركة الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الهلابي الذي استفتح بالترحم على صاحب الدارة وعلى الفقيد الدكتور محمد الهدلق الذي كان يلتقي به بشكل أسبوعي وتحدث عن علاقته بالفقيد منذ بداية معرفته عام ١٩٧٠م في أدمبرا ثم زمالتهما في التدريس بجامعة الملك سعود ومشاركاتهما ولقاءاتهما في فعاليات مجلس حمد الجاسر والتي امتدت إلى أيامه الأخيرة ثم ذكر مناقبه من خلال معرفته في اللجان والسفر والرحلات التي نظمها مركز حمد الجاسر الثقافي للرواد.

كما تحدث الأستاذ الدكتور عبدالله الجربوع الذي أشار إلى أن من حسن توفيق الله كانت علاقته بأبي خالد منذ السبعينات الميلادية أثناء الدراسات العليا بجامعة أدمبرا وتحدث عن مواقف الفقيد الإنسانية وأول زيارة للفقيد له في المستشفى وكيف توطدت العلاقة فيما بعد وازدادات رسوخًا ومحبة جعلته يتعرف على كثير من شخصيته وإنسانيته مشيدًا بوفائه ودقته وإتقانه للعمل في كل ما يوكل إليه مما انعكس على أدائه العلمي واحترامه لعنصر الوقت ومثابرته، ثم تحدث عن بعض المواقف الظريفة التي تعرضا لها في أسفارهما وحبه الكبير لزيارة المكتبات.

كما أشار الأستاذ الدكتور إبراهيم الشمسان أنه تعلم من الفقيد الكثير في عمله باللجان والجامعة واكتفى بموقف واحد في القاهرة وهو يحضّر الدكتوراه وموقف الفقيد القوي معه باتخاذ قرار حاسم لاستكمال دراسته العليا .

كما تحدث الأديب الأستاذ حمد القاضي عن الفقيد ومواقفه الاجتماعية وتواضعه وكتاباته للمقالات التي كان لها الأثر الكبير في عدد من القضايا التي أثارت جدلاً مثل "الحداثة في الشعر"، ثم تحدث عن بعض مواقفه الإنسانية وعلاقاته الاجتماعية ووفائه لأصدقائه ومعارفه ثم ختم مشاركته بموقف طريف أثناء مشاركتهما في ملتقى النص بمدينة جدّه .

ثم ثمّن الدكتور عبدالعزيز بن سلمه جهود مركز حمد الجاسر الثقافي واحتفاءه بالفقيد في دورية جسور التي صدرت في محرم ١٤٣٨هـ أثناء حياة الفقيد وتحدث عن المواقف النبيلة لأبي خالد وتعامله معه في الجامعة مشيدًا بجهوده العلمية والعملية ومثمنًا ما ذكره المشاركون قبله عن الفقيد .

كما أشار الدكتور عبداللطيف الحميد إلى تميز الفقيد بالثنائية كثنائية العلاقة مع الدكتور عبدالعزيز بن ناصر المانع والتوأمة بينهما وقل أن تحصل وتستمر لسبعة عقود حيث وُلدا في شقراء أواخر الحرب العالمية الثانية وكانا بشارة سِلْم لكوكبنا ثم درسا معًا في المرحلة الابتدائية والمعهد والجامعة والابتعاث واستقرارهما في جامعة الملك سعود مستشهدًا بما ذكره د. عبدالله الغذامي في مقالته "شيمته الكتب"، ثم تحدث عن ثنائية الجمع بين الجانب العلمي والعملي في الجامعة، وثنائية الجد والمرح ثم ختم بموقف طريف حدث له قبل أربع سنوات .

ثم تحدث الدكتور صالح بن معيض الغامدي وزمالته له واشتراكهما في عدد من اللجان والأعمال وقسم اللغة العربية عندما كان الدكتور صالح رئيسًا للقسم والفقيد عميدًا لكلية الآداب وقال إن الفقيد معروف عنه الدقة وغير مجامل

في الجوانب العملية فهو رجل نظامي، ثم تحدث عن بعض المواقف التي لمحها معه في السفر .

كما استشهد الأديب الدكتور عدي الحربش بما أشار له الفقيد على قصصه ومعرفته به قبل ١٤ عامًا وكيف كان لثناء الفقيد عليه بعد قراءة قصصه والإشادة به دور هام في مسيرته الأدبية .

وثمن الدكتور محمد منور ما قدمه المشاركون عن الفقيد وذكر ملمحًا دقيقًا من ملامح الأستاذ الدكتور محمد الهدلق وهو شدة التزامه بالنظام واللوائح ورؤيته لنجاح العمل المرتكز على الالتزام باللوائح.

ثم تحدث نجل الفقيد الأستاذ خالد الهدلق الذي ثمّن القائمين على مركز حمد الجاسر الثقافي لتنظيم هذه الندوة ثم تحدث عن بعض المواقف لهم مع والدهم رحمه الله وكيف كان يتعامل معهم بحرص ويشجعهم ويحفزهم على قراءة الكتب وحب التعلّم والعمل .

وأشاد الأستاذ معن الجاسر بجهود الأستاذ الدكتور محمد الهدلق ودوره الكبير في مجلس الأمناء وعضوية اللجنة العلمية وهيئة تحرير مجلة العرب هو وكل الأوفياء الذين بذلوا جهودًا طيبة لاستمرار نشاطات المؤسسة الثقافية المتنوعة ومجلة العرب سائلاً المولى عز وجل أن يتغمد الفقيد بواسع رحمته ومغفرته .

كما ذكر الأستاذ الدكتور أسعد عبده مناقب الفقيد النبيلة سائلاً المولى عز وجل أن يلهم أهله الصبر والسلوان .

ثم تحدث بقية المداخلين عن سيرة الفقيد وقدموا شهادات عنه في مشاركاتهم.

كما أعلن مدير الندوة في الختام عن إصدار مركز حمد الجاسر الثقافي كتاب تأبين ووفاء يضم أبحاثًا ومقالات مهداة إلى روح الفقيد أ.د.محمد الهدلق رحمه الله.

الندوة الثانية:

جهود أ.د.محمد الهدلق العلميّة والتعليميّة

أقام قسم اللغة العربية وآدابها بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية في جامعة الملك سعود هذه الندوة في يوم الاثنين ١٤٤٥/٨/٢٣هـ الموافق ٢٠٢٤/٣/٤م بقاعة مجلس القسم، شارك فيها كلٌ من:

- أ. د. صالح بن معيض الغامدي
- أ. د. محمد بن عبدالله منور
- أ. د. أمل بنت محمد التميمي
- د. عبدالله بن محمد الرميحي
- د. منال بنت أحمد العمري

وأدارها د. عبدالعزيز بن عبدالله الخراشيّ مستفتحًا هذه الندوة بعرض سيريّ لحياة الفقيد وسيرته العملية والعلمية، وفيما يلي عرضٌ لما وصل من الأوراق المقدمة في هذه الندوة.

لمحات عن جهود الدكتور محمد الهدلق وريادته النقدية

❖أ. د. صالح معيض الغامدي

كانت معرفتي بجهود الأستاذ الدكتور محمد الهدلق البحثية والعلمية أول مرة عن طريق اطلاعي بعد أن عدت من البعثة على أعمال الندوة المهمة التي أقامها النادي الأدبي والثقافي بجدة بعنوان " قراءة جديدة لتراثنا النقدي" في ٩–١٥ /١٤٠٩/٤ ، ١٩–١٩٨٨/١١/٢٤م، التي طبعت عام١٩٩٠م. وكان اطلاعي هذا يتمحور حول البحث المهم الذي قدمه الدكتور الهدلق في هذه الندوة بعنوان "رسالة في الفرق بين المترسل والشاعر لأبي اسحق إبراهيم بن هلال الصابىء: تقديم وتحقيق" وحول المداخلات والتعقيبات الثاقبة التي شارك بها الهدلق خلال جلسات المؤتمر وأوراقه البحثية المختلفة.

ثم ترسخت علاقتي بالدكتور الهدلق بوصفه زميلا في القسم فيما يتعلق بالأبعاد العملية البحثية العلمية والإدارية .

ومن خلال اطلاعي على أعمال الدكتور الهدلق العلمية، يمكنني تقديم عدة ملحوظات سأقوم بسردها تباعا بعد قليل، ثم أنهي مداخلتي هذه بالإشارة إلى أبرز الأطروحات والأفكار النقدية التي انفرد بها الهدلق وتعد من الإضافات المميزة في الجهود النقدية العربية. والدكتور الهدلق حقيقة يذكرنا في رصانته وجديته العلمية بكبار الباحثين في الدراسات الأدبية والنقدية العربية القديمة من أمثال: إحسان عباس، وحسين الواد، و س. أ.بونيباكر والسير هاملتن جب وغيرهم .

الملحوظات العامة :

١- ثمة ملحوظة مهمة تتصل بكتابات الهدلق النقدية وهي أنها تتمحور حول النقد العربي القديم في معظمها، ومع ذلك نجده يبدي إلماما واضحا بكثير من قضايا النقد الأدبي الحديث دون إدعاء، فهو لا يفرط في استعمال المصطلحات النقدية الحديثة كما يفعل كثير من النقاد، بل يحاول تعريب كثير من هذه المصطلحات والمفاهيم النقدية ويستثمرها في نقده.

٢- اهتم الدكتور الهدلق في دراساته النقدية بقضية العلاقة بين الشعر والنثر في كتب التراث النقدي والإبداعي، وشغلت هذه القضية الأجناسية الأدبية جزءا كبيرا من جهوده البحثية.

٣- اهتم الهدلق بتحقيق بعض الرسائل النقدية ذات الأهمية التي لم تكن معروفة أو كانت معروفة على نطاق ضيق جدا، مثل " رسالة في الفرق بين المترسل والشاعر" للصابىء، ورسالة " المحاسن في النظم والنثر" للمرغيناني، .... وغيرهما

٤- أولى قضية المفاضلات النقدية سواء بين الأجناس الأدبية أو الكتاب المبدعين أنفسهم، اهتماما بالغا، كما نجد في بحوثه التالية: " خطاب المفاضلة بين الشعر والنثر في النقد العربي القديم" و" نقد أم جندب لشعر امرىء القيس وعلقمة الفحل" و" خلاف بين أديبين أندلسيين في المفاضلة بين الصابىء وبديع الزمان" و" شعر امرىء القيس في نظر ناقدين من القيروان " ... وغيرها.

٥- عرّفتني بحوثه ببعض النقاد المغمورين وكذلك الرسائل النقدية المغمورة، مثل " زين الدين الرازي وأعماله البلاغية والنقدية" و"الروض الزاهر في محاسن المثل السائر للسميساطي" وغيرهما.

٦- اعتمد النقد المقارني منهجا لدراسة بعض القضايا في أبحاثة النقدية كما نرى في بحثية التاليين: " موقف موسى بن عزرا من البيان العربي" في كتابه (المحاضرة والمناظرة) االذي له علاقة كبيرة بالأدبين العربي والعبري، فقد كان موسى يجيد اللغتين العربية والعبرية، وألف كتابه هذا بالعربية ولكنه مكتوب بحروف عبرية ؛ و" أسطورة يونانية في مقامة لبديع الزمان الهمذاني"، وهو يقصد المقامة البشرية التي قارنها بأسطورة هرقل في التراث اليوناني.

أبرز رياداته النقدية :

١- اكتشاف سطو المرزوقي في مقدمته المشهورة لشرح ديوان الحماسة على وسالة الصابىء " رسالة في الفرق بين المترسل والشاعر" دون الإشارة إلى صاحبها الصابىء. مما حعل ناقدا مثل عبدالملك مرتاض يقول عن هذا الاكتشاف " بحث الدكتور الهدلق ذو أهمية كبيرة في رأيي وأنا شخصيا أفدت منه شيئا واحدا على الأقل وهو أنني صححت المعلومات التي كنت أتلقاها من المرزوقي وكنت شديد الإعجاب بالمقدمة".

٢- طرح فكرة أن ابن الأثير كان يعاني من قلق الإبداع الأدبي فقد كان شاعرا وناقدا، وعلى الرغم من أنه لم يستعمل أو يشر إلى مصطلح

"قلق التأثير" لبلوم، فإنيلست متأكدا من اطلاعه على نظرية بلوم من عدمه.

٣- حاول ربط بعض المصطلحات الشعرية القديمة ببعض المصطلحات النقدية الحديثة، مثل مصطلح "الهزروف" الذي ذكره صاحب كتاب الموشح، وهو نوع كتابي يقع بين الشعو والنثر، واقترح الهدلق أن يكون هذا المصطلح هو المطابق لمصطلح "القول الشعري" الذي ذكره الفارابي، أو مصطلح "الشعرية" في النقد الحديث.

٤- كشف الأبعاد الأسطورية في المقامة البشرية لبديع الزمان الهمذاني واقترح بأن شخصية بشر بن عوانة في هذه المقامة ليست شخصية تاريخية عربية معروفة كما ذكر بعض النقاد وشراح المقامة بل كانت شخصية أسطورية من اختلاق بديع الزمان الهمذاني، وسعى إلى إيجاد العلاقة أو الصلة بين هذه المقامة وأسطورة هرقل في التراث اليوناني .

خطاب الهدلق النقدي .. وجدل المحافظة والتجديد

❖أ. د. محمد بن عبدالله منور

الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق هو واحد من الأساتذة الأكاديميين الذين يمثلون المرجعية الأصيلة في الدرس النقدي العربي القديم على مستوى العالم العربي فهو شيخ النقد العربي القديم وعراب الدرس النقدي الأكاديمي كتب عبر مسيرته العلمية عددًا من البحوث النقدية الأكاديمية الأصيلة، منشغلاً بالبحث والتنقيب في قضايا النقد الأدبي العربي القديم عن التأليف وإخراج الكتب، وقد وفقه الله في أواخر حياته بأن جمع أبحاثه وأخرجها في عدد من الكتب والمؤلفات النقدية العلمية الرصينة، ومنها كتابه "في النقد الأدبي" الذي سوف أتناول فيه بعض ما جاء فيه من موضوعات تتعلق بالنقد الأدبي العربي القديم، وكان رحمه الله قد أصدره عن كرسي صديق عمره ورفيق دربه الدكتور عبدالعزيز المانع في طبعته الأولى عام ١٤٤١هـ / ٢٠١٩م، وعالج فيه عددًا من قضايا النقد العربي القديم منها: النقد الأدبي في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، والنقد في مقامات الحريري، وأسطورة يونانية في مقامة لبديع الزمان الهمداني، وقصيدة أبي إسحاق الإلبيري إلى باديس بن حبوس الصنهاجي، دوافعها وتأثيرها في أهل غرناطة، ودعوى سرقة الشعر بين السّري الرَّفاء والخالديين، ومآخذ ابن مَعْقِل الأزدي المهلبي على شرح ديوان أبي الطيب المتنبي وتأويله لبعض الأبيات في ضوء مراد الشاعر واحتمالات لنص.

وسوف أحاول في هذا المقال تناول بعض مقولات الدكتور الهدلق النقدية في هذا الكتاب التي تنم عن خطاب نقدي رصين وغني تميز به أستاذنا رحمه الله، فلقد حاول أن يوضح تطور الشعر الجاهلي وتخلف النثر في ذلك

العصر من عمر الأدب العربي حين أعاد الأمر إلى الموهبة في ذلك التمايز فيما يخص الشعر، وإلى اكتساب المعرفة النقدية القائمة على إنعام النظر والتأويل والتدبر والتدرج المعرفي فيما يخص النثر، مما جعل النقد بسيطًا ساذجًا انطباعيًا في الوقت الذي كان الشعر الجاهلي يتألق نضجًا وجمالاً وروعة، وهذا توجيه طريف ودقيق وناجع.

وكان رحمه الله شديد الحرص على توثيق المقولات النقدية التي يتناولها ولا يتساهل في توثيقها في مرجعياتها النقدية التي تمثل أصولاً في خطابنا النقدي العربي، كما عمله في تأصيله رحمه الله لما روي من نقد لشاعرية امرئ القيس المروي عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، حيث نجد الهدلق يستقصي الروايات التي روت مقولته صلى الله عليه وسلم النقدية: "بأن امرأ القيس مذكور في الدنيا منسي في الآخرة، بيده لواء الشعر إلى النار" كما هو في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، فيذكر الهدلق أن الإمام أحمد بن حنبل قد رواها في مسنده وكذلك رواها ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء، كما كان رحمه الله يدعم تحليلاته وآراءه النقدية بالأدلة النقلية والعقلية، فقد استخرج من منطوق حديث أبي هريرة هذا عن امرئ القيس وشاعريته حكمه رحمه الله النقدي لامرئ القيس بالتقدّم في الشعر في الدنيا وحمله لواء الشعر في الآخرة بقوله: وإذا افترضنا صحة هذا الحديث فإنه – وعلى الرغم من تحقيره لامرئ القيس في الآخرة – يدل على تقدم امرئ القيس في ميدان الشعر؛ لأنه هو الذي يحمل الشعراء إلى النار واللواء في الغالب لا يحمله إلا شخص متميز.

وكان –رحمه الله – بصيرًا بالمقولات النقدية التي يتصدى لها فلا يعيد أو يكرر المشهور المعروف المبتذل منها، بل كان يغوص في كتب التراث باحثًا عن المقولات اللطيفة والطريفة، التي لم يطرقها الدارسون قبله، أو لم تصل إليها

أيدي الباحثين لبعدها ونأيها في مظانها من مصادر التراث كتلك الرواية التي تذكر سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم لابن رواحة شاعر المدينة عن قوله الشعر وحثه على هجاء المشركين ثم انقباضه صلى الله عليه وسلم حين سمع هجاء ابن رواحة لقريش لأنه صلى الله عليه وسلم منهم وهم قومه وعشيرته، ثم ما لبث أن انبسط وتهللت أسارير وجهه –صلى الله على وسلم– حين خصه ابن رواحة في القصيدة نفسها بالمدح والذكر الحسن ووصفه بالنبوة فانبسط باعتباره من قريش والنبوة مفخرة لقريش فأصلح ابن رواحة تلك بهذه.

كذلك نجد الهدلق –رحمه الله– أبرز لنا نقادًا ما كانوا يعرفون بالنقد بل هم من مصاف الأدباء والكتاب ليس غير؛ فأظهر ما كانوا يتمتعون به من ملكات نقدية تزاحم من عرفوا بالنقد في تراثنا العربي، من أولئك الحريري صاحب المقامات حيث كتب عن النقد الأدبي في مقامات الحريري واستخرج من مقاماته كثيرًا من المقولات النقدية اللطيفة والطريفة التي تجعله في مصاف النقاد بعد أن كانت معرفته قاصرة على الحكي والقص وفن الكدية فقد أبرز أن الحريري وإن كان يقدم بديع الزمان في مقاماته على نفسه في مقاماته هو فمن باب التواضع مع أستاذه، لكنه ما لبث أن حكَّم الجودة على العصر فوصف مقاماته البديع بالطل "وهو أضعف المطر" ومقاماته بالوابل "وهو المطر الجود"، وقد كان الهدلق نفسه يؤمن بالجودة ولا يفرّق بين قديم وحديث إلا بالجودة فحيثما تكون الجودة يكون الحكم بالتقدم، بل إنه رحمه الله لم يتردد في نعت متشددي اللغويين بالمتعصبين في أحكامهم النقدية على الشعر إن خالفوا قواعدهم، كذلك عبّر الدكتور الهدلق عن مجّه للحذلقة اللغوية القائمة على التكلف في الفن والأدب التي يُضَحّى فيها بجودة المعنى والمضمون، وانحاز نحو الطّبع والمطبوعين في الأدب وآمن بأثر الزمن في الذوق الأدبي فقال: ونحن وإن كنا ننفر من هذا الأسلوب –يقصد الألاعيب

اللفظية الخالية من المعاني الجيدة– ونحس بثقله على النفس ولا يمكن لنا بحال من الأحوال أن نحكم بتفضيله على أسلوب المطبوعين من القدماء فإننا مع هذا ندرك تباين الأذواق وتفاوت الميول وفقًا لتباين الزمان.

وقدّر الهدلق في خطابه النقدي توارد الخواطر ونفي السرقة عمن وقع على سابقه من دون علم أو اطلاع ولم يوافق الحريري في التقديم بالقدرة على المساجلة والارتجال وأنها ميدان صالح للموازنة بين الشعراء حيث قال: لا يمكن أن نتخذ المساجلة أساسًا عادلاً للحكم على جميع الشعراء؛ لأن طريقة الشعراء في النظم مختلفة فهناك من يستطيع أن يرتجل وهناك من لا يستطيع، وقد يكون الشاعر المتأني أكثر تعبيرًا عن مشاعره من الشاعر المرتجل، فليس عجز الشاعر المتأني عن الارتجال بطاعنٍ في جودة شعره ولا في قدرته على الابتداع، ولا ينبغي أن تُتّخذ القدرة على الارتجال مقياسًا للحكم على شاعرين يتبعان طريقتين مختلفتين في النظم، كما يقول الهدلق.

وارتضى الهدلق مناقضة الشاعر أو الناثر لنفسه في أقواله كأن يمدح شيئًا في موطن ثم يعود ويذمه في موطن آخر وأن ذلك لا يتأتى إلا من شاعر أو ناثر متمكن من صِنعته ولا يعيبه أبدًا هذا التناقض بين أقواله مادامت الجودة الفنية متوافرة في كلا الكلامين، متخذًا رحمه الله من قول الرسول –صلى الله عليه وسلم– للزبرقان بن بدر حين مدح عمرو بن الأهتم ثم ما لبث أن هجاه "إن من البيان لسحرًا" ومن حكم الحريري لغيلان الضبي بالجودة في مدحه لنهر البصرة وذمه له في آن واحد.

والهدلق بهذا يقدم الجوانب الفنية على الصدق فإن كان الأسلوب والشكل جميلاً مؤثرًا في السامع فمقبول وإن لم يكن صاحبه موافقًا للحقيقة،

ومن ثم نستطيع القول إن خطاب الهدلق النقدي ينحاز للشكل ويحتفي به في الأدب وهو ما عُرف في نقدنا الحديث "بالصدق الفني".

ولقد أثبت الهدلق في بحثه "أسطورة يونانية في مقامة لبديع الزمان الهمداني" تأثر أدبنا العربي القديم ممثّلًا في المقامات بالأدب اليوناني حين جعل من بطل المقامة البشرية "بشر بن عوانة العبدي" معادلاً لهرقل اليوناني.

يتضح مما سبق عرضه أن دراسة الدكتور الهدلق في بريطانيا ومكونه العلمي في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وحضوره التعليمي في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الملك سعود قد شكل له شخصية علمية أكاديمية ونقدية فريدة من نوعها، فكان تعامله مع التراث النقدي العربي –وهو تخصصه الرئيس– تعاملاً من نوع خاص بالدكتور الهدلق فقد نأى بنفسه أن يكون أسيرًا لتعامل التقليديين من البلاغيين ولمن سار على منوالهم من التقليديين الجدد من معاصريه، ومع ذلك ظل الهدلق منحازًا للأصالة متصالحًا مع الحداثة فنتج عن موقفه هذا خطابٌ نقديٌّ جديدٌ ومتجددٌ من دون مجافاة منه لما هو قديم أو حديث وجاء خطابه النقدي ممتدًا بسبب وثيق إلى أرض التراث الخصبة وإلى بقاع الحداثة النابتة بالمثمر والمفيد من أسباب الحياة، وكان رحمه الله يجمع بين المقولة النقدية التراثية المثقلة بحمولات الذوق الأصيل الذي يجله الهدلق ويقدره والمقولة النقدية الجديدة الكاشفة عن جماليات الخطاب النقدي الجديد وتفسيراته الجريئة والمغامرة، ومع ذلك فقد كان رحمه الله ينأى بخطابه النقدي عن الأحكام المثيرة للجدل الباحثة عن الإثارة الخالية من الجميل والمفيد.

تقسيم تركة الدكتور محمد الهدلق وتقسيم الميراث

التركة العلمية في المكتبة الصوتية

❖أ. د. أمل التميمي

بداية كان الدكتور محمد الهدلق يتميز بأسلوب قصص جميل وصوت يطرب في الحكي، وجاذب في أسلوب الحكاية، كلما استيقظ صباحا غالبا ما كنت استيقظ على صوته بحكاية أو مثل أو بيت شعر أو رد على مسألة، فتكرار الرسائل الجميلة التي يشاركها لنا في الصباح، جعلني أطلب منه بإلحاح شديد بأن يحكي لنا سيرته بأسلوب الحكاية بالوسيلة التي يرغب فيها بأسلوب (اليوتيوب) كما في ضيوف (قمم نقدية) سيرة، أو بأسلوب (بودكاست)، ولأول مرة يوافق أستاذنا الهدلق ليحكي سيرته بأسلوب الحكاية، وفجأة في صبيحة أول أيام يوم الإجازة وأنا غارقة في النوم تأتي فجيعة الفقد يوم الأحد ٢٥جمادى الآخرة ١٤٤٥هـ الموافق ٧يناير ٢٠٢٤م. وحينما تنام على أمل يتحقق تزداد فجيعة الفقد.

وأنا في صدمة الفقد حضرت جلسة الوفاء في دارة العرب، وبعطر الصبح الذي فاح من أصوات صحبه ونحن بين حمام الشوق تضاربت مشاعري بين ما أسمع من أصدقائه وأحباب الدكتور الهدلق وبين أمل المشاريع التي كنت أتمنى استكمالها مع أستاذي الدكتور الهدلق، فصوت الخراشي خفف الحزن وساعد على أن نبحث عن مشاريع جديدة ليبقى ذكر أستاذنا الهدلق حيا بنا ونحن تلاميذه المحبين له، فكنت على أمل مشاريع (الحكاية) بأسلوب الدكتور محمد الهدلق وبعدما رحل قبل أن نسجل، أصبحت أبحث عن تركة الدكتور الهدلق التي بين يدي، وجدت الكثير

والكثير ما أحتفظ به للدكتور الهدلق منها: أشرطة كاست بصوته عبارة عن محاضراته التي كانت يدرسنها بعدما حصد بها العلم ومحبتنا.

اجتماعنا يوم الاثنين (٢٣ شعبان ١٤٤٥هـ الموافق ٤ مارس ٢٠٢٤م) في ندوة وفاء للراحل أستاذنا الدكتور محمد الهدلق رحمه الله، في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الملك سعود، وعنوان مشاركتي **تقسيم تركة الدكتور محمد الهدلق وتقسيم الميراث**، هنا بين زملائه وطلابه ومحبيه نتقاسم التركة العلمية من المكتبة الصوتية التي أمتلكها وورثتها من أستاذي الدكتور الهدلق رحمه الله.

في حالة وفاة شخص يمتلك أموالًا وعقارات ومنقولات وخلافه، تسمى تلك الأموال وخلافه بالتركة، ويتم نقل ملكيتها إلى الورثة المستحقين، وفقًا لما جاء به الشرع الإسلامي.وتقسيم (الميراث العلمي) يعد من التركة التي يتركها المسلم بعد موته، لقد وضع الإسلام معيار التفاضل بين الناس على أساس العلم النافع والعمل الصالح، ومما ورد في ذلك: حديث أبي هريرة، يقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: إذا مات ابنُ آدم انقطع عملُه إلا من ثلاثٍ: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له، ويدخل العلم النافع في باب ماينتفع به المسلم بعد موته. نفعنا الله ونفع أستاذي محمد الهدلق بما ترك من علم وولد.

معرفتي بالدكتور محمد الهدلق طويلة فكنتُ طالبَتَهُ في مرحلة الماجستير، وكذلك الدكتوراه، وترك بي عظيم الأثر من كلمات الثناء، فقد شاركت في ملتقى القصة القصيرة بنادي القصيم الأدبي، (٥- ١١/٧- ١٤٢٩هـ) بورقة عنوانها: استراتيجية تحول الحدث إلى دراما القصة السيرية القصيرة

جداً نموذجاً. وقال عني: "المقولة التي يقال فيها تفوق الطالب على الأستاذ تنطبق على طالبتي أمل التميمي" ثم منحتنا جامعة الملك سعود (جائزة التميز العلمي) مشاركة أنا وأستاذي محمد الهدلق عن أفضل كتاب ٢٠١٨م تحولات السيرة الذاتية، وفي أصبوحة تكريم عميد الكلية سمو الأمير نايف بن ثنيان آل سعود قال أستاذي الدكتور محمد الهدلق: "سعادتي بجائزة التميز العلمي تزداد بمناصفتي طالبتي أمل التميميهذه الجائزة ومشاركتها لي..."

وفي حياته طلبت منه رحمه الله أن نسجل له **(بودكاست)** سيرة لما يتميز به الهدلق من جمال صوت، وحبك القصص،وأسلوبه الجاذب فقبل، وفجعنا خبر موته رحمه الله. ليت الموت يستأذن أو يعطينا خبرا، لننجز مشاريعنا قبل الفجيعة. وبعد وفاتهرجعت إلى مكتبتي الصوتية لنشر علمه الذي في الأشرطة وفاء له،فالوفاء للأحياء قد يكون فيه مصالح، والوفاء للأموات حب صادق، وأعظم الحب الوفاء بعد الموت.والوفاء للأستاذ مثل بر الوالدين لأن الأستاذ المتوفى يستحق.

من محاسن هذا اللقاء أن أنقل لكم عن أستاذي الدكتور محمد الهدلق **(محاضرات صوتية)** كنت قد سجلتها له وأنا إحدى طالباته في مرحلة الدكتوراه، ففي مرحلة الماجستيركنت أطرب لسماع محاضراته، وفي مرحلة الدكتوراه استأذنته وزملائي أن أسجل محاضراته فقبل ووافق مشكورا رحمه الله.

وقفت أمام مكتبتي الصوتية وبي غصة وكأنها سكينة أبتلعتها وتوقفت بالعرض، لعلني اليوم أجد من يدب على ظهري ليخرج السكين المعترضة بعد أن عجزت على أن أمسك بها، أقف أمام مكتبتي الصوتية

فأبكي بكاء بنشيج ولا أستطيع بلع الغصة أو فتح أي شريط لأسمع صوت أستاذي الغالي الدكتور محمد الهدلق. لم أذكر أن رأى أحدًا دموعي إلا أمي وأبنائي وبدأت أدمع خارج دائرة السجود والأهل لعظيم الفقد، لم أكن أعلم أننا عندما نفقد أساتذتنا نبكي بكاءً حارًا مثل فقدنا لأبائنا إلا حينما فقدت دكتورتي وسمية المنصور ودكتوري محمد الهدلق رحمهما الله.

قد يكون كتابة الألم أسهل من الكلام عنه، ففي الكتابة لا تصمتنا العبرة عن الكلام، وعند الكلام يصمتنا الألم والدمع والعبرة والنشقة وسيلان الأنف والعيون، كل حواسنا تتألم لسنا وحدنا نتألم، مشاعرنا تشاركنا حبهم، حتى الدمع مالح، يسيل فنذق طعمه حاذق الملوحة.

لا تشعرون مدى ألم أن أمسك الأشرطة التي بها صوت الدكتور محمد الهدلق هذا يعني أستحضر ذكريات سنوات معه رحمه الله وغفر له واسكنه الفردوس الأعلى مع الأبرار.

بداية، استجبتُ لمشاعري وبكيت وبكيت وبكيت، ثم أدخلتُ نفسي قصرا في دائرة الكتابة وأبتلع الألم وأغص به، لأجعل من **(المادة الصوتية)** التي تركها الدكتور محمد الهدلق تركة لي وإرث ورثته منه (وقفا).وسيكون محاور حديثي على النحو الآتي:

- وصف الأشرطة الصوتية.
- طريقة الأستاذ محمد الهدلق في المحاضرة.
- بعض القصص التي يرويها في سياق المناقشات.

أولًا : وصف الأشرطة الصوتية

أصف الأشرطة ومكانها وعددها وتعلقي بها، ثم أصف محتواها. في البداية هذه الأشرطة تختص بمرحلة الدكتوراه وهي محتوى (مقرر قضايا في النقد القديم ٦٣٤ عرب) كل محاضرة ثلاث ساعات، واحتوت قائمة الأشرطة لهذا المقرر على (إحدى عشر شريطا) كل شريط مدته ٩٠ دقيقة للوجه الواحد ؛ أي بمعدل تسجيل (٣٣ ساعة)، وقد احتوت الأشرطة على الموضوعات الآتية :

- تأريخ المعاصرين للنقد القديم.
- دراسة المحدثين لبعض القضايا القديمة.
- السرقات (المتنبي).
- السرقات (ابن رشيق).
- التناص.
- نظرية النظم.

كنت طالبة مغتربة رحالة بين المنطقة الشرقية والرياض، أحضر للمحاضرات وأقيم ساعات بالرياض وأغادر، كانت تزداد مشاعر الغربة في سكن الطالبات وعند مغادرة الرياض، وكان صوت الدكتور محمد الهدلق يعجبني كثيرا، يشعرني بالسكينة للحكايات التي يحكيها والخبرات التي ينقلها والأسلوب القصصي الذي يتميز به، فكنت أغادر الرياض في باص ويرافقني صوت أستاذي أعيد المحاضرة وأسمعها، ثم أصل بيتي وأسمعها وأنا أطبخ وأنا أعمل وأنا أكتب.كان هذا المسجل الصغير رفيقا لي بالسفر إلى

كل مكان (مكتبة سمعية متنقلة). وكلما تسمع الأشرطة تخرج بتصور جديد كأنك تسمعها لأول مرة، لم أشعر بالملل لكثرة تكرار سماعها لما تحتوي عليه من كثرة الاستشهادات وعناوين الكتب وأسماء النقاد القدماء والمحدثين، وكل موضوع يثريه بالحكايات والبراهين وأسماء الشخصيات.

ثانيًا: طريقة الأستاذ محمد الهدلق في المحاضرة.

كان يعطينا الموضوعات، ويوزع علينا العمل ويحيلنا إلى القراءة ثم طريقته أن يستمع لنا ويدير النقاش والحوار. وله سياسة في متطلبات المقرر أن يعتمد الطالب على القراءة العميقة في الموضوعات ثميعرضها في المحاضرة ويناقشنا ويتحاور معنا. وطريقة الدكتور محمد الهدلق فيها تميز من وجهة نظرنا نحن طلابه فقد أصبحنا نتمثلها في ممارستنا التطبيقية، وأصبحنا فينا شبه من أستاذنا بجمال خلقه وتواضعه وعمق تبحره في الموضوع، فهاتفت عبد الرحمن المهوس بالأمس وسألته عن أثر طريقة تدريس الهدلق فهو أستاذه في البكالوريوس والدكتوراه حيث يقول: " الدكتور الهدلق من أكثر الأساتذة تأثيرا بي، وتركاته في العقول وفي القلوب، وهو الأستاذ الجامعي الحق والعالم الذي يضع فيك بذرة وتبقى معك، تجده في لغتك وفي لسانك ويزرع فيك أمور لاتنتهي ويحببنا في التراث..."

سأورد بعض الطرائق التي يتبعها أستاذنا الهدلق:

١- غالبا ما يستشهد بسير الرجال (يهتم بالسيرة الذاتية للأشخاص) غالبا ما يستشهد بكلامه بالكتب، والقصة والمثال، وبالأبحاث المنشورة، أو الإشارة إلى دراسات الزملاء وأكثر ما يستشهد بدراسات الغذامي بوصفه زميلا له ويقول هذا ما توصل إليه

الغذامي كذا وكذا، أو يذكر أهدي لي الكتاب في مؤتمر كذا، ويشير إلى الدراسات الأكاديمية التي لم تنشر بعد، ويقول سمعت من فلان أو نسيت اسم من قال لي وسأذكره لكم إذا تذكرت، ويستشهد بأسماء معاصرين له ويذكر صلته بهم أو معرفته بهم. وغالبا إذا ذكر اسم شخص يعرفنا به قديما أو حديثا.

٢- يهتم في الاختبارات بالموضوع بشكل إجمالي ولكن يهتم بالرأي الشخصي عن الموضوعات وعن جزئيات المقرر وعن مجال دراسة الشخص، ويعطينا رأيه في كثير من المسائل ويهتم برأينا، ولا يتبع التديس بطريقة التلقين، سأورد بعض وجهات نظره التي يناقشنا فيها.

التناص

في محاضرات التناص للدكتور الهدلق رأيٌ في ذلك فهو يتحرج من مسألة تناص الشعر بالقرآن الكريم، فلا يرى أن يدرس في هذه القضايا إلا الإنسان المحيط بعلوم القرآن، وعلوم اللغة بل ومتبحرٌ بها، وفي نظره هذه الدراسات ليست مستحيلة ولكن ليست سهلة، ويشير إلى شخص يهودي ألف كتابا (**تنقيح الأبحاث للملل الثلاث**) للفيلسوف اليهودي عزّ الدولة سعد بن منصور ابن كمونة، وهو فيلسوف حير كثيرين، والدكتور الهدلق يرى في مثل هذه القضايا لا بد من العلم باللغات والمعرفة والقراءة الشمولية، فيقول الهدلق: "الأمور تأتي من أبوابها" وهو يكره أن يطرق طالب العلم بابا يستسهل فيه موضوعا جديدا ولكن لا يكون عنده قراءة

عميقة في التراث عن هذا العلم، فلا بد من التتبع وإثارة الإشكالات ويأتي بالمتون ويدقق فيها ويكشف الشبهات.

تأريخ المعاصرين للنقد القديم

نقلا عن رأي الدكتور الهدلق غالبا مايقول تاريخ النقد الأدبي أنا عندي تصور ربما لا يكون دقيقا، ولكن هذا ظني أن الكتب المؤلفة عن النقد القديم هما كتابان فقط، والبقية هي مجرد نقول، نسأل أنفسنا ما الذي أضافته هذه الكتب؟ لاتضيف شيئا، ففي مسألة التأليف لديه وجهة نظر أن في التكرار مسألة إثبات الوجود ويقول إنها وجهة نظره، إن كتب تاريخ النقد الأدبي كثيرة في التراث والمعاصرة وبعضها حفرت في الصخر، وبعضها ليست كتبا أصيلة في التأليف، ويذكر رأيه في كل كتاب بوضوح حيث يقول: "وكتاب الصناعتين ليست كتابا أصيلا فهو شخص جماعة، حتى ضياء الدين ابن الأثير، لايملك قدرة ذهنية عالية على التفكير، وهو يدرك أنه تفوق في نقطة النقل(جماعة)، ومتى تستطيع أن تكتشف هذا الرأي بعد توسيع عملية القراءة يجعلك تدرك هذه القضية" فيشير إلىإحسان عباس على أنه إنسان قادر وهو يرصد رصدا تاريخيا ولا يحلل، أما المتأخرين فهم على قسمين القسم تأصلوا تأصيلا تراثيا، وقسم أستورد من الآخر.[1] فأستاذنا الهدلق لايعطيك النتائج جاهزة وإنما يجعلك تستنتجها معه بعد التوسع في القراءة معه.

[1] المحاضرة التاسعة، السرقات، ابن رشيق.

السرقات

وأستاذنا الهدلق في (موضوع السرقات) في الشعر والنثر له رأيٌ سألخص مضمونه، فإذا كانت السرقة هي السطو على ممتلكات غيرك الحسية، فيذكر أبوابًا كثيرة لا تدخل في باب السرقة مثل (المواردة) ولا تعد عند المحققين سرقة[1]. فحينما تعمقنا في القراءة في مسألة السرقة بالكتب النقدية القديمة مثل كتب محمد بن يزيد المبرد وابن طباطبا العلوي نلحظ أن لأبي تمام سرقات كثيرة (أحسن فيها) وأساء فيها،فكان يذكرنا باستمرار الدكتور الهدلق في موضوع السرقات إلى النظرة الشمولية وتناول القضية في التناول التاريخي في النقد الأدبي القديم بوصفها موضوعا مهما في تاريخ النقد العربي والعالمي، ولكن كان ينبهنا في هذه القضية إلى قضية اتهام (من خالفني) وهذه تدخل في الميزان الأخلاقي لصاحب التهمة،وكان ينبهنا إلىتناول هذه الظاهرة في كتب المحدثين مثل إحسان عباس والكتب النقدية القديمة مثل ابن رشيق والحاتمي وابن الأثير، وللدكتور الهدلق له رأي في هذا الموضوع وله أبعادا متعددة، يذكر الأمثلة كثيرة جدًا على التشكيك في السرقات [2]. وقد يكون مصدر السرقات في الشعر رواة الشعر أنفسهم، ويشير إلى دراسة للغذامي عن بيتين لطرفة بن العبد واتهامه بسرقة أبيات امرئ القيس وتوصل فيها إلى خطأ الرواة. وفي تقسيم السرقات إلى حميدة وقبيحة دلالة على توارد الخواطر وباب الاشتراك في اللفظ، ولكن يقول

(١) يشير إلى أن الدكتور الغذامي قد عمل بحثا إلى استخراج أبيات من قصيدة طرفة بن العبد فيها تشابه أو تكرار لمرؤ القيس والمتسبب في الخطأ قد يكون الرواة أو الزمن أو الذاكرة.

(٢) المحاضرة ٩.

الدكتور الهدلق "الناس مثقفون ويفقهون أن السرقة أخذت جانب كبير من ذكر المساوئ والنيل من الشعراء الكبار، وأحيانا قد يكون الشاعر من مؤخرة القبيلة والآخر في سنام القبيلة ويريد أن ينتقص من صاحبه وهو عدوه في نفس اللحظة مثل جرير والفرزدق. أو الحد من نجاح الشاعر مثل المتنبي". ويقول الهدلق في هذا: "الحاتمي كان ممرورا من أبي الطيب المتنبي يريد أن يعيبه، وفي نظري أن شعر المتنبي يدافع عن المتنبي، اقرأ مما كُتب عن عيب المتنبي، لتسأل نفسك، ماسر الجاذبية عند المتنبي؟ والسر هو أن المتنبي عنده لكل قارئ شيء خبأه له، وينطق بما في خواطر الناس. والمتنبي يعرف موقعه كثير من الناس ويذكر في هذا السياق الغذاميوعبد العزيز المانع، فمن يُتهم بالسرقة إلا النجوم الكبار، ولا يعقل أن يتهم بالسرقة شاعر عادي مغمور تابع"[1]. ولا يمكن للشاعر البسيط أن تكون له سيادة مع الكبار إلا في استبعاد الشعراء الكبار مثل المتنبي.

وقس على ذلك تاريخيا مثل قصة صلاح الدين الأيوبي والقاضي الفاضلفقد كان القاضي الفاضل الرجل الثاني في دولة صلاح الدين الأيوبي، وقد اعتمد عليه صلاح الدين في تدبير شئون دولته وتجهيز جيوشه وتأمين رعاياه، وفي تربية أبنائه.وقد شهد صلاح الدين نفسه بدور القاضي الفاضل الفكري والإداري البارزفقال صلاح الدين في القول المأثور: "لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل" ومع هذا فقد القاضي الفاضل مكانته بعد موت صلاح الدين بالتآمر عليه والسبب على رأي الدكتور الهدلق الضعفاء "لا يمكن لهم السيادة مع الكبار".

---

(١) محاضرة السرقات، ج١.

والنظرة الشمولية تجعلنا نفهم الغرض من اتهام بعض الأشخاص بالسرقة للنيل من سمعتهم وإبعادهم عن طريق النجاح ليأخذوا مكانهم فلا سبيل إلى الوصول إلا بالاستبعاد. وأختم هذه الفقرة بقول الهدلق رحمه الله "الضعاف هم من يسرقون ولكنهم يتهموا الكبار، وذُكرت في الكتب ونالت شعراء كبار مثل المتنبي والبحتري لطرافتها، فالمتنبي عين الزمان، وليس هناك شاعر قبله، والحكم فيه مبالغة، ولكن وجود المتنبي قطع أرزاق شعراء كثر، فنذكر للعظة والعبرة".

- **جاك دريدا القائل بمسائل التفكيك وقضية أفضلية الكتابة على الصوت**

من يذهب مع أفضلية الكتابة على النطق مثل هذه الأمور التي أعجب بها المفكر والفيلسوف الجزائري جاك دريدا (هذا التفكيك يتمشى مع نظرية اليهود)[1] فجاك ديريدا فيلسوف ويحكي لنا طريقة انتقاله من الإبداع إلى النقد ويشرح طريقته في التشكيك. لدَريدا طريقة صارمة في الشك في كل شيءووجد هذا التصميم الجديد ليس عن طريق إشغال نفسه بالأفراد، وبدوافعهم وبتواريخ حيواتهم لكن فلسفة دريدا عارضتْ بشدة علم النفسكما أن إنكار دَريدا لعلم النفس هو إنكار للسيرة الذاتية. والدكتور الهدلق يعتمد اعتمادا كليا في محاضراته على السيرة الذاتية للأشخاص الذين يستشهد بأقوالهم وفكرهم وشعرهم، فهذه المنهجية أصبحت أمارسها في كل دراساتي ففكر الشخص جزء من حياته ومعتقداته وأهدافه. ولكن الدكتور الهدلق لا يقدح في فكر من يخالفه بل يدعو إلى التعايش والحديث ومزاملة وتبادل الكتب وذكر محاسن الرجال.

---

(١) محاضرة التناص

ويرى الهدلق ربما الأشياء التي أدت إلى الفوضى في (المناهج النقدية) هي قصة أن دريدا يريد أن يسلمك إلى معنى يدل على شيء، ليس أن يدل على شيء، وهذا يسلمك إلى متاهات. فقصة جاك دريدا تجعلك تشعر بالريبة وتدخلك إلى متاهات، وهو ينظر إلى بعض الأمور التي ذكرها في **مسألة التفكيك** بشيء من التشكك، قد يكون مصيبا في التشكك وقد يكون مصيبا في نظرته إلى اليهود. وأستاذا ذكره الهدلق و(نسى اسمه) يقول أن دريدا لما قدم مسألة الكتابة على الصوت (الكلام)، وقال بأفضلية الكتابة على الصوت، والناس أعجبوا بهذا وهذا ينطبق مع معتقد اليهود ويركزون على الألواح، قال تعالى "وكتبنا له في الألواح". بينما عند النصارى على النطق المسيح ينطق. يتحدث عن هذا سينطبق على السرد القديم، وفي هذا التفكيك ينطبق على الأستاذ المتشكك.

- يدعونا كذلك الدكتور الهدلق إلى القراءة الشمولية ونخوض معه نقاشا واسعا حول القراءة الخطية والقراءة التراتبية والقراءة العامودية، فهناك قراءة غير بريئة ناقصة في بعض الأحيان لمن يقرأ التراث، وقراءة الموغلون في حفر التاريخ لا يمكن أن تكون عابرة وتمر عفوية وبدون قصدية. وكذلك يهتم في تنويرنا بالكتّاب الذين لديهم حضارة ومحكومون في أفكارهم بحضاراتهم القديمة، فالإنجليز والفرنسيون لديهم حضارة أما في أمريكا فالفكر متمدن ويقبل بالتعدد، ويتعمق معنا في قراءات مثل محمد أركون، ومحمد مفتاح، وعشيراتي سليمان الأستاذ الجزائري الذي قابله في مؤتمر وأهداه كتابه. فلا يمر اسم شخصا أو كتاب وإلا نستفيد من خبراته والقصص.

ثالثًا بعض القصص التي يرويها في سياق المناقشات.

طبيعة الناس وطبائعهم (معادة السامية)

يتميز أسلوب الهدلق بالأسلوب القصصي، ويحكيقصص الابتعاث في بريطانيا وعن طبيعة الناس وطبائعم والطبقية في التسمية البريطانية. وغالبا يتحدث عن طبيعة الناس وطبائعهم ويقول (هذا الرجل أهداني الكتاب) ولكن لا أذكر اسمه، وحينما يحكي لنا يذكر (أصدقاء حياة لطيفون وليس عندهم البعد العنصري في أمريكا ليس عندهم ولكن الفرنسيون والإنجليز عندهم عنصرية) يقول "سكنت مع صديق وعلمت أن الإنجليز لا يحبون اليهود وعندهم إشارات فيما بينهم إذا كان بينهم يهودي" والعرب عندهم أسوأ بكثير"[1]. وسواء أكان صحيحا أو غير صحيح فهم متسيدون مثل غيرهم بالعلم.

وفي سياق القصص التي يوردها في المحاضرة، (قصة حياته في بريطانيا فترة الابتعاث)

القصة الأولى: الحديث حول الاسم (بون بيكر)حينما يذكر النسبة العالية من المبرزين من اليهود، قدر لي أن أختلط بهم لأنني سكنت مع زميل بريطانيا، فكان مع الدكتور محمد الهدلق أسرته وأبنائه، فأجر جزءًا من مسكنه على زميل بريطاني، وهذا الزميل له أصحاب فكنا نجلس ونتحدث مع هذا الزميل وغيره، فعرفت من خلال الجلوس معهم والحديث أنهم لا يحبون اليهود، يكرهون اليهود في قرارات أنفسهم، وعندهم إشارات معينة يتبادلونها إذا كان هناك شخص يهودي، ولكن اليهودي مفضل على آلاف

(١) محاضرة التناص.

من العرب، ولكن العرب عندهم أسوأ بكثير، ولوخيروا بين اليهود والعرب سيختارون اليهود. واليهود عندهم أفضل والسبب لجوامع كثيرة بينهم، والصلات بينهم، وأوروبا في القرن السابع إذا أرادوا يتعلمون الرمي يأتون باليهود يرمونهم. وهناك أستاذ في النقد في موضوعنا من أشهر الناس الذين يكتبون في النقد رجل فاضل وخير هو هولندي يدرس في أمريكا في لوس أنجلس رأيته هناك جرى حديث بيني وبين أحد الأساتذة وقلت إنني قابلت أستاذ **بوني بيكر** وإلى آخره وأثنيت عليه، فجرني الحديث إلى السؤال حول الاسم (بون بيكر) فبون يعني عظم، وبيكر خباز، (خباز العظام) فقالوا: إيه هذا كان يخبز بعظام اليهود أي يضعون عظام اليهود في الخبز، ورغم معاداتهم لليهود فهم لا يقولون عنهم إلا كل خير. لأنهم متسيدون في الجامعات ومتسيدون مثل غيرهم يعملون وبينهم روابط عمل. متميزون في الذكاء والعلم والاكتشافات والطب، ونسبة من المبرزين في العالم من اليهود. وهؤلاء الناس يعملون في كب مكان ولهم وسائل أخطبوطية في استبعاد من يريدون، وإبقاء من يريدون. وكل ما مر اسم (مستشرق يهودي) وله صلة بموضوعنا يورد العديد من القصص الرائعة والعميقة.

القصة الثانية: الحديث حول الاسم (براند، بيتر) فيقول إن الاسم عند الإنجليز يحيل إلى الطبقة الأرستقراطية التي يعيشها الفرد فاسم الشخص (براند، فمن عادة الإنجليز من الطبقة الاستقراطية أن يكتب الاسمان سويا فلا تتنازل الأم عن اسمها (سبانسر مان) زميل لهم في بريطانيا يعرفه كل زملائه في القسم مثل الدكتور عبد الله الغذامي والدكتور عبد العزيز المانع.

كان يريد أن يسافر معه فقيل إنه انتحر بسبب والدته وقد زار الهدلق قصر والدته، فقد جمع مبلغًا من المال يريد أن يشتري القصر من أمه ويريدها أن تعيش فيه، فذهب وهو في حالة إحباط شديد من تركه عمله فوجد أمه باعت القصر، وهذا الصديق أمريكي نصراني كتب ورقة قال فيها لأمه "آسف لما تسمعين عني، ولبس البالطو ومر على سكة القطار وسدح نفسه على المحطة على طريق التقاء أكثر من سكة قطار ودهسته القطارات حتى قطعته" حزنا عليه.يقول الدكتور الهدلق رحمه الله القصة طويلة عريضة هذا الرجل درس العربية ومع العرب ويعرف ألماني وفرنسي والشاهد أنني أعرف هذا الرجل وأعرف مصداقياته وجواز الدخول إلى بيئاتهم. أو اجتماعاتهم أن تسكن معهم وتتحدث معهم لتعرف عقليتهم وكيف يفكرون[1].

لم أكن أتحدث عن جزئيات المقرر وإنما تناولت بعضا من لمحات وتوجيهات الدكتور محمد الهدلق التي توجهنا بوعي منا بوصفنا طلابه أو بدون وعي. ومن تلك اللمحات:

- الناس مغرمون بالجديد وليس لنا أن نعارضهم، ويشير إلى مسألة (التجريب) بقوله: (خلوا الناس يجربوا)، وينبغي ألا يقف الفريق ضد الفريق الآخر. ويدعو إلى المذاهب تختلف ولكن تتعايش[2].
- ويشير إلى الصراع بين القديم والحديث سيظل إلى أبد الآبدين والحل في (النظرة الشمولية)، ففكر العرب ليس ناقصا في استحداث

(١) التناص

(٢) المحاضرة ١١ ، النظم، ويشير إلى جورج واتسن.

نظريات ولكن ما ينقصهم النظرة الشمولية وتغير طريقتهم في التأليف في التنظير بدلا من النقل، ويرى أن معظم الكتابات العربية ناقلة غير عبد القاهر الجرجاني فلم يكن ناقلا وإنما كان صاحب نظرية.

- ويشير بقوله ماعادت **الصرامة المنهجية قائمة** فأصبح المجتمع النقدي يقبل بتداخل الأجناس، وتُصنف حينها حينما تلتزم بالمعايير المنهجية أو المقاييس. ولسلامتك من النقد زمر مع المزمرين. ويخشى من الصرامة العلمية تؤدي إلى التسيب والتساهل حتى نقبل بأعمال بعيدة عن المعايير النقدية. ولكن لا يمكن أن تنعتق من القوانين.[1] فحينما نعلق على روايات تقبلها الوسط النقدي، فهو يرى هل درسوا أساسيات العمل الروائي؟ وهل وقفوا على تقنيات العمل الروائي؟.
- يشكك في بعد الموغلين في (تاريخ النقد) ويراها أنها من صناعة العصر.

كيف لا يبقى الأستاذ محمد الهدلق في ذاكرة طالبة؟، وهو غالبا ما يشير إلى طلابه ويفخر بهم، فغالبا ما كان يفخر بالدكتورة فاطمة الوهيبي، وكذلك يشير إلى الدكتور معجب العدواني بالفخر والاعتزاز فحينما ذكر بحث الدكتور العدواني رحلة التناصية إلى النقد العربي القديم قال كتب هذه

(١) محاضرة التناص.

المقالة قبل ابتعاثه إلى بريطانيا وقد كان في يومٍ ما طالبا يجلس في مكتبي هذا مثلكم، فيجعلنا ننظر إلى المستقبل بأمل كبير واستبشار أننا سنكون أملا للأمة، فلم يكن أستاذًا يعبر بدون أن يترك الأثر، فمثل هذا الأستاذ يذكر بالدعوات وفي الصباحات وفي المحاضرات، لأن المحاضرات التي كنت أسمعها وحدي، واليوم نفتح التركة لنوزع الميراث.

ختاما، كنت أسمع كل كلمة من أحرف الدكتور الهدلق بكل جوارحي فكان معلما وأبا ناصحا ومخلصا وملهما، وكان عالما يعلمنا بالممارسة كيف الجمع بين العلم والعمل الإداري، فمن لا يعرفه يحسبه فقط يلتزم بالأنظمة واللوائح، ولكن لو سمعت أشرطته كيف يتعامل مع طلابه لعرفت كيف يوصل صنوف المعرفة إلى طلابه بالقصص وتوسيع دائرة القراءة والسيرة الذاتية بقصص الابتعاث أيام دراسته. وهي قصص جميلة ونادرة وأتمنى أن تجمع في كتاب (قصص ابتعاث الهدلق: حياة عامرة).

ذكرت لكم بيانات المورث محمد الهدلق، وبيانات التركة (أشرطة سمعية) وهي توضح إجمالي مبلغ التركة (١١ شريطًا مسموعًا)، ونصيب الورثة هي إجمالي ما يمكن أن تدفعك هذه التركة إلى التأليف والكتابة والعمل الجديد.

فمقدار الميراث الذي ورثته من الدكتور الهدلق بدأ ببحث نشرته عام (٢٠٠٧م) وهو:

- عرض لثلاث مدوّنات في نقد النقد مع ثلاث قراءات معاصرة لابن طباطبا وكتابه عيار الشعر (**مجلة فصول**، مجلة النقد الأدبي علمية محكَّمة. الهيئة المصرية العامة للكتاب، شتاء/ربيع ٢٠٠٧م). وأنتهي أن صعدنا إلى

منصة التكريم معا. ومازلت أذكره بالدعاء ومن حضر القسمة فليقتسم، وأنهي كلامي بالوصية، دائما ما أوصي أبنائي ببر أساتذتي والحرص على الدعاء لهم والصدقة ونشر علمهم.

رحم الله أستاذي وأبي وأستاذتي وسمية وسائر موتى المسلمين.

في تأبين العلامة الأستاذ الدكتور محمد الهدلق

❖د. منال العمري

اِجعَل رِثاءَكَ لِلرِجالِ جَزاءَ
وَابعَثهُ لِلوَطَنِ الحَزينِ عَزاءَ
إِنَّ الدِيارَ تُريقُ ماءَ شُؤونِها
كَالأُمَّهاتِ وَتَندُبُ الأَبنـــاءَ
تُكلُ الرِجالِ مِنَ البَنينَ وَإِنَّما
تُكلُ المَمالِكِ فَقدُها العُلَمــاءَ
يَجزَعنَ لِلعَلَمِ الكَبيرِ إِذا هَوى
جَزَعَ الكَتائِبِ قَد فَقَدنَ لِواءَ[1]

عرفت الأستاذ الدكتور الهدلق –رحمه الله– في ثلاثة مواقف علمية مختلفة كان أولها عضو لجنة مناقشة رسالتي المقدمة للقسم لنيل درجة الماجستير، وكنت ككل الطلاب أحاول معرفة طبيعة المناقش وما الذي يجب أن أتوقعه من ملاحظات وأسئلة وكانت الإجابة واحدة: دقيق جدا، صارم جدا...

في ذلك البحث ارتكبت خطأ جسيما ففي التمهيد أحلت إلى نسختين من الكتاب المحقق مدونة البحث ، إحداهما كانت بتحقيق الدكتور صالح الأشتر والثانية بتحقيق المكتبة الأزهرية وذكرت بأني سأعتمد على

(١) أحمد شوقي

نسخة المكتبة الأزهرية لمبررات ليس مقامها، ثم مع التعديلات حذفت وقدمت وأخرت فتغير مكان الإحالة الأولى لكتاب الأشتر وصارت الإحالةُ إليه متأخرةً وصارت كلُّ الإحالات للأخبار التي تليه تعود إليه بوصفه (المرجع السابق) علمًا بأني كنت أحيل إلى الأزهرية.

وقت المناقشة كانت هذه أولى الملاحظات التي ذكرها الدكتور رحمه الله فأسقط في يدي كما يقولون، لأني عرفت أن الجهد القادم سيكون مضنيا في تعديل الصفحات، والبحث جلُّه أخبارٌ مقتبسة من نسخة أخرى، الجدير بالمقام هنا أن الدكتور كان يعدل لي أرقام الصفحات للاقتباسات فيقول هذا في صفحة كذا لا صفحة كذا وهذا في صفحة كذا لا صفحة كذا ما أذهلني حقا وقتها كيف له أن يعود إلى كل هذه الأخبار ليوثق صفحاتها كان بإمكانه الاقتصار على صفحة واحدة ثم يضع ملاحظة حول وجوب التأكد من الصفحات، لكن الدكتور الهدلق كما يعرفه الجميع كان مخلصا أمينا دقيقا يعطي وقته للعمل الذي يوكل إليه، لا يرجو جزاءً ولا شكورًا.

أما الموضع الثاني فقد كان في قاعة الدرس حين درست على يديه مقرر النقد القديم وماذا أقول عن هذه المحاضرات، كنت أشعر حينها أن الدكتور الهدلق في منطقته المحببة فكان يتحدث عن تاريخ النقد والنقاد ويناقش أفكار إحسان عباس وغيره وكنت في سري أدعو ألا تنتهي هذه المحاضرة الماتعة التي تشنف مسامعنا بخلاصة معرفة وأفكار الدكتور كنت وزميلاتي نتعجب من سعة علمه وملكته في الحفظ ومعرفة الصفحات التي ورد فيها هذا الرأي أو ذاك الخبر، ولكن أعجب ما أثر فيّ مع ما تعرفه من صرامته وحزمه كانت خفة ظله فقد كان الأمر مفاجئا لي الدكتور الهدلق

داخل الصف في حديثه العلمي الرصين خفة ظل وظرافة لا أعرفها في غيره ممن جمع كل هذا العلم وكل هذه الصرامة العلمية على نفسه أولا وعلى طلابه ثانيا، من الأمور الأخرى التي تأثرت بها كثيرا هو حرص الدكتور على ذكر أسماء الأعلام بالشكل الصحيح كصاحب الفهرست أهو النديم أم ابن النديم وهل نقول ابن خلِكان أو ابن خلْكان ولم يكن يصوب لنا ويصمت بل كان يشرح ويوضح الخطأ باستطراد منطقي لا يخرج به عن الموضوع إلا ليعود إليه ، ثم إني أصبحت أحرص على التأكد من أسماء الأعلام بعد هذا ولا آخذها على أنها مسلمة لحفظي القديم لها أو سابق معرفتي.

ثم كان الموضع الأكثر تأثيرًا فحين أوكل للدكتور أمر الإرشاد فبعد أن سجلت موضوع الدكتوراة مع الدكتور حسين الواد رحمه الله، نقل الإرشاد للدكتور الهدلق، وفي حقيقة الأمر كنت متخوفة من أن يعارض الموضوع أو يطلب مني تعديله أو أن يراه غير مناسب للبحث وعلى عكس ما توقعت كان الدكتور رحمه الله مشجعا وداعما وخير معين، وكنت قد ظننت أني شملت مادة البحث وجمعت مدونات كثيرة في الموضوع وأحطت بالكتب التي أجد فيها مادة تخدم البحث إلا أن الدكتور الهدلق دلني على غيرها الكثير فقد كان رحمه الله طويل الرشاء في كتب التراث بما يجعل الكثير من المتخصصين غيرَ قادرين على الإحاطة بما أحاط به. ومن مواقف هذه المرحلة أن أشرت للدكتور بأني سأعمل على الخطة في الإجازة الصيفية وسأبعثها له وبالفعل قمت بهذا وظننت أني بعد عودة الدراسة سأجد الملاحظات وأسجلها قبل رفع الخطة للقسم، وإذ قمت بعملي كاملا

جمعت حقيبتي وحاولت اللحاق بما تبقى من الإجازة بعد ثلاثة أيام فقط يرسل لي الدكتور هل الوقت مناسب للاتصال لنناقش الخطة وأنبهك لبعض الأمور؟ وقتها شعرت بالحرج كيف أقول له إني لست في الرياض؟ ماذا سيقول؟ أنا أعمل وهي تسافر... ومن هذه الهواجس التي تنتاب الطالب خوفا واحتراما وتقديرا لأستاذه ... فقلت لابد من مصارحته قلت له بخجل شديد يا دكتور أنا في بروكسل... فقال: لا بأس لنتحدث عبر إحدى برامج الاتصال المجاني لأن المكالمة ستكلفك الكثير ولا أريد أن أثقل عليك، ولم يكن هذا همي في الحقيقة بل الحرج منه، فقلت له لا ليست مشكلة لكنه أصر على البرنامج المجاني حرصا علي، وكانت ملاحظته كالعادة دقيقة مفصلية ومهمة.

وبعد فإن الدكتور الهدلق المناقش والأستاذ والمرشد لم يكن مع كل هذا يناديني إلا يا بنتي وصارت هذه الكلمة تتردد في أذني بصوته كلما ذكرته، رحم الله الدكتور العلامة بحق أستاذي محمد الهدلق وأسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء وجعل علمه وصبره على حمل العلم وتعليمه شفيعا لها ورفعة في درجات جنات النعيم .

الفصل الرابع: احتفاء وتكريم

يحوي هذا الفصل مقالات وشهادات نشرت في "جسور" الصادرة عن مركز حمد الجاسر الثقافي بتاريخ محرم ١٤٣٨هـ احتفاءً بعضو مجلس أمناء مؤسسة الشيخ حمد الجاسر الثقافية، وعضو هيئة تحرير مجلة "العرب" أ.د. محمد بن عبدالرحمن الهدلق رحمه الله.

إشارات من وحي سيرته ومسيرته

❖أ.د. أحمد بن محمد الضبيب

تتجلى صورة شخصية الأستاذ الدكتور محمد الهدلق لمن يعرفه من خلال عدة ملامح، لعل من أشدها وضوحاً صورة الأستاذ الجامعي، المخلص لمهمته، والمتفاني في سبيل أكاديميته.. فهو الملتزم دائماً بشروط الأداء المتميز للأستاذ الجامعي، في مختلف الظروف.. والحريص على إعطاء تلاميذه الوقت والجهد الذي يمكنهم من الإتقان والتفوق. والعالم الذي يملك مفاتيح تخصصه باقتدار، ويستطيع أن يدخل طلابه أبواباً واسعة من المعرفة.

الدكتور الهدلق يستحق –في نظري– طلاباً متميزين ذوي تطلعات عالية يستطيعون مواكبة علمه وخبرته وقدراته الكبيرة.. ومن الظلم أن يقوم بتدريس مجموعات طلابية متهالكة من حيث الإمكانات الذهنية والعلمية.

وفي الوسط الجامعي أيضاً يظهر الدكتور الهدلق متألقاً في مجال العمل الإداري.. رئيس قسم وعميداً، وعضواً في لجان الجامعة المختلفة، ومجالسها المتعددة.

وهنا يبرز ملمح آخر من ملامح صورة شخصية الهدلق الجامعية المتميزة، سواء في استيعابه العمل الإداري الجامع أو في إلمامه بالنظم واللوائح الجامعية. يبدو ذلك جلياً في الاجتماعات الإدارية المتعلقة بالعمل الجامعي التي كثيراً ما يشارك فيها ويناقش فيها عن خبرة طويلة وتمكن.

ثم تأتي بعد ذلك شخصية الأستاذ الباحث.. وهي شخصية تتميز بالدقة، وحسن التتبع لما يريد بحثه، فهو ليس من الباحثين المتعجلين الذين –في كثير من الأحيان– يكفيهم الخير الواحد، أو المصدر اليتيم، كلا.. الهدلق باحث صبور،

طويل النفس، يقلب الأمور على وجوهها المختلفة، فإذا استقام له الأمر مضى فيه. كما أنه ينتقي موضوعاته بعناية. محاولاً النفوذ إلى جوانب لم يلتفت إليها كثيراً، أو مضيفاً ومصححاً.

ومع تنوع نتاجه البحثي إلا أنه –وهو من النقاد السعوديين الكبار– آثر أن تكون معظم بحوثه النقدية متصلة بالتراث، ولذلك لم يخض مع الخائضين في النقد الحديث، ولم يشارك في موضوعات الجدل الساخنة بين الحداثيين والتقليديين، وقد مرت عاصفة الحداثة وكان الدكتور الهدلق فيها مراقباً، وهو أمر يتفق وشخصيته الهادئة البعيدة عن بؤر التوتر كما يتفق أيضاً مع شخصيته الاجتماعية والبحثية المتسامحة.

تنوعت كتابات الدكتور الهدلق البحثية بين التحقيق لبعض مؤلفات التراث النقدي القديم وبين البحث. ففي المجال الأول حقق رسالة أبي إسحاق الصابئ في الفرق بين المترسل والشاعر، ورسالة الإغريض في الحقيقة والمجاز والكناية والتعريض، لتقي الدين السبكي، ورسالة ابن طباطبا العلوي في استخراج المعمى.

وتناولت بحوثه العديدة في النقد الأدبي القديم مجالات مختلفة بعضها مواقف بعض النقاد القدماء من نصوص أو قضايا نقدية كموقف موسى بن عزرا من البيان العربي، وموقف القرطاجني من قضية الغموض في الشعر، ورأي حازم القرطاجني في مسألة الصدق والكذب في الشعر، وموقف ابن المعتز من شعر أبي تمام. وتأويل الشريف المرتضي للنص الشعري.

وشملت بحوثه شخصيات نقدية قديمة جلاها من خلال ما أسهمت به من نتاج أدبي أو علمي. مثل بحثه عن زين الدين الرازي وأعماله البلاغية والنقدية، وأبي الحسن المرغيناني وكتابه المحاسن في النظم والنثر.

ومن بحوثه ما يتناول بعض القضايا النقدية، مثل: الثقافة النقدية لأبي الطيب المتنبي، ودعوى سرقة الشعر بين السري الرفاء والخالديين، والهزروف والقول الشعري المصطلح والدلالة، وقضية الحجاج بشأن الأحقية في الخلافة بين الخليفة أبي جعفر المنصور، ومحمد ذي النفس الزكية. وهي بحوث مبتكرة تدل على عمق في البحث، وجدة في التناول، ورغبة في الكشف عن المزيد من الحقائق في الموضوعات المطروقة.

يؤخذ على الناقد والباحث محمد الهدلق أنه لم ينشر كتاباً حتى الآن، ولعل ذلك راجع لانهماكه في أعماله الأكاديمية والبحثية، ولكن من حقنا عليه أن نطالبه بذلك، حتى يتيسر لقرائه من الطلاب والباحثين أن يتصلوا بأعماله الفكرية، التي تختبئ في المجلات البحثية، وفي سجلات المؤتمرات العلمية.

تلك هي شخصية أبي خالد الهدلق الأكاديمية والعلمية، وهي شخصية لا أريد القارئ أن يظن أنها شخصية جافة متزمتة كما يشاع عن بعض أساتذة الجامعة الجادين.

فأبو خالد الهدلق ينطوي على شخصية اجتماعية فذة، متألقة كتألقه في التدريس والإدارة والبحث العلمي شخصية معتدلة المزاج، متواضعة النفس، مرحة الروح، بشوشة المحيا، نبيلة المواقف. أصيلة ومعاصرة في آن واحد، وذلك بعض ما يعرفه عنه محبوه.

الدكتور محمد الهدلق الباحث الناقد

❖أ. د. عبدالعزيز المانع

الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق باحث وناقد مميز، ومحقق ثبت، وأستاذ أكاديمي بارز.

عرفتُ الصديق الدكتور الهدلق منذ زمن طويل جداً، يزيد على خمسين عامًا، فلقد زاملته في المدرسة الابتدائية في شقراء، ثم في المعهد العلمي هناك، ثم في كلية اللغة العربية بالرياض، ثم في جامعة الأزهر بمصر، ثم في الإعادة بقسم اللغة العربية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، ثم في البعثة إلى بريطانيا، ثم في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض، ثم في عضوية مجلس النادي الأدبي بالرياض، ثم في مجلس أمناء مؤسسة حمد الجاسر الخيرية، ثم في مجلس أمناء مزكر الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، وأخيرًا: نعمل سوياً الآن في كرسي المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها بمكتبين متجاورين لايفصل بينهما سوى جدار مشترك.

ذكرتُ هذا الرصد التفصيلي لأبين أن معرفتي بالدكتور الهدلق ليست معرفة عابرة، ولا مبنية على لقاء أو لقاءين، وإنما هي مبنية على زمالة عُمْرٍ ليست بالقصيرة.

كان الهدلق متفوقًا في دراسته الجامعية، وقد كان هذا التفوق سبباً رئيساً في ترشيحنا معًا بعد التخرج للعمل في المحكمة المستعجلة الثانية بالرياض، رغم أننا متخصصان في اللغة العربية وليس في الشريعة، وقد عملنا فعلاً في المحكمة بضعة أشهر، ثم انتقلنا إلى رئاسة القضاة (وزارة العدل حاليًّا).

لم يكن الدكتور الهدلق وهو المسكون بالقراءة المعمقة لكتب التراث ليقف فقط عند وظيفة تدر عليه قوت يومه، وتؤمن له حياة هادئة مستقرة مهما كانت طبيعة

هذه الوظيفة، وإنما كان يبحث عن عملٍ يؤمن له خلود الذكر، وحسن الأحدوثة على المدى البعيد، لهذا السبب رأيته يكافح بقوة من أجل التخلص من العمل في المحكمة لينتقل مرحليًّا إلى العمل في وظيفة إدارية برئاسة القضاة (وزارة العدل الآن). ولم يمنعه العمل الإداري في قسم المحاسبة برئاسة القضاة من التعلق بأهداب مشروعه المستقبلي، فقد شغل نفسه في هذه الفترة بالدراسة منتسبًا من أجل الحصول على درجة الماجستير في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، وقد حصل على هذه الدرجة في العام ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م. وعندما سنحت له الفرصة بالحصول على وظيفة معيد في قسم اللغة العربية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة اغتنم هذه الفرصة وانتقل إلى مكة. وبعد عام أو أقل قليلاً من تعيينه في هذه الوظيفة وممارسته التدريس بقسم اللغة العربية هناك، أوفدته كلية الشريعة والدراسات الإسلامية إلى بريطانيا للحصول على شهادة الدكتوراه، وقد حصل على هذه الشهادة من جامعة أدنبرا في العام الجامعي ١٩٧٧/١٩٧٨م، وذلك على رسالته ذات العنوان:

"ضياء الدين ابن الاثير وجهوده في البلاغة".

وعاد بعدها إلى المملكة ليبدأ عمله الأكاديمي الجاد.

النشاط العلمي:

أ. داخل الجامعة:

إضافة إلى تدريسه النقد العربي القديم وعلم البلاغة لطلبة القسم ولطلاب الدراسات العليا فيه، عمل عضوًا في عدد من المجالس واللجان، من بينها:

- ♦ عضو مجلس كلية الآداب بجامعة الملك سعود.
- ♦ عضو مركز البحوث بكلية الآداب.

♦ رئيس لجنة الدراسات العليا بقسم اللغة العربية في كلية الآداب.

♦ عضو لجنة التطوير الأكاديمي بجامعة الملك سعود.

♦ عضو اللجنة الدائمة لشؤون المعيدين والمحاضرين ومدرسي اللغات بالجامعة.

♦ عضو لجنة الابتعاث والتدريب بجامعة الملك سعود.

♦ عضو اللجنة التحضيرية لندوة الشيخ حمد الجاسر وجهوده العلمية التي أقامتها كلية الآداب عام ١٤٢٤هـ.

♦ رئيس لجنة المعيدين ورعاية المتفوقين في قسم اللغة العربية وآدابها.

ب. خارج الجامعة:

شارك في عدد كبير من اللجان من بينها:

♦ عضو اللجنة العلمية بمعهد الدراسات الدبلوماسية التابع لوزارة الخارجية.

♦ سكرتير لجنة دراسة إنشاء الكليات والمعاهد الجديدة بوزارة التعليم العالي.

♦ سكرتير اللجنة التحضيرية لدراسة اجتياج المملكة من مؤسسات التعليم العالي بوزارة التعليم العالي.

♦ عضو لجنة معادلة الشهادات الجامعية بوزارة التعليم العالي لفترتين.

♦ مستشار غير متفرغ بمكتب وزير التعليم العالي.

♦ ممثل وزارة التعليم العالي في اللجان المشتركة التالية لعدة دورات:

اللجنة السعودية الاسترالية.

اللجنة السعودية الأيرلندية

اللجنة السعودية البلجيكية اللوكسمبورجية..

♦ ممثل الجامعات السعودية في اجتماع الفريق المختص بتنسيق متطلبات التخرج في أقسام اللغة العربية بجامعات دول مجلس التعاون الخليجي في ١٤٠٨هـ.

♦ عضو لجان تقويم خطط الدراسة بكليات البنات التابعة للرئاسة العام لتعليم البنات في ١٤٠٩هـ.

♦ ممثل جامعة الملك سعود في مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز لمدة ثلاث سنوات.

♦ عضو الأسرة الوطنية للغة العربية بوزارة المعارف.

♦ عضو فريق التقويم الشامل للتعليم في المملكة.

الرسائل التي أشرف عليها:

أشرف على أربع رسائل ماجستير ودكتوراه، وشارك في مناقشة إحدى عشرة رسالة علمية.

المؤتمرات والندوات:

شارك في العديد من المؤتمرات والندوات، منها:

١. المؤتمر السنوي للجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط الذي عُقد في مدينة لانكستر ببريطانيا.

٢. ندوة قراءة جديدة لتراثنا النقدي، التي أقامها نادي جدة الأدبي الثقافي عام ١٤٠٩.

٣. ندوة تيارات الفكر في المغرب والأندلس: الروافد والمعطيات، التي عقدت بكلية الآداب في جامعة عبدالمالك السعدي في المغرب.

٤. المهرجان الوطني السابع للتراث والثقافة.

٥. ندوة "الأندلس: قرون من العطاءات والتقلبات" التي أقامتها مكتبة الملك عبدالعزيز بالرياض ١٤١٤هـ.

٦. الملتقى العلمي الدولي الذي نظمته جامعة تونس للآداب والفنون والعلوم الإنسانية بتونس، بمناسة مرور ثلاثين عاماً على تأسيس حوليات الجامعة التونسية.

٧. ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية الذي أقامته جامعة عبدالمالك السعدي بتطوان بالمغرب عام ١٩٩٥م.

٨. اجتماع مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعري التي عقدت في أبو ظبي ١٩٩٦م.

٩. المؤتمر الدولي للمستشرقين الذي عقد في مدينة بودابست بالمجر ١٩٩٧م.

١٠. المؤتمر الدولي الرابع للحضارة الأندلسية الذي أقامته كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٩٨م.

١١. مؤتمر النقد الأدبي السابع الذي أقامته كلية الآداب بجامعة اليرموك بالأردن عام ١٩٩٨م.

١٢. الندوة الفكرية الدولية حول "فن القص في الأدب العربي قديمه وحديثه" بمدينة سوسة في التونس عام ١٩٩٨م.

١٣. الملتقى الثاني لقراءة النص، الذي عقد في النادي الأدبي الثقافي بجدة عام ١٤٢٣هـ.

١٤. الملتقى الثالث لقراءة النص الذي عقد في النادي الأدبي الثقافي بجدة عام ١٤٢٤هـ.

١٥. ندوة حركة المصطلح التي عقدتها وحدة البحث "النقد ومصطلحاته" في مدينة سوسة بتونس في ٢٠٠٥م.

١٦. ندوة "حجة السُلطة في الثقافتين الغربية والعربية" بجامعة منوبة

بتونس.

١٧. ندوة "الأنموذج والنمذجة في الإنسانيات" بجامعة تونس في مدينة تونس ٢٠٠٧م.

١٨. ملتقى النقد الأدبي في المملكة العربية السعودية، الدورة الثانية، في النادي الأدبي بالرياض ٢٠٠٨م.

١٩. ندوة خميسية الشيخ حمد الجاسر، وقد شارك بمحاضرة عنوانها: تأملات في مناظرة الحاتمي وأبي الطيب المتنبي. ٢٠٠٨م.

٢٠. المشاركة بكلمة في منتدى الثلوثية الثقافي احتفاءً بتاصر الدين الأسدي وبعض آرائه الأدبية والثقافية، في ٢٠٠٨م.

٢١. المشاركة في ملتقى نادي القصيم الأدبي المخصص للقصة القصيرة، عام ١٤٢٩هـ.

٢٢. المشاركة في ندوة "قراءة في إصدارات نادي الرياض الأدبي" في ٢٠٠٩م.

٢٣. الندوة الثقافية التي يقيمها قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب، مرتين في كل شهر، وقد شارك في هذه الندوة عدة مرات.

الإنتاج العلمي:

١. النقد الأدبي في مقامات الحريري.

٢. مخطوط الروض الزاهر في محاسن المثل السائر للسميساطي (قراءة تقويمية).

٣. الإغريض في الحقيقة والمجاز والكتاب والتعريض، لتقي الدين السبكي (تحقيق).

٤. موقف ابن المعتز من شعر أبي تمام.
٥. رسالة أبي الحسن بن طباطبا العلوي في استخراج المعمى (تحقيق).
٦. ابن قتيبة وآراؤه التربوية.
٧. زين الدين الرازي وأعماله البلاغية النقدية.
٨. رسالة في الفرق بين المترسل والشاعر لأبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ (تحقيق).
٩. أبو الحسن المرغيناني وكتابه المحاسن في النظم والنثر.
١٠. نقد أم جندب لشعر امرئ القيس وعلقمة الفحل.
١١. موقف حازم القرطاجني من قضية الغموض في الشعر مقارناً بمواقف النقاد السابقين.
١٢. الثقافة النقدية لأبي الطيب المتنبي.
١٣. رأي حازم القرطاجني في قضية الصدق والكذب في الشعر.
١٤. ظلامة أبي تمام للخالدي: الرؤيا والواقع.
١٥. خلاف بين أديبين أندلسيين في المفاضلة بين أبي إسحاق الصابئ وبديع الزمان الهمذاني.
١٦. قصيدة أبي إسحاق الإلبيري إلى باديس بن حبوس الصنهاجي: دوافعها وتأثيرها على أهل غرناطة.
١٧. تأويل الشريف المرتضى للنص الشعري.
١٨. أسطورة يونانية في مقامة لبديع الزمان الهمذاني.
١٩. دعوى سرقة الشعر بين السري الرفاء والخالديين.
٢٠. الشيخ حمد الجاسر العلامة الفذ.
٢١. مآخذ ابن معقل الأزدي على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي.

٢٢. اهتمام الشيخ حمد الجاسر بالشعر والشعراء كما يبدو من كتابه "مع الشعراء".

٢٣. أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري أديباً.

٢٤. موقف موسى بن عزرا من البيان العربي.

٢٥. نصوص النظرية النقدية في التراث العربي وطريقة تقديمها إلى الدارسين المحدثين.

٢٦. الهزروف والقول الشعري: المصطلح والدلالة.

٢٧. الحجاج بشأن الأحقية في الخلافة بين الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ومحمد بن عبدالله بن الحسن العلوي.

٢٨. الأنموذج الشعري القديم وموقف أبي تمام.

٢٩. خطاب المفاضلة بين الشعر والنثر في النقد العربي القديم.

٣٠. مناظرة الحاتمي والمتنبي: الواقع والمتخيل.

٣١. البعد الثقافي في المجموعة القصصية "حكاية الصبي الذي رأى النوم" لعدي جاسر الحربيش.

وأبحاثه هذه مبثوثة في المجلات العلمية المحكمة، وقد استطاع الكرسي –بحمد الله– أن يقنعه بطباعتها ونشرها في كتبٍ ضمن إصداراته لتكون ميسرة للمتخصصين من النقاد والباحثين، وقد صدر بحمد الله الكتاب الأول منها.

هذا هو الدكتور الهدلق العالم الناقد الأديب.

شيمته الكتب

محمد الهدلق: همزة الوصل في قصصنا كلها

أ. د. عبدالله محمد الغذامي

كنا في الثامن من مارس ١٩٧٢ حيث خرجنا معاً أنا ومحمد الهدلق من المكتبة المركزية في جامعة ادنبرة – أسكتلندا، وكانت الساعة الثانية عشرة ظهراً حيث هو وقت الغداء والراحة لمدة ساعة حتى الواحدة، ولكن محمد الهدلق تلك المرة لم يكن في خطته غداء ولا قهوة، وقد علم بالأمس عن مكتبة تجارية تبيع الكتب المستعملة وذكرها لي فقررنا معاً أن نستغل ساعة الراحة هذه بزيارة لتلك المكتبة، وهناك وجد كل واحد منا بعض ضالته حيث تسللت أيدينا وسط رفوف الكتب القديمة ما بين مسرحيات شكسبير وروايات ديكنز وأعمال ديفيد هيوم، ولهذا الفيلسوف نكهة خاصة في مدينة ادنبرة فهو أسكتلندي، وتحمل إحدى بنايات الجامعة اسمه: برج هيوم، وبه وبغيره تكدست أيدينا كتباً ومعها حماسة عالية في نفوسنا، كيف لا، وهي كتب مهمة جداً وبطبعات عريقة وتاريخية، وفي الوقت ذاته هي رخيصة، وستعمر مكتباتنا الخاصة بهذا الهام والرخيص، ولم أنس منظرنا ونحن عائدان من رحلة المعرفة تلك، ومحمد الهدلق يمسك بيده كتاباً من هذه الكتب وهو يسير على طرف الرصيف، ويفحص سعره الذي كان مجرد (بنسات) ولم يصل حتى لربع جنيه، ولم يفته أن يقول لي: انظر لهذا السعر ولهذا الكتاب، ولهذا ولذاك، ويعرض الكتب واحداً واحداً، ثم يقول: إن الواحد منها بسعر كوب من القهوة، وماذا لو أننا اشترينا قهوة بدلاً عن الكتاب، ولا ينسى محمد هنا أن يقارن بين مصير كوب القهوة بعد استهلاكه حيث سينتهي

عبر مسارب الصرف الصحي بعد دقائق من شربه، مقارنة بالكتاب ومصيره عبر سراديب الدماغ حيث لا يذوب ولا يتسرب.

كنت أتماهى معه وأقول له: نعم، نعم، مدركاً أنني أنا وهو كنا نلاعب أنفسنا ونسليها عن ساعة راحة أهدرناها ولم نتغد ولم نحتس قهوتنا، وعدنا إلى عملنا في المكتبة المركزية، وواصلنا الجد بالجد والكتاب بالكتاب.

أتذكر تلك الرحلة بتاريخها المسجل على صفحات الكتب التي اشتريتها يومها، وما تزال مكتبتي معمورة بتلك الكتب الإنجليزية التي جمعتها من مكتبات بريطانيا بطبعات قديمة، بعضها صار الآن نادراً وتراثياً، وهي كلها ترتبط عندي بصورة الهدلق وذاكرته عندي. ولقد رددت له الرحلة تلك برحلة مثيلة لها بعد أن تفرقت بنا الديار حيث انتقلت أنا إلى إكستر (جنوب غرب بريطانيا) وجاء محمد لزيارتنا نازلاً من الشمال إلينا، وأخذته يومها إلى مكتبة تبيع الكتب القديمة والمستعملة (العين بالعين حيث قصاصنا بالكتب)، وراح محمد يشتري منها بنهم نعرفه عنه في حبه للكتب وحرصه عليها، ولن أنسى الرجل الإنجليزي، صاحب المكتبة، حينما سألني بعد شهر من تلك الزيارة: أين صديقك، ولم يعلم أن الهدلق قد جاء لزيارة سريعة وأنه يدرس في الشمال في ادنبرة، إنها بعيدة بعيدة، وهذه هي كلمة صاحب المكتبة حينما سمع قولي عن الهدلق وادنبرة، وهكذا هو الهدلق رجل تتذكره الكتب ويسأل عنه أصحاب المكتبات، وإن كان هذا حدث لنا معاً في مطلع السبعينيات من القرن الماضي أثناء بعثتنا في بريطانيا إلا أن علاقتي بمحمد قد ابتدأت قبل ذلك بعشر سنوات، وعلى التحديد عام ١٣٨٥-١٩٦٥، وهي أول سنة لي في الرياض في كلية اللغة العربية وقد سبقني محمد إليها بثلاث سنوات، ولكنه كان صديقاً لابن خالتي منذ زمنهما معاً في شقراء، وقد جاء إلى زيارتنا في منزلنا الطلابي، ومن أول لحظة لقاء بدأ بيننا نقاش في الكتب

والثقافة، وكنت حينها أقرأ في ثلاثية نجيب محفوظ، وكانت أحداث الروايات تتدفق على لساني بين زملاء السكن، وهذا ما فتح باباً للكلام من الهدلق الذي كشف لنا وقتها عن ثقافته وبصيرته في الكتب والأدب، ومع قراءتي لمحفوظ وقتها وتماهي الهدلق في الحديث عنه وعن العقاد وزكي نجيب محمود، فإنه قد لاحظ أنني اشتكي من دموع في عيوني، ولما أبلغته أنني راجعت الدكتور الخولي، بادر محمد وقال بلهجة مصرية متقنة: عندك تراخوما، عاوز عملية، وقد تعجبت من تقليده للكلام ثم من كشفه ما قاله لي الطبيب، مما جعلني أسأله عما إذا كان حاضراً في العيادة حينما كشف على الطبيب، فقال لا، ولكن هذا هو ما يجده الناس عند ذلك الطبيب، وعيادته جنوب البطحاء مسرح لهذا كله، تلك لحظة ظلت بصورها الجاد منها والهازل تمثل لي صورة محمد الهدلق المستمرة معي، فهو رجل من أشد الناس وأقواهم جديةً وصدقاً وحرصاً، وفي الوقت ذاته هو إنسان ظريف ومتحدث مرن ومزاح عميق المعنى وراسخ الرؤية.

عرفت محمد الهدلق على مدى خمسة وأربعين عاماً، وعرفه عدد غيري من زملاء البعثة في بريطانيا، وخبرته أنا على مدى هذه السنين كلها، وكان أحسن ما في الأحسن الشيم –باستعارة كلمات المتنبي– وشيمة الهدلق هي الكتاب والكتب، وما مر عليّ يوم احتجت فيه لكتاب لا أجده في مكتبتي إلا وجدته عند الهدلق، ولا أحتاج إلا إلى مكالمة هاتفية قصيرة ويأتيني الكتاب إلى حدي، ولذا فإن مكتبة الهدلق الخاصة صارت عندي امتداداً مكانياً ومعرفياً لمكتبتي، وأخص بذلك كتب التراث، واسم محمد الهدلق يتوج كلمات الشكر في عدد من كتبي، وصورته الذهنية وجرس اسمه يرن في ذاكرتي كواحدٍ من أعز من عرفت وأصدق من زاملت وقف بوفاء بجانبي وجوانب الزملاء كلهم، فهو

همزة الوصل في قصصنا كلها، وهو الذي يجمع صفحات الذكريات كلها بأنواعها كلها المازح الهازل منها والجاد الصارم.

كنت أقول له –وما أزال– إنك يا محمد تجني على نفسك وعلى العلم والأكاديمية حينما تتقاعس عن جمع بحوثك في كتب تبوبها حسب انتظام البحوث، وكان يرد عليّ قابلاً ومصادقاً على قولي، وظل وفياً لهذا الجواب على مدى سنوات وما زال وفياً في جوابه وأنا وفي في ملاحظتي، ولكن: لا كتب، ولا اسم لمحمد الهدلق على أي كتاب مطبوع، وتظل بحوثه حبيسة الدوريات والمجلات العلمية، ويظل هو وفياً ومخلصاً في تكرار الجواب كلما كررت أنا التساؤل. ولكني أقول إن محمد الهدلق لو طبع بحوثه في كتب لصارت كتبه مراجع من أهم مراجع الجامعات العربية في مجال التراث النقدي، وهو مرجع علمي موثوق ومعتبر في موضوع النقد العربي القديم، وليته يتم معروفه مع العلم والثقافة ويحسم أمره ويطبع كتبه. ألا تفعل يا محمد وأرجو أن تكرم محبتي لك وتقديري لك بقبول طلبي هذا وتحقيق وعدك الذي ظللت وفياً له.

وكم كنت أرى محمد الهدلق وكأنما هو الوجه الآخر لي، الوجه المغاير، وليس هذا بمعنى النقيض ولا بمعنى السالب، ولكنه الصورة المعاكسة، أي أنني أنا رجل مندفع لا تهمني حسابات الخطوة وأقول فكرتي بلا تحفظ ولا تحسب، بينما هو رجل دقيق ومدقق في خطوه وفي نظرته، وهذا ما يجعلني أشعر دائماً بحاجتي إلى رأيه لأجعل من مشورته صمام ضبط ووزن لحركتي، وأنا الرجل الذي ديدنه المغامرة والاقتحام وصاحبي ديدنه الحكمة والتروي، ومن هاتين الخصلتين المتغايرتين، ولا أقول المتناقضتين، نشأت حالة من الثقة في نفسي تجاه صاحبي، خصوصاً أنه رجل مخلص وصادق ولا يجامل في رأيه ولا يحسد أو يغار أو يبخل، وتلك عوامل تشجيع وإغراء، وفي آخر محاضرة عامة لي في الجامعة

كان محمد الهدلق يجلس في الصفوف الخلفية من القاعة، ولم ألحظ هذا ولكن بعض الزملاء ذكروا لي ذلك قبل صعودي إلى المنصة، وما كان ذاك بموضع سؤال عندي، وصارت المحاضرة وانتهت وهو لما يزل في موقعه الخلفي، وبعد ذلك بيومين قابلته في ممر الكلية، وحينها بادرني بالثناء على المحاضرة وقال لي إنه كان متخوفاً منها حتى إنه رفض تولي إدارة الجلسة تلك لأن الموضوع عن القبائلية، وخشي من حساسية الموضوع وانفجار الموقف لما في الأمر من محاذير، ولذا حضر محاذراً ومتخوفاً على صاحبه مما قد يحدث، ولكنه وهو يقول هذا راح يثني على المحاضرة ويثني على طريقة العرض حيث رآه يعتمد أسلوباً موضوعياً محايداً لا يسيء لأحد، وظل يهنئني على حصافة العرض وحصن التخلص مما عكس مخاوفه وبدد شكوكه، وجعله يغير رأيه في المحاضرة.

قال هذا ولم يفتني أن أصطاد اللحظة بنكتة أو نكتتين معه، مع كل ما في نفسي من تقدير له على وضوحه من جهة وعلى صدقه مع نفسه من جهة أخرى، حيث لم يجامل الصداقة على حساب الموقف، ثم ختمها بأن ذكر لي قصة رفضه لرئاسة الجلسة، وقال كامل قصته معي ومع المحاضرة ورأيه النهائي فيها.

هذه صورة لمحمد الهدلق الصادق من جهة والصارم من جهة ثانية والواضح من جهة ثالثة، وهو الرجل النقي في قوله وفي تقديمه لنفسه.

ولن أختم حديثي قبل أن أشير إلى أن محمد الهدلق يقف وراء مجيئي إلى جامعة الملك سعود، ولولا موقف خاص وشجاع منه لتعطل أمر انتقالي إلى الجامعة، ولم أكن أعرف أي شيء عن ذلك، ولم أعرف أن معاملة نقلي قد تعرضت لمؤامرتين كادتا تفسدان الموضوع وأنا غائب هناك لا أعلم ما يحدث، ولولا نباهة أبي خالد وصدق الوقفة منه لما جئت إلى الرياض وقد أكون هناك في

هولندا أو الإمارات أو هارفارد، وتلك قصة لم أقرر بعد كشف كل تفاصيلها، غير أني –فحسب– أنسب الفضل لصاحب الفضل، وأشير بالتقدير إلى دور هذا الرجل الوفي والصادق: محمد الهدلق.

أستاذنا محمد الهدلق

❖أ. د. أبوأوس إبراهيم الشمسان

أول مرة لقيت أستاذي كانت في مبنى كلية الآداب بالملز، كنت راجعًا من الكويت إثر اتصال من زميلي فهد بن عمر سنبل يخبرني أنه علم من مكتب الملحق الثقافي أن مدير الجامعة أنهى بعثتي أو هو بسبيل إنهائها، وكنت قد تقدمت إلى القسم قبل هذا بطلب تمديد لأنهي آخر فصل كلفني كتابته أستاذي يوسف خليف رحمه الله. دخلت على الدكتور الهدلق ذلك اليوم وكان إلى جواره أستاذي الدكتور محمد الشامخ فسلمت عليه وجلست إلى جانبه، أما الدكتور محمد الهدلق فقد قام من كرسيه ليرحب بي ترحيبًا شديدًا حتى قلت في نفسي أيعرفني من قبل؟ شرحت المشكلة يومها، فاستنكر أستاذي الشامخ أن تكون القرارات بغير علم القسم.وفي ذلك اليوم كان مجلس الكلية، وتركنا الهدلقذاهبًا إلى المجلس، وكان وكيل الكلية في ذلك الوقت هو الزميل الدكتور عبدالله السيف، فذهبت بعد انتهاء الاجتماع ألتمس منه العون والوساطة لدى المدير، يومها قال عن موقف الهدلق في مجلس الكلية: "ما شاء الله عليه، ما ذكر شيئًا عن فصل البعثة بل دافع عن طلب التمديد دفاعًا قويًّا"، نعم هكذا فعل وكان هذا أمرًا حاسمًا جعل مدير الجامعة يوم قابلته أكثر تفهمًا لحاجتي إلى مزيد من الوقت.

ليس هذا هو الموقف الوحيد فله مواقف كثيرة معي ومع غيري من الزملاء يطول سردها في هذه المساحة الضيقة. عرفت الهدلق رئيس قسم وعميد كلية للآداب وعميد الدراسات العليا ، وكان لي شرف العمل معه في لجان متعددة كان لي فيها المعلم الأول بما وهبه الله من دقة ومعرفة قوية بالإجراءات الإدارية، هادئ الطبع لم أره يومًا غاضبًا مهما وجد من عنت الآخرين، له قدرة

عجيبة على كسر جمود العمل واللقاءات بطرف يوفق إلى ابتكارها ببداهة تناسب المواقف، أما علمه فهو الغزير وأما حفظه فهو المكين، ما سمعته يومًا معقبًا على أحد إلا قلت في نفسي كيف اجتمعت له هذه الفِكر وكيف استوت له هذه الصياغة، وإنك لا تمل من حديثه وتعليقه. حين كان رئيسًا للقسم لم أعلم أنه أعيدت للقسم معاملة أنفذها؛ لأن الدكتور محمد الهدلق لا يترك مجالا للخطأ، وأنا إلى اليوم كلما رأيته في مجلس القسم أحس باطمئنان شديد إلى سير العمل؛ لأنه يرعى القسم وهو من بين أعضائه كما لا يفعل أحد غيره، فتراه لا يترك من الأمور ما هو بحاجة إلى بيان أو احتراز، لأنه جريء في الحق لا يخشى غير الله في قول أو عمل، وكنت إذا رأيته ساكتًا عرفت أن الأمور في مجراها الصحيح. وهو على معرفته الغزيرة وعلمه الجم وسعة خبرته الإدارية بما كلف به من العمادات والأعمال الإدارية تجده بالغ التواضع فتراه يهون من نفسه في حين يرفع من شأن الآخرين حافظًا للآخرين أقدارهم. وإنه من دواعي فخري واعتزازي أن تشرفت بالعمل مع هذا الأستاذ الكريم الذي تعلمت من خلقه وعلمه فلا زال الله منعمًا عليه بالصحة والعافية.

وأستاذنا من أزهد خلق الله بالظهور الإعلامي فتراه يتحامى ذلك تحاميًا وليس يقبل منه إلا ما يضطر إليه أو يحرج به، وهو على غزارة علمه ومعرفته عزوف عن الكتابة الصحفية مقل في الأعمال إن وازناه بغيره من الأساتذة الأكاديميين، ولكن أبحاثه التي نشرها كانت مثار إعجاب المتخصصين، إذ أعيد نشر بعضها بموافته، أو سطي عليها، ولا أنسى ذلك اليوم وهو يريني بحثه منشورًا باسم شخص آخر لم يغير من البحث حرفًا واحدًا سوى نزع اسم الهدلق وإثبات اسمه عليه، ومع ذلك كان أستاذنا غارقًا في الضحك من ذلك وحقًّا شرّ البلية ما يضحك.

وكان من حسن حظي أن أتحفني بآخر أعماله وهو ما نشر ضمن سلسلة الأعمال التراثية المحققة التي يوالي نشرَها كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها،وهو كتاب ضمّ ثلاث رسائل كان أستاذنا الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق حققها ونشرها في دوريات علمية، ثم جمعها لتخرج في مجلد واحد، وأحسن في ذلك ؛ لأن في إعادة النشر فرصة إعادة نظر للنشرة السابقة ولأن كثيرًا من القراء والباحثين أميل إلى قراءة الكتب والانتفاع بها، وقلما نجد طلاب الدراسات العليا يعودون إلى بحوث نشرت في المجلات الدورية.

أما الرسالة الأولى فهي (رسالة في استخراج الْمُعَمّى) لأبي الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت٣٢٢هـ)، و(مُعَمّى) اسم مفعول من الفعل (عَمّى)، جاء في معجم (لسان العرب) لابن منظور قوله "والتَّعْمِيَةُ: أَنْ تُعَمِّيَ عَلَى الإِنْسانِ شَيْئًا فتُلَبِّسَه عَلَيْهِ تَلْبِيساً. وَفِي حَدِيثِ الْهِجْرَةِ: لأُعَمِّيَنَّ عَلَى مَنْ وَرائي، مِنَ التَّعْمِيَة والإِخْفاء والتَّلْبِيسِ، حَتَّى لَا يَتبعَكُما أَحدٌ. وعَمَّيتُ مَعْنَى الْبَيْتِ تَعْمِية، وَمِنْهُ الْمُعَمَّى مِنَ الشِّعْر، وَقُرِئَ: {فَعُمِّيَتْ عَلَيْهِمُ}(١) [٦٦-القصص] بِالتَّشْدِيد". ونقل لنا أستاذنا الهدلق تعريف أبي هلال العسكري معنى التعمية في الشعر "والتعمية أن تجعل مكان كل حرف من البيت اسمًا .. فإذا مضت الكلمة تدير دائرة على ذلك حتى تأتي على آخر البيت"(ص٢٠). وذكر أن فن المعمى عربيّ الوضع منذ الخليل وانتقل إلى العجم فأغرموا به. وابن طباطبا شرح في رسالته كيفية الاهتداء إلى ما عميّ في الشعر بالاستعانة بمعرفة أوزانه وإحصاء حروفه وذكر جملة من الخطوات المتبعة المعينة على كشف المعمّى، والتعمية في عصرنا الحاضر تعددت أغراضها وتعقدت أساليبها.

أما الرسالة الثانية فلا تقل طرافة عن الرسالة الأولى، وهي (رسالة في الفرق بين المترسّل والشّاعر) لأبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ (ت٣٨٤هـ). وهي جواب لسؤال ربما يخطر على بال كثير من الناس حين يلاحظون أن المشتغلين بعلوم غير أدبية إبداعية تأتي لغتهم إشارية مبلغة لكنها ليست بلاغية الطابع كلغة الإبداع الشعري وما يشاكل الإبداع الشعري، وكنت أظن هذه الملاحظة عند المحدثين حتى اطلعت على هذه الرسالة التي تجيب عن هذا فتتحدث عن تباين فنّين ليسا بتباعد غيرهما كالكتابة في النحو والفقه ببعد لغتهما عن لغة الشعر وإن جاء في نظم شعري كالألفيات التي تزوى فيها العلوم، فهي ليست شعرية وإن استعارت شكل الشعر وهو نظمه، افتتح الصابئ رسالته بقوله "كنت سألتني –أدام الله عزّك– عن السبب في أنّ أكثر المترسلين البلغاء لا يفلقون في الشعر، وأن أكثر الشعراء الفحول لا يجيدون في الترسل فأجبتك بقول مجمل ووعدتك بشرح مفصل"(٧١)، وهو يرد ذلك إلى اختلاف طريقة الإحسان في الفنين، فسر الترسل في وضوحه وسر الشعر في غموضه، وهو بعد يفسر علة ذلك بما فرض للشعر من أوزان مقيدة وبيوت منفصلة لا يمتد النفس في البيت بأكثر من مقداره فكان لزامًا أن يكتنز بالمعنى ويدق ويلطف حتى يكون المفضي إليه فائزًا بذخيرة دفينة يظفر مستخرجها، وأما الترسل فهو موضوع وضع ما يهذّ ويقرأ متصلًا وبالجملة فما يستحب في الشعر يستكره في الترسل وما يستحب في الترسل يستكره في الشعر. وقد أدرك النحويون الفرق بين لغة الشعر ولغة غيره فالتمسوا العذر للشاعر أن يأتي من الضرورة ما يعاند به القواعد ولحنوا من يفعل ذلك في السعة منذ كان له مندوحة عن تلك المخالفة.

وأما الرسالة الثالثة فهي (الإغريض في الحقيقة والمجاز والكناية والتعريض) لتقيّ الدين عليّ بن عبدالكافي السبكيّ(ت٧٥٦هـ)، و"الإِغْريضُ

كُلُّ أَبيضَ مثلِ اللَّبَنِ وَمَا يَنْشَقُّ عَنْهُ الطلْع" (لسان العرب)، وهي رسالة مختصرة تزوي لك المقصود عند البلاغيين والأصوليين بهذه المصطلحات البلاغية، "فالحقيقة اللفظ المستعمل فيما وضع له. والمجاز اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة"(ص٩٥)، وهذه دلالة مباشرة بخلاف الكناية والتعريض "فلا يدلان على المكنّى عنه والمعرَّض به وإنما لهما بهما إشعار يحتاج إلى قرينة أو نيّة"(ص٩٥). والكناية قد تكون من الحقيقة أو المجاز؛ لأنه ليس سوى إخفاء للفظ وتعبير عن معناها؛ إذ "الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له"(ص٩٩)، ومن هنا هي "إمّا حقيقة خاصّة، وإما مجاز خاص"(ص١٠٠)، وأما التعريض فخلاف التصريح فهو "أن تذكر شيئًا تدل به على شيء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلّم عليك، ولأنظر في وجهك الكريم ... وكأنّه إمالة الكلام عن عُرْض يدل على الغَرَض"(ص١٠٠)، وهو يقع من حيث الدلالة والمجاز بحسب معناه، وأما التفطّن إليه وإدراك مراد صاحبه فمتعلق بفهم المخاطب وفطنته.

والمدهش في رسائل التراث جمعها بين غزارة الفكَر وعمقها وجمال السبك الذي يبهج النفس ويسر الخاطر، فلعل أبناءنا من الباحثين يطلعون عليها لتذكي مهاراتهم وتهذب لغة كتاباتهم.

تحية تقدير لأستاذنا محمد بن عبدالرحمن الهدلق حفظه الله ورعاه.

---

(١) قراءة الجمهور بفتح العين وتخفيف الميم، وقرأها بضم العين وتشديد الميم الأعمش، وجناح بن حبيش، وأبوزرعة، وأبورزين، العقيلي، وأبوعمرو بن جرير، وقتادة، وأبوالمتوكل، وعاصم الجحدري. انظر: معجم القراءات، لعبداللطيف الخطيب، ٧: ٥٦- ٦٦.

هكذا عرفت الهدلق

❖أ. د. سعاد المانع

كان كل ما كنت أعرفه عن الأستاذ الدكتورمحمد الهدلق في الثمانينيات (الميلادية) هو أنه أستاذ تخصصه يتصل بمجال النقد العربي القديم، وأنه رئيس للقسم (قسم اللغة العربية) القسم الذي انتمي إليه. كنت آنذاك مبتعثة من جامعة الملك سعود (جامعة الرياض) للدراسات العليا في مرحلة الدكتوراة في الولايات المتحدة، ومن الطبيعي لأي طالب مبتعث أو طالبة أن يعرف اسم رئيس القسم الذي ينتمي إليه. لكن لم يحدث أثناء ابتعاثي أية مشكلة خاصة تتصل بالابتعاث، وتتطلب مني أن اتصل برئيس القسم لحلها، لذا لم يحدث أن اتصلت (برئيس القسم) لمشكلة تتصل بالبعثة.

لكن بعد مضي مرحلة من الدراسة، والبدء بالبحث في موضوع الرسالة، كانت ثمة مسائل في البحث تتصل ببعض قضايا النقد القديم تثير قلقي. لم تسعفني القراءة الكثيرة على الوصول إلى إجابة أطمئن إليها. مع شدة حرصي على تتبع القراءة في كل ما يصل إلى علمي أنه متصل بهذه القضايا، وعلى وفرة المصادر العربية (وغير العربية بطبيعة الحال) في مكتبة الجامعة التي كنت أدرس فيها (١). مع هذا ظل عدد من المسائل التي تقلقني في البحث لا يجد إجابة تبعث الاطمئان في النفس. من هنا كان لا بد من سؤال المهتمين بهذا المجال – كما يحدث مع أي باحث أو باحثة– سواء أكانوا من الباحثين العرب أم من غيرهم. وحين حدث أن سألت أ.د عبد العزيز بن ناصر المانع الذي كان يعمل آنذاك ملحقا ثقافيا في الولايات المتحدة (في كاليفورنيا) إن كان يعرف من يمكن أن استفسر منه في بعض هذه النواحي ذكر لي اسمين: أحدهما بونيباكر Bonibakker S.A. (محقق

كتاب قدامة بن جعفر نقد الشعر) وكان أستاذا معروفا في مجال النقد العربي القديم يُدَرِّس في جامعة كاليفورنيا (لوس انجيلوس)؛ والآخر هو الدكتورمحمد الهدلق (وأثنى على علمه ثناء كثيرا). بدأت أعرف منذ ذلك الوقت –بغض النظر عن الأسئلة المقلقة المتصلة ببحثي– أن د. محمد الهدلق ينظر إليه زملاؤه على أنه عالم متميز في حقل اختصاصه.

بعد انتهاء الدراسة وعودتي للتدريس في القسم في الجامعة نفسها(جامعة الملك سعود)، أتيح لي أن أعرف الدكتور الهدلق من خلال جوانب أخرى. كان بعض هذه الجوانب يتصل بالناحية العلمية، وبعضها يتصل بالناحية العملية. لقد وجدت نفسي أكون رأي الخاص عن الدكتور الهدلق عبر حقبة غير قصيرة من الزمن أتاحت لي أن أعمل في قسم هو من أعضائه البارزين. وفي مجال العمل العلمي (الأكاديمي) يصعب إفراد الناحية العلمية عن الناحية العملية.

تتسم بحوث أ.د الهدلق العلمية التي أتيح لي أن أطلع عليها بالدقة البالغة (وهذه بطبيعة الحال إحدى الخصائص الأساسية المتصلة بالبحث العلمي) يبدو واضحا في هذه البحوث صرامة علمية غايتها تحري الحقيقة. كما تتسم هذه البحوث بكون جانب منها يتناول نواحي خفية في تراثنا النقدي أونواحي نادرا ما يلقى عليها الضوء مع أن لها أهميتها في تاريخ النقد العربي واللغة العربية. واذكر مثالا على ذلك بحثه القيم (موقف موسى ابن عزرا من البيان العربي) (مجلة "جذورالتراث" مج٩، ج٢١ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م).

يتناول في هذا البحث مدى تأثير البيان العربي على عالم من يهود الأندلس عاش بين القرنين الخامس والسادس الهجريين هو ابن عزرا، كما يظهر من كتابه (كتاب المحاضرة والمذاكرة)،حيث يعرض في هذا الكتاب تأثير البيان

العربي على كتابات اليهود في النواحي المتصلة بالبلاغة. والكتاب ألف بالعربية لكنه مكتوب (بحروف عبرية).

وبقدر تعمق الدكتور محمد الهدلق في جوانب النقد العربي القديم يبدو من ناحية أخرى –من خلال تعليقاته ومناقشاته مطلعا واسع الاطلاع على نظريات النقد الأدبي الحديث–. فلم يكن ممن يحصر اطلاعه في جانب ضيق من التخصص لا يتجاوزه.

وقد أتاحت لي بعض مجالات العمل المشترك مثل المشاركة في لجان مختلفة تتعلق بدراسة الطالبات أو حضور نقاش الرسائل الجامعية المتصلة بالطالبات، أو المشاركة في ندوات علمية يشارك فيها أعضاء هيئة التدريس (من أقسام النساء) بطريقة أو أخرى أن أعرفه في نواح تتصل بالعمل الجامعي. كانت آراؤه تتسم بالرصانة، وتنم عن تفكير متأن ونظرٍ في الأمر موضع النقاش من جوانب متعددة، كما تنم عن سعة اطلاع في المجال الذي يتحدث فيه. ومن الطبيعي أن تكون هناك اختلافات في الرأي في القسم أو في اللجان – كما يحدث في أي قسم وفي أية لجنة في أية جامعة من جامعات العالم. لكن مع صلابة الدكتور الهدلق في آرائه وكونه يصدع برأيه حتى وإن كان مخالفا لرأي الجميع، لا يقترن هذا الصدع بالرأي بنوع من الجفاء, أوتشوبه شائبة من استخفاف بآراء الآخرين. كان يبدو يحترم الزملاء جميعا ويلتزم الموضوعية في إبداء رأيه في أعمالهم العلمية حين يتطلب الأمر إبداء مثل هذا الرأي سواء أكانوا صغارا أم كبارا، رجالا كانوا أم نساء. وهو يبدو مثال الباحث الحق الذي لا يجد أدنى غضاضة أن يذكر في بحث له أنه استفاد من رأي علمي أورده دارس مبتديء أو دارسة.. لقد هيأت التطورات الأخيرة في جامعة الملك سعود أن يشارك الأستاذات في جلسات القسم، وفي حضور ندوات مشتركة عن طريق الشبكة المغلقة. وقد أتاح لي هذا معرفة أفضل

بالدكتور في مجال الحوار والنقاش. كما أتاح لي – من قبل – عملي في التدريس، وعملي (سابقا) وكيلة للقسم مدة تزيد على أربع سنوات، أن أعرف كثيرا مما يقوم به الأساتذة أو الأستاذات في مجال التدريس، وأن يصل إلى سمعي بعض ما يتداوله الطالبات عن أساتذتهن أو أستاذاتهن. وقد وصل إلى علمي ما يقوله الطالبات عنه مثل كونه شديدا في التدريس، وأنه يطالب الطلاب والطالبات بأقصى ما عندهم من جهد. وأنه لا يتساهل في قبول الأعذار. لكن لم يصل إلى سمعي قط أنه قاس أو مجحف بحق طالب أو طالبة. ومن الطبيعي أن تكون شدة الأستاذ في صالح الطالب علميا.

وبقدر هذه الشدة في مجال التدريس والصلابة في إبداء الرأي يبدو الدكتور دمثا رحب الصدر، رب أسرة حانياً. وقد أسعدني أن عرفت قبل سنوات ليست بالقليلة السيدة زوجته وبناته السيدة منى والدكتورة نوال (طبيبة أسنان) وأروى (طالبة جامعية توشك أن تتخرج). تبدو الأسرة تحفها البهجة والتفاؤل إلى جانب اتسامها بالجد.

أديب من جيل الرواد

❖أ. عبدالله بن حمد الحقيل

بداية المعرفة بالأستاذ الدكتور محمد الهدلق في مجلس الشيخ حمد الجاسر رحمه الله وهو علم من أعلام الأدب والثقافة في عدة مناسبات ثقافية منها التكريم الذي أقامه النادي الأدبي في الرياض بتاريخ ١٤٣٦/٢/٢٥هـ حيث منحنا الفرصة الصمينة وشرفني إياه بهذا التكريم في يوم الاحتفاء باللغة العربية وكذا تكريم الجمعية العلمية السعودية للغة العربية لنا في تلك الليلة احتفاء بما قمناه من خدمات للغة القرآن الكريم هذا التكريم الذي غرس في نفسي والدكتور الهدلق حب اللغة العربية والمنافحة عن حوزتها وامتدت العلاقة والمودة معه وكم هو جميل أن تحتفي "جسور" بالمبدعين والفاعلين في المشهد الثقافي ومن بينهم الأستاذ الدكتور محمد الهدلق الذي تشهد له مسيرته العلمية الحافلة بالعطاء الفكري إضافة إلى إسهاماته العلمية في جامعة الملك سعود أستاذًا ومشاركاً في ندواتها ومؤتمراتها ومشرفًا على الرساءل الجامعية ومناقشاً لها والحديث عن الدكتور محمد الهدلق حديث يتشعب ويتسع بقدر اتساع ثقافته الجامعية ومناقشًا لها والحديث عن الدكتور محمد الهدلق حديث يتشعب ويتسع بقدر اتساع ثقافته واهتماماته الأدبية فهو أديب متمكن وناقد وباحث إلى جانب اهتمامه باللغة العربية والعمل على النهوض بها في ميادينها المتنوعة وجوانبها المختلفة والمحافظة على سلامتها فهي رمز الحضارة الإسلامية وقلبها النابض وتحقيق الازدهار لها حتى تعود إلى سالف مجدها الذي كان مبعثًا لنور العلم والفرقان ومشعلاً أضاء للإنسانية طريقها مما يدل على جلال قردها وشرف منزلتها.

إن الدكتور الهدلق يمثل شخصية الأديب متعدد المواهب وليته يكتب سيرته الأدبية والذاتية وهي حافلة بالعطاء والمواقف وعن تجربته في العمل الثقافي

والأدبي فهو شاهد على عصره وسابر لأغواره وستكون مثل هذه السير للأدباء سببًا في معرفة طلبة الدراسات العليا لكي يتخذوا من هؤلاء الأدباء موضوعات لرساءلهم الجامعية.

وختاماً فالدكتور محمد الهدلق يستحق تكريمًا وتقديراً يليق بمقامه وقامته الثقافية أمد الله في عمره وألبسه الصحة والعافية وأعانه على تكملة مسيرته العلمية والثقافية.

المتصافي المتسامح

❖د. محمد بن عبدالله المشوح

الدكتور محمد الهدلق شخصية علمية جادة، وتراثي أصيل وعاشق عربي صادق ارتوى من معين الأصالة وتربى في أحضان التراث. وما ذكرت الأصالة والتراث إلا واقترن اسم (الهدلق معهما يبهرك بهدوئه وسمته ويحتويك بأدبه وخلقه).

قد لا أذيع سراً بأنه كان أحد صمامات الأمان لمجلس إدارة نادي الرياض الأدبي وكان في نظري عند تعيينه أحد الرهانات الهامة للمعنيين في وزارة الثقافة والإعلام.. وكان كلما هبت عواصف الغضب عن ملامح الأسماء في نادي الرياض الأدبي يأتي اسم د. الهدلق ليضع الثقل اللازم في احتواء عواصف الخلل العاتية تجاه النادي.

ربما في نظري أدرك الراسمون لسياسة الأندية الأدبية أن تشكيلة الأندية بحاجة إلى ما يعرف ب (عيارات ثقيلة) تملأ الفراغات الكبرى وتقطع الجدليات ويلتف حولها المختلفون. وإذا كان المعنيون قد افلحوا في ذلك عبر بوابة الهدلق في نادي الرياض الأدبي فقد حجبت هذه النافذة عن الأندية الأخرى. ربما يكون عذرهم افتقار تلك المناطق إلى أسماء علمية رصينة أمثال: د . محمد الهدلق.

ربما سوف أذيع سراً آخر قد علمته من مصدر موثوق واطلعت على أطرافه أن د.محمد الهدلق مولع بالنكتة إلى درجة أنه مهووس (بالطرائف). يتمتع بروح هادئة تقرأ في وجهه تقاطيع الأمل والفأل إلى المستقبل بلا ضجيج ولا قلق.

ما أستطيع أن أقوله إنه أبعد الناس عن الخصومة وصنفه هؤلاء قد لا يروقون لي كثيراً (بصفتي محامي) فالخصماء هم عملاؤنا (كثرهم الله). أما صنف

الدكتور الهدلق المتصافي المتسامح حتى مع من أساء إليه فهم قلة. وقصة سرقة بحثه الشهير (النقد الأدبي في مقامات الحريري) الذي نشر عام ١٤٠٢هـ وتمت سرقته من قبل أستاذ جامعي آخر متقدماً لنيل درجة الترقية من إحدى الجامعات المصرية فما علا طيشه أو ارتفع صوته ولكن تعامل مع هذه الكارثة العلمية بتؤده وعقلانية وقد ذكر القصة تفصيلاً الأخ محمد عبيد في مقالة (السطو على البحوث العلمية والصعود إلى أسفل). عوداً على العاشق الأصيل د.محمد الهدلق وهو صنو للجناح الأخر د.عبدالعزيز المانع حيث يجمعهما المكان والزمان والعنوان..

تحية صادقة لأدبنا العربي القديم الذي يقف على حراسته الأمين د.محمد ابن عبدالرحمن الهدلق.

ابق دائمًا معلمي!

❖أ. د. فاطمة الوهيبي

في بداية دراستي الجامعية كنت قد عودت نفسي على القراءة المكثفة وعدم الاكتفاء بما يعطي لنا من دروس أثناء المحاضرات. وكنت شديدة الضيق بمبدأ الانغلاق على ما يُم لى أو ما يطلب منا أحيًانا حفظه. وجاءت مادة النقد العربي القديم الذي درّسنا إياه في مرحلة البكالوريوس الأستاذ الدكتور محمد الهدلق. كان علمًا جديدًا تمامًا بالنسبة لنا، لم يسبق أن تعلمناه أو شيئًا منه أو شيئًا مشابهًا له في المراحل السابقة. أعجبتني المادة، وغذّت جانب الشغف المعرفي بكل جديد يفتق الذهن، ويدعو إلى التأمل والتفكير، ويفتح منافذ الحوار والجدل، ويشرع آفاقًا للآراء المختلفة. شغفت بالمادة التي أحسن أستاذنا عرضها فحببنا فيها. ورحت أقرأ وأجادل، وأستاذنا يشجع ويتحمل حماستي وشغفي بالمضي وراء تأويل النصوص ومحاورة بعض النقاد قدامى ومحدثين.

وكلما تذكرت تلك المرحلة أُكبر في أستاذي الدكتور محمد الهدلق علمه وسماحته وسعة صدره التي كانت تفسح للطلاب فرصة لإظهار قدراتهم وشخصياتهم، على الرغم من الوقت الضيق جدًا المخصص لمادة تدرس عبر الشبكة، مع ازدحام الاستوديوهات بمواد تُقلص ساعاتها الثلاث إلى ساعة يتيمة يصنع خلالها أستاذنا المربي عددًا من المستحيلات متزامنة مع بعضها: يشرح، ويغطي المنهج، ويلخّص، ويُدرّب، ويحاور، وبعد الاختبارات يناقش الأجوبة، ويوضح الأخطاء. و هي مقدرة رائعة مازلت على الرغم من تدريسي في الجامعة سنوات طويلة لا أبرع فيما برع فيه أستاذي من إحكام وسيطرة على الوقت .

كما أذكر من مآثره أنني حينما أنهيت مرحلة البكالوريوس، والتحقت ببرنامج الدراسات العليا كان اهتمامي وتعلقي بالنقد واضحًا، وكان اختياري

محسومًا ؛ فقد قررت أن أتخصص في النقد. واخترت موضوعًا هو (نقد النثر في القرنين الرابع والخامس الهجريين) وقد تخوف كثير من الأساتذة حينها من أن لا أجد مادة كافية، على الرغم من تسليمهم بأهمية الموضوع. ولم أجد من يساندني حينها إلى الدكتور محمد الهدلق الذي راح يشجع الآخرين على قبول الموضوع لأهميته، وهذا من المواقف التي لا أنساها مطلقًا، وهو موقف يدل على بعد نظر وعمق معرفة، ولم يخب ظنه لا في الموضوع ولا في طالبته، فقد أنجزت الرسالة بامتياز، ثم كان في لجنة المناقشة عضوًا وكان مدققًا كعادته ولكن كان مربيًا وفخورًا! ثم بعد ذلك بسنوات رشح القسم كتاب (نقد النثر في القرنين الرابع والخامس الهجريين) لجائزة الملك فيصل العالمية وهو في الأصل رسالة ماجستير. وأقول هذا الكلام لأبين أن القسم بالعلماء الكبار الموجودين فيه من أمثال الدكتور محمد الهدلق كان مُقدّرًا له أن يحافظ على مكانة علمية رفيعة وعلى مستوى علمي رصين مقنن، وبمثله وبعدد كبير من أساتذتي الكبار الذين يُعدّون أعمدة القسم بفضلهم تم تخريج أجيال، وبفضلهم حافظ القسم على مسيرة علمية وتطور بحثي مميز استمر في أجيال متلاحقة .

أما الدرس البارع والطريف معًا الذي لا أنساه أبدًا للدكتور محمد الهدلق أنه وأنا أدرس معه مادة النقد العربي القديم في السنة الثانية من البكالوريوس تصادف أن كتبت في أحد الاختبارات هذه العبارة (كانت أم جندب زوجة امرئ القيس ذات معرفة بالشعر) وكانت الدرجة من ٢٠ وحصلت على ١٨ فقط، وحينما وزع الدرجات، وأعلمني بخطأي قال لي: إنني أستحق العشرين لولا خطأ لغوي هو كلمة زوجة. وحيث إنني كنت مجادلة من الطراز الأول (المزعج أحيانًا) قلت: إن زوجة مستعملة وصحيحة، ظانة أنني قد جئت برأس كليب كما نقول في عاميتنا، فأجابني: نعم، لكن الأفصح والأفضل زوج بدلاً من

زوجة، وقال: إنه لا يحق لنا أن نترك الأعلى لما هو أقل وأدنى في سياق الفصاحة والقوة! خرست أمام حجةٍ لا تقاوم، وتعلمت أن الإتقان والدقة وتحاشي ما هو دون يجب أن يكون مطلبًا لكل باحث. هذا الدرس البارع تعلمته من أستاذي الدكتور محمد الهدلق من بين دروس كثيرة تتالت تعلمتها من أخلاقه وسلوكه وتعاملاته التي تجمعها كلها صفة النبل والتفرد .

وثمة مواقف أخرى للدكتور محمد الهدلق يعجز القلم عن إيفائها حقها، لكنها كلها تؤكد أنه نموذج فريد من الأساتذة المربين بعلمهم وتواضعهم واهتمامهم الذي لا ينقطع بأبنائهم الطلاب. وخير مثال ما فعله بصمت من أجل محاولة إعادتي إلى الجامعة بعد أن تركتها في العامين الماضين. وقد أثر ذلك في نفسي تأثيرًا جميلاً وعميقًا، وكان ذلك من أهم أسباب موافقتي للعودة مجددًا إلى الجامعة والانضمام إلى كوكبة الأساتذة الذي كان لهم كل التقدير والاعتزاز في نفسي والذين كتبوا معروضهم من أجل هذه العودة. ذلك الخطاب –الذي كان الدكتور محمد من ورائه متواريًا بأدبه وفضله الجم– علمني أن عقل الأستاذ المربي وقلبه الأبوي قادران على تفهم ما لا تقوله عزة الشباب وأنفته وحماسته! شكرًا أستاذي وابق دائمًا معلمي!